من كنوز القرآن

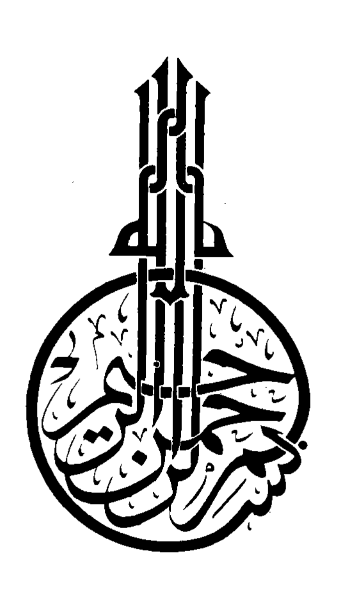
١٣



الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي



دمشق



وقفات مع
هذه الآيات

الطَّبْعَة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم ـ دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية ـ بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير ـ جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

مقدمـــة

إنَّ الحمدَ لله ، نَحمدُه ونَستعينُه ، ونَتوبُ إليه ونَستغفرُه ، ونَعوذُ بالله من شُرورِ أَنفُسِنا ، وسَيِّئاتِ أَعمالِنا ، مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهدُ أَنَّ لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريكَ له ، وأشهدُ أَنَّ محمَّداً عَبدُه ورسولُه ، صلواتُ الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبِه أَجمعين .

أَمّا بَعْد :

فقد أَوجبَ الله على المسلمينَ النظرَ في القرآنِ ، والوقوفَ أَمامَ آياتِه ، وَتَدبُّـرَ جُمَلِه وعباراتِه ، فقال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩].

وأخبرَنا اللهُ أَنَّ الذي يحولُ بينَنا وبينَ تَدَبُّرِ القرآنِ هو الأَقفالُ الثقيلة التي على القلوب ، وأنه لا بُدَّ من إزالَةِ هذه الأَقفال؛ لتدخلَ أَنوارُ القرآنِ إلى هذه القلوب ، فتُضيئَها وتُحييها وتُحركها ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

وإِنَّ الحياةَ مع القرآنِ هي الحياة ، كيفَ لا والمؤمنُ يُناجي الله ربَّ العالمين ، بتلاوةِ كلامِه ، والوقفةِ مع آياتِه ، وتحليلِ كلماتِه ، وفهمِ معانيه ، واستخراجِ دلالاتِه ، وتنفيذ أحكامِه؟! .

وإِنَّ القرآنَ العظيم هو أَعظمُ ما تُـوَجَّـهُ له النَّظَرات ، وتُـنْـفَقُ فيه الأَوقات .

وما أَجملَ ما قاله الصحابيُّ الجليلُ عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه ، عن

سور (الحواميم): إذا وَقَعْتُ في الحَواميم فكأَنما أَقَعُ في رَوْضاتٍ دَمِثاتٍ، أَتأَنَّقُ فيهنّ.

والحَواميمُ سَبْعُ سورٍ متتابعةٌ في المصحف، مبدوءَةٌ بالحرفَيْن (حم)؛ وهي سورُ: غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف.

يُخبرُ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: أَنه عندما يَتْلو هذه السورَ يكونُ في غايَةِ الأُنسِ والسَّعادة، وكأنه يَسيرُ مُتَأَنِّقاً مُبْتَهِجاً مَسْروراً، وَسْطَ بساتينَ خضراء، مزهرة مثمرةٍ جميلة.

وما أجملَ ما قالَه المفسرُ أَبو حيان الأَندلسيُّ في مقدمة تفسيره (البحر المحيط) يتَغَنّى بجمال القرآن:

نِعْـمَ السَّحيـرُ كِتـابُ الله، إنَّ لَـهُ ... حَلاوَةً، هِيَ أَحْلى مِنْ جَنَى الضَّرَبِ
بِهِ فُنونُ المَعاني قَدْ جُمِعْنَ، فما ... يَفْتَـنُّ مِـنْ عَجَـبٍ إلاّ إلـى عَجَـبِ
أَمْـرٌ ونهْـيٌ وَأَمثـالٌ ومَـوْعِظَـةٌ، ... وَحِكْمَةٌ أُودِعَتْ في أَفْصَحِ الكُتُبِ
لَطـائِـفٌ يَجْتَليهـا كُـلُّ ذي بَصَـرٍ ... وَرَوْضَـةٌ يَجْتَنيهـا كُـلُّ ذي أَدَبِ

والوُقوفُ أَمامَ القرآن، وتَدَبُّرُ آياتِه لا يُمَلُّ منه، وكُلَّما طالَ الوقوف أَمامَه كلّما زاد الاستمتاعُ، وكَثُر الانتفاع، وصَدَقَ القائِلُ حيثُ يقول:

يَـزيـدُكَ وَجْهُـهُ حُسْنـاً ... إذا مـا زدْتَـهُ نَظَـرا

وصَدَقَ أَميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أَبي طالبٍ رضي الله عنه في كلامِه عن القرآن: «... وإِنه لا يَشْبَعُ منه العُلماء، ولا تَنْقَضي عَجائِبُهُ، ولا يَخْلَقُ عَلى كَثْرَةِ الرَّدِّ».

وأَحْبَبْنا أَنْ نقفَ أمامَ بعضِ آيات القرآن وَقَفات، وأَنْ نُنْفِذَ فيها النَّظرات، وأَنْ نَجولَ في رحابِها جَوْلات، وأَنْ نَستشعِرَ ـ كما قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه ـ أَننا في رَوْضاتٍ دَمِثات، وأَنْ نُسَجِّلَ بعضَ ما يَبدو من لطائف ودلالات.

ومن هنا جاءَ هذا الكتاب **(وَقفات مع هذه الآيات)**، ليكونَ الحلقةَ الثالثةَ عَشْرَةَ من السلسلة القرآنية: **(من كنوز القرآن)**، ولله الحمد والشكر.

وقد حرصْنا في هذه الوقفاتِ أَنْ تكونَ شاملة، وليستْ خاصَّةً بلونٍ

واحد ، أَو مجالٍ خاصّ ، لتكون الفائدةُ أَعَمّ ، فنحن من أنصار (المنهج الشامل) في فهم القرآنِ وتفسيرهِ وتأويلهِ ، ذلك المنهجُ الذي يَجمُع ويَنسّقُ ويوفقُ بين المناهج التفسيرية المختلفة ، المعروفة عندَ دارسي مناهج المفسرين ، من: مأثور ، ولغة ، وبلاغة ، ونحو ، وقراءات ، وفقه ، ورأي محمود ، وحركة، ودعوة ، وتأويل . . . ولا بُدَّ أَنْ يكون لكلٍّ واحدٍ من هذه المناهجِ والتياراتِ وجودٌ مُنَسَّقٌ مُتوازِنٌ متكاملٌ مع المنهجِ الشاملِ لتفسيرِ القرآن .

ويبدو هذا (المنهجُ الشاملُ) الذي نَدْعو إليه في وقفاتِنا التحليليةِ الشاملةِ مع الآياتِ التي عَرَضناها في هذه الحلقة .

تَحَدّثْنا في هذه الوقفاتِ عن جَوِّ نُزولِ الآياتِ التي لها أَسبابُ نزول ، ثم عن موضوع الآياتِ ، ثم قسَّمْنا كُلَّ آيةٍ إلى جملة ، وأَعطيْنا كلَّ جُملةٍ رقماً ، وتَحَدَّثنا عَن كلِّ جملةٍ حَديثاً تفصيلياً: من معاني كلماتِها ، وإعرابها ، وما فيها من قراءاتٍ موجَّهة ـ إنْ وُجِدَتْ ـ وما فيها من لطائفَ بيانيةٍ ممتعة ، وما فيها من دلالاتٍ وإشاراتٍ واستنباطاتٍ وتشريعات .

وبهذا جَمَعْنا بين التفسير الأَثَري ، والتفسير اللغوي ، والتفسير النحوي ، والتفسير البياني ، والتفسير النظري ، والتأويل الاستنباطي ، والفهمِ الحركي الدعوي ، ولله الحَمدُ والشكر .

وجاءتْ (الوقفاتُ الشاملة) مع عَشْرِ مَجْموعاتٍ مُنَوَّعَةٍ من الآيات ، كانت مختلفة الموضوعات ، مُوَزَّعَةً بين سورٍ عديدة ، لتكون النظرةُ أشملَ ، والفائدةُ أَعَمَّ ، والوقفةُ أَكثَرَ متعةً وجاذبيةً وتَأْثيراً ! ! .

ورَتَّبْنا الآياتِ التي وقَفْنا معها وفْق تَرتيبِ المصْحَف ، وليس وفقَ موضوعاتها . .

وجاءَ هذا الكتابُ في عشرةِ فُصول :

● **الفصل الأَول:** ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾:

وَقَفْنا فيه مع الآيةِ الثالثةِ من سورة النِّساء ، والتي تتحدَّثُ عن رخصةِ تعددِ

الزوجات، وجعَلْنا وقفَتنا مع هذه الآية نَموذَجاً لفهمِ آياتِ الأَحكامِ في القرآن.

● **الفصل الثاني:** ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾:

وَقَفْنا فيه مع الآية المئةِ من سورة المائدة ، التي تتحدَّثُ عن عَدَم تساوي الخبيث والطيِّبِ مهما كان الطيِّبُ قَليلاً مَتْروكاً ، ومهما كان الخبيث كثيراً مرغوباً ، وجَعَلنا وَقْفَتَنا مع هذه الآية نموذجاً لفهمِ آيات القِيَمِ والتصوراتِ في القرآن.

● **الفصل الثالث:** ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾:

وَقَفْنا فيه مع الآية الثالثةِ بعد المئةِ من سورةِ الأَنعام ، التي تتحدَّثُ عن عَدَم إدراكِ الأَبصارِ لله ، بينما يدركها سبحانه وتعالى ، وجَعَلْنا وَقْفَتَنا مع هذه الآيةِ نموذجاً لفهم آياتِ العقيدة في القرآن.

● **الفصل الرابع:** ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾:

وقَفْنا فيه مع الآيتَيْن (١٢٠ ـ ١٢١) من سورة التوبة ، اللَّتَيْنِ تتحدَّثانِ عن الجهاد والمجاهدين ، وتُقَدِّمانِ أَهَمَّ صِفاتِ وأَعمالِ المجاهدين ، وتُقَرِّرانِ فَضْلَهم عند الله ، وكتابة الأعمالِ الصالحةِ لهم. وجَعَلْنا وَقْفَتَنا مع هذه الآيات نَموذَجاً لفهمِ آياتِ الجهادِ في القرآن.

● **الفصل الخامس:** ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾:

وَقَفْنا فيه مع أَربع آياتٍ (١٨ ـ ٢١) من سورةِ الإسراء ، التي تتحدَّثُ عن أَصْناف البَشَرِ ، وتنوُّعِ اهتماماتهم ومَقاصدِهم ، واختلاف سعْيهم وتوجُّههم وعَمَلِهم ، فهناكَ مَنْ يُريدونَ الدُّنيا العاجلة ، وهناك مَنْ يُريدونَ الآخرةَ الباقية ، وهناك تَفاضُلٌ كبيرٌ بينَ الصنفَيْن ، وماذا أعطى الله لمريدي الدُّنيا ، وماذا أعدَّ لمريدي الآخرة. . وجَعَلْنا وَقْفَتَنا مع هذه الآياتِ نموذجاً لفَهْمِ آياتِ التصنيفِ البشري والتَّنَوُّعِ الإنساني في القرآن.

● **الفصل السادس:** ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾:

وَقَفْنا فيه مع الآيةِ الأُولى من سورة الممتحنة ، التي نزلَتْ بمناسبةِ فَتْحِ

مكة ، في السنةِ الثامنةِ من الهجرة ، وعالَجَتْ خَطَأَ الصحابيِّ حاطب بنِ أَبي بَلْتَعَة ، رضي الله عنه ، وحَرَّمَتْ على المؤمنين اتخاذَ الأعداءِ الكفارِ أَولياءَ ، وهَيَّجَت المؤمنين على وُجوبِ البراءةِ من الكافرين . . وجَعَلْنا وَقْفَتَنا مع هذه الآيةِ نموذجاً لفهمِ آياتِ الولاءِ والبراءِ في القرآن .

● الفصل السابع: السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة:

جعلْنا هذا الفصلَ نموذجاً للوقفَةِ مع عِلْمِ (المتشابه اللفظي) في القرآن ، وهو من أَنْفَسِ عُلومِ القرآن ، ويبحثُ في الآياتِ المتشابهةِ في القرآن ، ويحلِّلُ أَوْجُهَ (التشابهِ والاختلاف) فيها ، ويُبينُ حكمةَ ما فيها من تفاوتٍ واختلاف .

وَقَفْنا في هذا الفصل مع آيتين في سورتَيْن مختلفتَيْن ، تأْمُرانِ المسلمينَ بالسَّعْيِ إلى الجنة ، وتَحُثَّانِهم وتُرَغِّبانِهم في ذلك .

الآيةُ الأُولى: هي الآيةُ الحاديةُ والعشرون من سورة الحديد ، وتتحدَّثُ عن وجوب السعي إلى الجنةِ بطريقةِ المسابقة .

والآيةُ الثانيةُ: هي الآيةُ الثالثةُ والثلاثون بعدَ المئةِ من سورةِ آلِ عمران ، وتتحدَّثُ عن وُجوبِ السعي إلى الجنةِ بطريقةِ المسارعة .

فما هو الفرقُ بين المسابقةِ والمسارعة؟ ولماذا اخْتَصَّتْ سورةُ الحديد بالمسابقة؟ واختَصَّتْ سورةُ آلِ عمران بالمسارعة؟ ومَنْ هم المسابقونَ إلى الجنة؟ ومَنْ هم المسارعون إليها؟ .

حاوَلْنا أَنْ نُجيبَ على هذه الأسئلة ، من خِلالِ إِنْفاذِ النظرِ في صياغةِ الآيتَيْن ، وسَجَّلْنا سبعةَ فُروق بينهما ، وَوَجَّهْنا تلك الفروق ، وخَرَجْنا من الآيتَيْن بأَهَمِّ ما فيهما من لطائفَ وإِشاراتٍ ودلالات .

● الفصل الثامن: حديثُ القرآنِ عن الجاهلية:

جعلْنا هذا الفصلَ نَموذجاً للتفسيرِ الموضوعيِّ للمصطلحِ القرآني ، حيثُ تابَعْنا حديثَ القرآنِ عن الجاهلية ، ووقَفْنا مع الآياتِ الأربع التي وَرَدَ فيها مصطلحُ الجاهلية ، ولاحَظْنا أَنها في كلِّ مرَّةٍ كانت تختَصُّ بِبُعْدٍ من أَبْعادِ

الجاهلية ، فتحدَّثَتْ سورةُ آلِ عمران عن ظَنِّ الجاهلية ، وتحدَّثَتْ سورةُ المائدة عن حُكْمِ الجاهلية ، وتحدثَتْ سورةُ الأَحزابِ عن تَبَرُّجِ الجاهلية ، وتحدثتْ سورةُ الفتحِ عن حميةِ الجاهلية .

● الفصل التاسع: مع مادَّةِ (ضَرْرٌ) في القرآن:

جعلنا هذا الفصلَ نموذجاً للتفسيرِ الموضوعي للمادَّةِ القرآنية ، حيثُ قُمْنا بجولَةٍ مع مادَّةِ الضَّرَر في القرآن ، ذكَرْنا معنى هذه المادَّةِ في اللغة ، ثم ذكَرْنا اشتقاقاتِ هذه المادة في القرآن ، حيث وَرَدَتْ بصيغَةِ الثلاثيِّ والرباعيِّ والخماسي ، ووقَفْنا وقفةً مطوَّلَةً مع كلِّ صيغة ، ذكَرْنا فيها اشتقاقاتِها وتصريفاتها ، من فِعْلٍ ماضٍ ومضارعٍ ومصدرٍ واسم فاعل واسم مفعول ، والآيات التي وَرَدَتْ فيها هذه الاشتقاقاتُ والكلمات ، وذكَرْنا ما في كلِّ صيغةٍ من لطائفَ ودلالاتٍ وإِشارات . وذكَرْنا الفرق بين مادَّةِ الضَّرِّ ومادَّةِ الضَّيْرِ ، القريبةِ منها في الاشتقاقِ والمعنى .

● الفصل العاشر: مع سورة الإخلاص:

جَعَلْنا هذا الفصلَ نَموذجاً للتفسيرِ الموضوعيِّ للسورةِ القرآنية ، واخْتَرْنا فيه الوقفةَ مع سورةٍ من أَقْصَرِ سورِ القرآن ، من حيثُ الكلماتُ والجمل والآيات ، لكنها من أَفضل سورِ القرآن ، فهي تَعدلُ ثُلُثَ القرآن ، كما أَخبَر رسولُ الله ﷺ . وَوَقَفْنا مع كلِّ آيةٍ من آياتِها الأربع . وتحدَّثْنا عن لطائفِ كلِّ آيةٍ ودلالاتِها ، ثم خَتَمْنا كلامَنا عن السورةِ بتلخيصِ أَهَمِّ لطائفِها وإِشاراتِها .

ونُقدمُ إلىٰ الإخوة القراء الكرام هذه الوقفاتِ المنوَّعَةَ مع هذه الآيات ، مختلفةِ الموضوعات ، ونَضَعُ بينَ أَيديهم الطريقَةَ الأَمثَلَ لتفسيرِ القرآن ، وِفْقَ المنهج الشاملِ للتفسيرِ والتأويل ، ليُحاولوا اعتمادَ هذا المنهج ، والسيرَ على هذا الطريق .

ونرجو أَنْ يَجدوا في هذهِ الوقفاتِ المنوَّعَةِ فائدةً وعلْماً ، وزيادَةَ فهمٍ ومحبةٍ لهذه الآيات ، ليوثِّقوا صِلتَهم بالقرآن ، ويُكْثِروا من تلاوتِه وفهمِهِ وحفظِهِ ، وتطبيقِ أحكامِه ، والدعوة إليه ، والحركةِ به .

ونختمُ مقدِّمتنا لهذه الوقفاتِ بدعاءِ رسولِ الله ﷺ ، فنقول : «**اللَّهُمَّ اجْعَل القُرْآنَ رَبيعَ قُلوبِنا ، ونُورَ صُدورِنا ، وذَهابَ هُمومِنا ، وجَلاءَ أَحْزانِنا ، وارْزُقْنا تِلاوَتَه آناء الليلِ وآناء النهار ، وعَلِّمْنا منه ما جَهِلْنا ، وذَكِّرْنا منه ما نُسِّينا ، واجْعَلْهُ حُجَّةً لنا يومَ القيامة**» .

ونتوجَّهُ إلى الله بهذه الدراسةِ القرآنية ، طالبينَ منه حُسْنَ القَبول ، وجَزيلَ الأجْر ، وعظيمَ الثواب .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد لله رب العالمين .

السبت ٢٣ شعبان ١٤٢٧ هـ
١٦/٩/٢٠٠٦ م

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

الفصل الأول

﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾

قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ [النساء: ٣].

هذه الآيةُ خطابٌ من اللهِ للمسلمين، يُبيحُ للرجلِ منهم فيها تَعَدُّدَ الزوجات، بشَرْطِ أَنْ لاَ يزدْنَ على أَربع في الوقْتِ الواحد. ويُرشدُ الله المسلمين فيها إِلى أَنهم إِنْ خافوا أَلا يُقْسِطوا ويَعْدِلوا في اليتامى، فلهم أَنْ يتزوَّجوا ما طابَ لهم من النساء: مَثْنى وثُلاثَ ورُباع.. فإِنْ خافَ أَحَدُهم أَنْ لا يعدلَ بين أكثر من امرأة، فعليه أَنْ لا يُعَدِّدَ، ويكتفيَ بامرأةٍ واحدة.

وذَكرت الآية أَنَّ الحكمةَ من هذا التشريع وإباحة التَّعدد، واشتراط العَدْلِ بين الزوجات؛ هي عدمُ العَوْلِ والظلمِ والميلِ والتجاوز.

مناسبة نزول الآية:

وقبلَ الدخولِ في تحليلِ جُمَلٍ وكلماتِ الآيةِ، والوقوف أَمامَ لطائِفها ودلالاتِها، نذكُرُ اللبسَ الذي وقعَ فيه التابعيُّ عروةُ بنُ الزبيرِ في فهم الآية، وكيف أَزالَتْ خالتُه عائشةُ رضي الله عنها اللَّبْس، ووضَّحتْ له معنى الآية.

روى البخاريُّ ومسلمٌ، عن ابن شهابٍ: أَنَّ عروةَ بنَ الزبيرِ سأَلَ عائشةَ رضي الله عنها عن قولِ الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ... ﴾؟.

فقالَتْ له: يا بنَ أُخْتي! هذه اليتيمةُ تكونُ في حِجْرِ وَلِيِّها، تُشركُه في ماله، ويُعجبُه مالُها وجمالُها، فيريدُ وليُّها أن يتزوَّجَها، بغيرِ أَنْ يُقْسِطَ في صَداقِها، ولا يُعطيها مثلَ ما يعطيها غيرُه... فَنُهوا عن أنْ يَنْكِحوهُنَّ إِلاَّ أَنْ

يُقْسِطوا لهنَّ ، ويبْلغوا لهنَّ أَعْلى سنتهنَّ في الصَّداق . . فأُمِروا أَنْ يَنْكِحوا ما طابَ لهم من النِّساءِ سواهن .

وقالتْ عائِشةُ رضي الله عنها : وإِنَّ الناسَ استَفْتَوْا رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية ، فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ . . . ﴾ [النساء:١٢٧] . . فمعنى قوله : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ : رغبةُ أَحدِكم عن يتيمَتِه ، حين تكونُ قليلةَ المال والجمال . . فَنُهوا عَنْ أَنْ يَنْكِحوا مَنْ رغبوا في مالِها وجمالِها في يتامى النساءِ إلا بالقسط ، من أَجلِ رغبتِهم عنهنَّ إذا كُنَّ قَليلاتِ المالِ والجمالِ[١] .

الذي أَوقعَ عروةَ بنَ الزبيرِ في اللَّبس هو عدمُ الارتباطِ الظاهرِ بين الجملتَيْن الأُولَيَيْنِ في الآية : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ! فما هي الصلةُ بين الخوفِ من عدمِ القسطِ في اليتامى ، وبين نكاحِ النساءِ مَثْنى وثُلاثَ ورُباع؟ .

إِنَّ حُسْنَ فهمِ الآيةِ يتطلبُ معرفةَ جَوِّ نُزولها ، وهذا ما بَيَّنَتْه عائشةُ لابنِ أُخْتِها عروةَ .

ومَعْنى توضيح عائشةَ لعروةَ ـ ولنا نحنُ من بعدِ عُروة ـ أَنَّ الآيةَ التي أَباحَتْ تَعَدُّدَ الزوجَاتِ نزلَتْ في الرجلِ تكونُ عنده المرأةُ اليتيمة ، ممن يحلُّ له نكاحُها ، كأَنْ تكونَ ابنةَ عَمِّه أَو ابنةَ خالِه ، وأَنْ تكونَ جميلةً وذاتَ مال ، ويكون هو وصِيّاً عليها وعلى مالِها . . فيطمَع الرجلُ فيها لجمالِها ، كما يطمع في مالها . . ويرغب في أَنْ يتزوَّجها ، لا رغبةً حقيقيةً في الزواجِ بها ، وإنما رغبةً في جمالها ، وطمعاً في مالها ، ولذلك لا يُعطيها المهرَ المناسب لها ، وإنما يُعطِيها أَقَلَّ من ذلك ، وبذلك يكونُ غيرَ مُقْسِطٍ فيها . . فنهاهُ الله عن هذا الظلم ، وطلبَ منه أَنْ لا يتزوَّجَ يتيمتَه على هذا الأساس ، وأَرشدَه إِلى أَنْ يتزوَّجَ ما شاءَ من غيرِها من النساء ، مَثْنى وثُلاثَ ورباع .

---

(١) البخاري، كتاب التفسير، حديث رقم: (٤٥٧٤)؛ ومسلم، كتاب التفسير، حديث رقم: (٢٣١٤).

وذكرتْ عائشةُ رضي الله عنها: أَنَّ الله أَنزلَ بعدَ هذه الآيةِ آيةً أُخرى، تتحدَّثُ عن الذين يَظلمونَ اليتامى من النساء بعدمِ رغبتِهِم الحقيقيةِ في نكاحهن، ولكنَّهم يتزوَّجونهنَّ طمعاً في مالهن أو جمالِهن: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

وبذلك الْتقت الآيتَانِ من سورةِ النساء ـ الآيةُ الثالثةُ، والآيةُ السابعةُ والعشرونَ بعدَ المئة ـ على حُرمةِ ظُلْمِ النساءِ اليتامى عند الزواجِ مِنهنّ.

وننظرُ فيما يلي في جُمَلِ الآيةِ التي أَبَاحَتْ تَعَدُّدَ الزوجات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾:

الواوُ: حرفُ استئناف، والجملةُ بعدَها استئنافية.

﴿وَإِنْ﴾: حرفُ شرط. و: ﴿خِفْتُمْ﴾: فعلٌ ماضٍ وفاعلُه. و: «أَنْ»: حرفٌ مصدريٌّ ونَصْب. و«لا»: حرفُ نفي. وأُدغمت نونُ «أَنْ» مع لام «لا»، فصارت ﴿أَلَّا﴾. و﴿تُقْسِطُوا۟﴾: مضارعٌ منصوب بحذف النّون، لأَنه من الأَفعالِ الخمسة، والواوُ فاعل. وشبهُ الجملةُ ﴿فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ متعلقةٌ بالفعل ﴿تُقْسِطُوا۟﴾. والمصدرُ من ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ في محلِّ نصب مفعول به لفعل ﴿خِفْتُمْ﴾. والتقدير: إنْ خفتمُ عدمَ القسطِ في اليتامى.

ويمكن استخراجُ اللطائفِ والإشاراتِ التالية من هذه الجملة:

أ ـ الخوفُ هنا بمعنى الخشيةِ من الوقوعِ في الحرام، وتوقُّع عدمِ القسطِ في اليتامى.

ب ـ الخطابُ في ﴿خِفْتُمْ﴾ ليسَ لكلِّ المسلمين، وإنما هو لفئةٍ خاصَّةٍ منهم، وهم الرجالُ الأوصياءُ على النساءِ اليتيمات، من غيرِ المحرَّمين عليهنَّ، كأَنْ يكونَ الرجلُ ابنَ عَمِّ اليتيمة أو ابنَ خالِها. وخَصَّصْنا الخطابَ بهؤلاء ليستقيم فهمُ الجملة الثانية: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. ودليلُنا على هذا التخصيصِ ما قالَتْه عائشةُ رضي الله عنها لعروة في مناسبةِ نزولِ الآية.

جـ ـ جملةُ ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ : في محلِّ نصب مفعولٍ به. وحكمةُ التعبيرِ بالفعلِ المضارعِ الدعوةُ إلى استحضارِ عدمِ القسط ، والإشارةُ إلى تجدُّدِ ذلك ، مما يولِّدُ الخوف والخشيةَ من وقوعه.

د ـ جملةُ ﴿خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ : فعلُ الشَّرْط ، والراجحُ أَنَّ جوابَ الشرطِ محذوف ، والتقدير : إن خفتُم ألا تقسطوا في اليتامى فلا تَنْكِحوهُنَّ ، وأنْكِحوا ما طابَ لكم من النساءِ غيرهن ، مَثْنى وثلاث ورباع.

وقدَّرْنا جوابَ الشرطِ لأنه هو المتناسقُ مع فِعْلِ الشرط ، ومن غير الراجح اعتبارُ جوابِ الشرط ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ، لأنَّ المعنى ليسَ بليغاً ، ولأنَّ الصلةَ بينَ الفعلِ والجوابِ ليستْ قوية : ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ، فما هي الصلةُ بينَ الخوفِ من عدمِ القسطِ وبين نكاحِ ما طابَ من النساء؟!.

الأَفصحُ والأَرجحُ اعتبارُ جوابِ الشرط محذوفاً ، حيثُ يكون المعنى : إنْ خفتم عَدَمَ القسطِ في اليتامى فلا تَنكِحوهن ، لئلاّ يقعَ منكم الظلمُ لهن ، وانكحوا مَنْ تشاؤون من غيرهن.

هـ ـ ﴿تُقۡسِطُواْ﴾ : فعل مضارع ، ماضيه رباعي : نقولُ : أَقْسَطَ ، يُقسِطُ ، فهو مُقسِط . . والقِسْطُ هو العَدل.

واللَّطيفُ أَنَّ الرباعيَّ نقيضُ الثلاثي. الثلاثيُّ «قَسَطَ» بمعنى : ظَلَمَ ، تقول : قَسَطَ ، يَقْسِطُ ، فهو قاسِط. بمعني : ظَلَمَ ، يَظْلِمُ ، فهو ظالم. قال الله تعالى : ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن : ١٤ ـ ١٥]، فالقاسِطُ هو الظالم ، وهو حَطَبُ جهنم.

والرُّباعيُّ «أَقسطَ» بمعنى : عَدَلَ!! وأمَرَ الله المسلمين بأَنْ يكونوا مُقْسطين ؛ قال الله تعالى : ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩].

و ـ ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ في الآيةِ مجرورةٌ بحرف الجر ﴿فِي﴾ حسبَ الظاهر ، لكنَّ

الراجحَ أنها مضافٌ إليه لمضافٍ مَحذوف ، هو «نِكاحِ». فيكون التقدير : إنْ خفتُم ألاّ تقسطوا في نكاحِ اليتامى فلا تَنْكحوهن.

وقَدَّرْنا المجرورَ لأنه هو الذي يتعلَّقُ به الخوفُ والخشية ، الخوفُ ليس من عدمِ القسطِ في النساءِ اليتامى ، لأَنَّ هذا لا معنى له؛ إنما الخوفُ هو من عدمِ القسطِ والعدلِ في نكاحِ النساءِ اليتامى.

ز ـ الراجحُ أيضاً أَنَّ ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ صفةٌ مجرورةٌ لموصوفٍ محذوفٍ مَجرور ، هو ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾. والتقدير: أَلاّ تقسطوا في نكاحِ النساء اليتامى.. وَقدَّرْنا الموصوفَ محذوفاً لأنه هو المرادُ في الآية. ولأَنَّ ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمعٌ مُعرَّفٌ بأَل التعريف ، وهذا الجمعُ من أَلْفاظِ العمومِ في القرآن ، لكن أحياناً يُرادُ به الخصوص ، كما في هذه الآية ، ويُسَمّى في هذه الحالة: جَمعاً يُرادُ به الخصوص.

ح ـ اليَتامى جمعُ «يتيم»، وهو صفةٌ مشبهةٌ على وزْنِ فعيل. وهو مشتقٌّ من «اليُتْمِ» وهو الانْفِراد. واليَتيمُ هو الذي ماتَ أَبوه وهو صغير ، فصارَ وحيداً منفرداً يَحتاجُ إلى رعايةٍ وعنايةٍ.

و«يَتيم» مفرد مُذكَّر ، مؤنَّثُهُ «يَتيمة». ولم تَرِد الصفةُ المؤنَّـثَة «يتيمة» في القرآن ، وإنما وَرَدَ فيه «يتيم» ، وأُريدَ به الذكَرُ والأُنثى؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

أما الجمعُ ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ فقد يُرادُ به النساءُ فقط ، كما في هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ ، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

وقد يَشملُ الذكورَ والإناث ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

الراجحُ أَنَّ هذه الجملةَ معطوفةٌ على جوابِ الشرط المحذوف ، كما بَيَّنّا ، والتقديرُ: إنْ خفتُمْ عدمَ القسطِ في نِكاحِ النساءِ اليتامى فلا تنكِحوهُنَّ ، وأنْكحوا ما طابَ لكم من النساءِ من غيرهن.

وفي هذه الجملةِ من الآية اللطائفُ والإشاراتُ والدلالاتُ التالية:

أ ـ الأَمْرُ في «انكحوا» ليسَ للوجوب، وإنما هو للتوجيهِ والإرشادِ والإباحة، لأنه معلقٌ بالخوفِ من عدمِ العدلِ في نكاحِ اليتامى.

ومن المعلوم أنَّ الأَصْلَ في النكاحِ أَنه ليس واجباً، إلاّ مَنْ قويَتْ شهوتُه، وخشيَ على نفسِهِ الوقوعَ في الفاحشة، وعنده القدرةُ على النكاح. وبالنسبة لعمومِ الرجالِ فإنَّ النكاحَ في حَقِّهم سُنَّة، لأن فيه اقتداء برسولِ الله ﷺ.

ويكونُ النكاحُ حراماً في حقِّ غير القادرِ عليه ماليّاً وجنسيّاً؛ لأنه يَظلمُ امرأَته، والظلمُ حرام.

ب ـ النِّكاحُ: الزواج. يقال: نَكَحَ الرجلُ المرأةَ، أَيْ: تزوَّجها. ويُقالُ في الرباعيِّ: أَنكحَ الرجلُ ابنه المرأةَ، أَيْ: زَوَّجه إيّاها.

وقد اجتمع الفعلانِ الثلاثيُّ والرباعيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: أي: لا تتزوَّجوا المشركاتِ.

و﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: أَيْ: لا تُزَوِّجوا المشركينَ المؤمناتِ؛ فالمفعولُ الثاني في هذه الجملة محذوف.

وقد يُطْلَقُ النِّكاحُ على عَقْدِ الزواج، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ﴾ [الأحزاب: ٤٩]. أَيْ: إذا عَقَدَ الرجلُ على المرأة، ثم طَلَّقها قبل الدخولِ بها؛ فلا عِدَّةَ لها.

وقد يُطلق النكاحُ على الجِماع مباشرة، وليس على مجردِ عقْدِ الزواج، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. الكلام في الآية عن ما بعدَ الطلقةِ الثالثة؛ فإنْ طَلَّقَ الرجلُ امرأَته

الطلقةَ الثالثة ، فلا تحلُّ له ولا يَجوزُ أَنْ تَرجعَ له إلاَّ بعد أَنْ تنكحَ زوجاً غيره.

ونكاحُ الزوجِ الثاني ليس بمجردِ عَقْدِه عليها ، بل لا بُدَّ أَنْ يُعاشِرَها ويُجامِعها ، كما حدَّدَ رسول الله ﷺ: «**حتى تَذوقي عُسَيْلَتَهُ ويَذوقَ عُسَيْلَتَكِ**».

وقد يُطْلَقُ النكاحُ على المعاشرةِ المُحرَّمة ، وهي الزنى ، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]. أَيْ: لا يجدُ الزاني مَنْ تُطاوعُه وتُوافقُه على الزنى إلا زانيةً مثْلَه ، أَو مشركةً لا قيمةَ للعِرْض عندها.. والزانيةُ لا تَجِدُ مَنْ يَزْني بها إِلاَّ زانياً مثلَها ، أَو مشركاً لا حرمةَ للزنى عنده.

جـ - ﴿مَا﴾: في ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: اسْمٌ موصول ، بمعنى «الذي» في محلِّ نَصْب مفعولٍ به لفعْلِ «انكحوا».

و﴿طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: صلةُ الموصول. والتقدير: انْكِحوا الصنفَ الطَّيِّبَ من النِّساء.

والطيبُ هو الجيد الحسنُ المرغوبُ المطلوب.

د - ﴿مِّنَ﴾ هنا بيانية: بَيِّنَتْ أَنَّ الطيِّبَ هنا هو من النساءِ المرغوبِ في نكاحهن؛ لأَنَّ هذا الوصفَ «الطيبَ» قد يُطلقُ على الأَشخاصِ والأَعمالِ والأَقوالِ والأَفكار. فاحتيج هنا إلى ﴿مِّنَ﴾ البيانية ، لتُبيِّنَ أَنَّ الطيبَ هنا من النساء.

هـ - ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾: جمعٌ معرَّفٌ بأَل ، والأَصْلُ فيه أَنْ يَدُلَّ على العُموم ، لكنَّه هنا يُرادُ به نِساءٌ مَخْصوصات ، فهو عامٌّ يُرادُ به الخصوص، وهو النِّساءُ المباحُ نكاحُهنَّ من غيرِ اليَتيماتِ القريبات ، ويَخرجُ بهذا التخصيصِ النساءُ المحرَّمات ، كالأُمَّهاتِ والأَخوات ، والنِّساءِ المتزوجات على عصمةِ أَزواجهن ، والنساءِ اليتيماتِ القريباتِ ، اللّواتي نزلَتْ فيهنَّ الآية ، ففي هذا العموم ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ ثلاثة تخصيصات!!.

هـ - ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾: جمعٌ لا مفردَ له من لفظِه ، ومفردُه «امْرَأَة» ، وهي لا جَمْعَ لها من لفظِها، وهو مشتقٌّ من «النَّسْي» ، وهو الترك. تقولُ في

المفرد: امرأةٌ. وتقول في المثنَّى: «امرأَتان». وتقولُ في الجمع: نساءٌ ونسوةٌ. و«نساءٌ» جمع كثرة، و«نسوةٌ» جمع قِلَّة. إنْ أَردتَ عَدَداً قليلاً قلتَ: «نسوة» كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [يوسف: ٣٠]، وإنْ أَردتَ عَدَداً أَكثَرَ قلتَ: «نساء» كما في هذه الآية: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

ز ـ الأَصْلُ في اسمِ الوصول ﴿ مَا ﴾ استعمالُه لغير العاقل، واستعمالُ الاسم الموصولِ (مَنْ) للعاقلِ، ولكنَّه جاءَ وَصْفاً للعاقلِ في الآيةِ حسبَ الظاهر: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

﴿ مَا ﴾ ليسَ وَصْفاً للنساءِ في الحقيقة، فلو أَرادَ وَصْفَ النساءِ لقالَ: فانكحوا من طابت لكم من النساء... إنَّ ﴿ مَا ﴾ وصفٌ يُرادُ به النوعُ أَو الصنف، بدلالةِ صلةِ الموصولِ في الجملة: ﴿ طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ والتقدير: انكِحوا الصنفَ الطيبَ من النساء.

إِنَّ الحَديثَ في الجملةِ عن الصنف الطيِّب من أَصنافِ الزواج، وليس عن النساء الطَّيِّبات. ولو أَرادَ التركيزَ على النساءِ الطيبات لقال: فانكحِوا من طابت لكم من النساء.. وفَرْقٌ بين قولِك: انكِحوا الصنفَ الطيبَ لكم من النِّساء، وبينَ قولِك: انكحوا النساءَ الطيبات. إنك في الجملةِ الأولى تتحدَّثُ عن أَصنافِ النكاح، وتدعو إلى اختيارِ الصنفِ والنوعِ الطيب، وبما أَنَّ هذا معنويٌّ وليس ماديّاً حَيّاً عاقِلاً، فإِنَّك تختارُ له اسْمَ الموصول «ما»: أَنكِحْ ما طابَ لك من أصنافِ النكاح.. وهذا هو المقصودُ في الجملة.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾:

هذه الكلماتُ الثلاثُ بيانٌ للطيبِ من النساءِ في الجملةِ السابقة: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾.

أَيْ أَنَّ النساءَ المباح نكاحُهنّ وتعدُّدُهنَّ قد يكُنَّ مَثْنى، وقد يكُنَّ ثُلاثاً، وقد يكُنَّ رُباعاً.

وفي هذه الكلمات الإشاراتُ التالية:

أ ـ ﴿ مَثْنَىٰ ﴾: حالٌ منصوبٌ بالفتحةِ المقدرة على الألفِ المقصورة، منعَ

من ظهورها التعذر. وصاحبُ الحال هو ﴿مَا طَابَ﴾؛ أي: انكِحوا النكاحَ الطيبَ، تكنْ نساؤكم مَثْنى وثلاثَ ورُباع.

وهذا الوَصْفُ على وَزْنِ «مَفْعَل». مشتق من الثلاثي «ثنى». والثَّنْيُ هو الإعادةُ والتكرار.

و﴿ مَثْنَىٰ﴾ هنا ممنوعٌ من الصَّرْف، والراجحُ أَنَّ سببَ منعِه من الصَّرفِ هو: الوصْفُ والعَدْلُ؛ فهو وَصْفٌ للنساءِ المباحِ تَعَدُّدُهُنَّ زَوْجاتٍ.

والعَدْلُ بمعنى العُدول، وهو التغييرُ والانتقالُ والصَّرفُ؛ أَيْ أَنَّ ﴿ مَثْنَىٰ﴾ مصروفَةٌ عن العددِ المكرَّرِ إلى الوَصْف. فصفَة «مَثْنى» بمعْنى «اثنتَيْن». والأَصْلُ: انكحوا ما طابَ لكم من النساءِ اثنتَيْن اثنتَيْن.. فَعَدَلَ عن تكرارِ العَدَدِ مرتَيْن إلى الصفة، وقال: ﴿ مَثْنَىٰ﴾.

ب ـ ﴿ وَثُلَٰثَ﴾: حالٌ آخَر للموصولِ ﴿مَا طَابَ﴾، معطوفٌ على الحالِ السابق ﴿ مَثْنَىٰ﴾. وهو وصْفٌ على وَزْن «فَعال». وهو ممنوع من الصرفِ للوَصْفِ والعَدْل؛ لأَنَّ الوصْفَ ﴿ وَثُلَٰثَ﴾ معدولٌ عن العَدَدِ المكرّر: ثلاث. ثلاث.

جـ ـ ﴿ وَرُبَٰعَ﴾: حالٌ ثالثٌ للموصول ﴿مَا طَابَ﴾. معطوفٌ على ما قبلَه، على وَزْنِ «فُعال»، ممنوعٌ من الصَّرْفِ للوصْف والعَدْل، عَدَلَ به عن تكرارِ العَدَدِ: أَربع، أَربع.

إنّ مَعْنى قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: تَزَوَّجوا الزواجَ الطَّيِّب، ويُباحُ لكم تَزَوُّجُ الزوجات: اثنتَيْن اثنتَيْن، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً.

وسنتحدَّثُ فيما بعد عن الأَعدادِ وأَسماءِ الأَعداد، وعن دلالةِ الواوِ في ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، وسَنُناقشُ دعوى التناوبِ، ونَعتمدُ مبدأَ التضمينِ في الآية، لكنْ بعد الانتهاءِ من تحليلنا لباقي جُمَلِها بعون الله.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾:

هذه جملةٌ شرطيةٌ معطوفةٌ على الجملةِ الشرطيةِ السابقة؛ فالجملةُ السابقةُ

أَرشدت الذينَ يخْشونَ عَدَمَ العَدْلِ مع اليتامى القريبات إلى الزواجِ مِن غيرهنَّ من النِّساءِ ، مَثْنى وثُلاثَ ورُباع .

وهذه الجملةُ الشرطيةُ أَرشدت الذينَ يَخشونَ عَدَمَ العدلِ بينَ الزوجاتِ عندَ التعدُّدِ إلى تركِ التعدد ، والاكتفاءِ بزوجةٍ واحدة .

أ ـ الفاءُ في ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ : حرفُ عطف ، عَطَفَتْ جملةَ : ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ على جملةِ ﴿إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾ . و﴿إِنْ﴾ : حرف شرط . وجملةُ ﴿خِفْتُمْ﴾ : فعلٌ ماضٍ وفاعِله . و«أَنْ» حرف مصدريّ ونصب . و«لا» : حرفُ نفي . و﴿تَعْدِلُوا﴾ : مضارعٌ منصوبٌ بحذْفِ حرفِ العِلَّة . والمصدرُ المنفي : ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ في محلِّ نصب مفعول به . والتقدير : فإِنْ خفتُم عَدَمَ العدل .

ب ـ ما تعلَّقَ به فعل ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ محذوف ، مفهومٌ من السياق ، لأَنَّ الجملةَ السابقةَ أباحَتْ تعدُّدَ الزوجات ، وهذه الجملةُ ذكَرَت الحلَّ للذين يَخافونَ عَدَمَ العدل . فتقديرُ ما تعلَّق به الفعلُ هو : في النساء . والتقدير : فإنْ خفْتُم أَلا تعدلوا في النساءِ عند تَعَدُّدِهن .

جـ ـ جملة ﴿خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ : فعلُ الشرط . وجوابُ الشرطِ محذوف والتقدير : فلا تنكحوا مَثْنى وثُلاثَ ورُباع . ويكونُ معنى الجملة : إِنْ خفتُمْ عدمَ العدلِ بين الزوجاتِ عند تعددِهن ، فلا تُعَدِّدوهن ، ولا تَنكحوا مثنى وثلاث ورباع .

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾:

هذه الجملةُ معطوفةٌ على جَوابِ الشرطِ المحذوف فهي مرتبطةٌ مع الجملةِ السابقةِ ارتباطاً مباشراً. والتقدير : إنْ خفْتُم عَدَمَ العدلِ بينَ الزوجات ، فلا تعدِّدوا ، وانكحوا امرأة واحدة .

أ ـ ﴿واحدةً﴾ : مفعولٌ به لفعلٍ محذوف ، والتقدير : انكِحوا واحدةً . وهي صفةٌ لموصوفٍ مَحذوف . والتقدير : فانكحوا امرأةً واحدة .

واللطيفُ أَنْ الجملةَ السابقةَ التي أباحت التعدُّدَ ذكرتْ أسماءَ الأعداد ، وليس الأَعدادَ نفسَها ، فقالت : ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ ولم تَقُل : اثنتيْن وثلاثاً

وأَربعاً. . أَمَّا هذه الجملةُ فلم تذكر اسْمَ العَدَد ، وإنما ذكرت العدَدَ نفسَه ، فلم تَقُلْ: أُحاداً ، وإنما قالتْ: واحدة. . وهذا الاختلافُ في التعبير بين الجملتَيْن مقصود!.

ب ـ ﴿أو﴾: حرفُ عطفٍ يدلُّ على التخيير ، فالرجلُ مخيَّرٌ بينَ فعْلِ ما قبلَها وفعْلِ ما بعدها. . أيْ: له أَنْ يكتفيَ بامرأةٍ واحدةٍ حُرَّة ، فإن لم يستطع الزواجَ منها فيمكنُه الزواجُ من أَمَةٍ جارية.

جـ ـ ﴿مَا﴾: اسمٌ موصولٌ في محلِّ نَصْب ، لأَنه معطوفٌ على المنصوب قبله، والراجحُ أَنه معطوفٌ على ﴿واحدةً﴾ ، و﴿ مَلَكَتۡ ﴾: فعلٌ ماضٍ. والتاءُ: حرفٌ للتأنيث. و﴿ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ﴾: فاعل. والجملةُ الفعليةُ صلةُ الموصول. والتقدير: انكحوا واحدةً حُرَّة ، أَو أَمَةً هي مِلْكُ اليمين.

د ـ ما قُلْنا عن اختيار «ما» بَدَلَ «مَنْ» في الجملة السابقة: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ يَصلحُ أَنْ يُقالَ هنا. فقالت الجُملة: ﴿ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ﴾ واختارَتْ «ما» على «مَنْ» المستعملةِ في العاقل؛ لأَنَّ الكلامَ ليس على النساءِ العاقلات ، سواء كُنَّ حَرائرَ أَو إماء ، إنما الكلامُ على أَصنافِ وأَنواعِ النساء: صنفِ الزوجاتِ الحرائر ، وصنفِ الزوجاتِ الجواري.

هـ ـ هذا التعبير ﴿ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ﴾ في القرآن يُطْلَقُ على العبيد من الرجال ، والجَواري الإِماء من النِّساء. و«أَيْمان» جمعُ «يمين» ، والمرادُ باليمينِ هنا اليَدُ اليُمْنى ، المقابلةُ لليدِ اليُسرى ، واليَدُ اليمنى أَشرفُ من اليدِ اليُسرى.

و«مِلكُ اليمين» هو العبدُ والأَمَة ، لأَنَّهما ليسا حُرَّيْن ، فهما مملوكانِ لسيِّدهما.

ومن إطلاقِ ﴿ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ﴾ في القرآن على النِّساءِ الجَواري ما وَرَدَ في هذه الآية ، وما وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ ﴾ [النساء: ٢٤].

ومن إطلاقِها على العبيد من الرجالِ قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ ﴾ [النور: ٣٣].

ومن شمولها للجنسين قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم: ٢٨].

و ـ عَطْفُ ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ على ﴿واحدة﴾ من بابِ عطفِ التصنيفِ والتنويع، لأنَّ ملك اليمين من النساءِ مقابل للحرائرِ منهن.

ويَجوزُ للرجلِ الذي لا يستطيع الزواجَ من الحُرَّة، أَنْ يتزوجَ من امرأةٍ أَمَةٍ جاريةٍ عندَ غيره، بمعنى أَنْ تكونَ مملوكةً لغيره لأنَّ الزواجَ منها قد يكونُ أَقلَّ تكلفةً ونفقةً من الزواجِ من الحُرَّة. فإنْ وافقَ سيدُها على تزويجها لهذا الرجل حَرُمَتْ عليه لأَنها أَصبحتْ زوجاً لغيره، فلا يجوزُ له أَنْ يُعاشِرَها. والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾:

هذه الجملةُ تعليلٌ للأحكامِ والتوجيهاتِ والرُّخَصِ، التي قررَتْها الجملُ السابقة، وكأَنها جوابٌ على تساؤلٍ قد يتبادَرُ للذهن: لماذا أَباحَ اللهُ التعدُّد لمن خاف ظلمَ قريبته؟ ولماذا دعا الرجلَ إلى الاقتصارِ على زوجةٍ واحدةٍ إذا خشيَ ظلْمَ زوجاته؟.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ في محلِّ رفع مبتدأ. و﴿أَدْنَىٰ﴾: خبرٌ مرفوع بضمةٍ مقدَّرةٍ على الألفِ المقصورة. و«أَنْ»: حرفٌ مصدريٌّ ونَصْب. و«لا»: حرفُ نفي. و﴿تَعُولُوا﴾: مضارعٌ منصوبٌ بحذفِ النّون، والواوُ فاعل. والمصدر: ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ في محلِّ جرٍّ بحرفٍ مُقَدَّر، تقديرُهُ «إلى»، متعلقٌ بأفعلِ التفضيل ﴿أَدْنَىٰ﴾. والتقدير: ذلك أَدْنى إلى عدمِ العول.

أ ـ المشارُ إليه هو الحُكْمُ الذي قَرَّرتْه جُمَلُ الآيَة؛ مثْلُ: رخصةِ تَعَدُّدِ الزوجات، والاكتفاءِ بواحدةٍ عند خشيةِ الظلم.

والمشارُ إليه المفهومُ من الجملِ السابقةِ بَدَلٌ من اسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، فيُقَدَّر بعدَه ليَحْسُنَ فَهْمُ المعنى، والتقدير:

ـ ذلك الحكمُ في إباحةِ تعدُّدِ الزوجاتِ من غيرِ القريبات، أَدنْى أَلا تعولوا اليتيماتِ القريبات. وذلك الحكمُ في الاكتفاءِ بواحدةٍ أَو ملكِ اليمين عند خشيةِ عَدَمِ العدل، أَدْنى أَلاَّ تعولوا الزوجاتِ المتعددات!!.

ب ـ أَفعلُ التفضيل ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ بمعنى أَقْرب؛ وهو مشتَقٌّ من «دَنا» بمعنى: قَرُبَ. تقول: دَنا، يَدْنو، دُنوّاً، وهو أَدنى. أَيْ: قَرُبَ، يَقْرُبُ، فهو أَقْرب.

جـ ـ ﴿تَعُولُواْ﴾: بمعنى: تَظلموا وتجوروا. وفعْله الماضي ثُلاثي: «عالَ». وجَذْره الثلاثيُّ «عَوْل» بالواو. والعَوْلُ هو الظلمُ والجَوْرُ والانحراف، وعدمُ العدلِ والقسط.

ولم تَرِدْ هذه المادَّةُ «عَوْلٌ» في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

د ـ ما تعلَّقَ به الفعلُ ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ محذوفٌ للعلمِ به، لأَنه مفهومٌ من الجُمَلِ السابقة، ويمكنُ أَنْ يكونَ تقديرُه: أَدنى أَنْ لا تعولوا نساءَكم. أَو: أَدنى أَنْ لا تعولوا في تصرفاتِكم وأَعمالكم.

هـ ـ من اللطيفِ تفرقةُ القرآنِ بين المادَّتَين القريبتيْن في الحروف: العَوْلُ والعَيْلُ:

ـ العَوْلُ بالواو: هو الظلمُ والجورُ والميلُ والانحراف، وورَدَ فقط في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾؛ تقول: عالَ، يَعول، عَوْلاً.

ـ العَيْلُ بالياء: هو الفقرُ والحاجةُ؛ يقال: عالَ فُلانٌ، أَيْ: صارَ فقيراً، تقول: عالَ، يَعيلُ، عَيْلاً، فهو عائِلٌ؛ أي: أفتَقَر.

والذي وَرَدَ في القرآنِ من مادَّةِ «عَيْل» ـ بالياء ـ كلمتانِ فقط:

ـ المصدرُ: ﴿عَيْلَةً﴾ الذي هو بمعنى الفقر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨].

ـ اسْمُ الفاعلِ: «عائِلٌ»، وهو الفقيرُ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، أَيْ: وَجدَك فقيراً فأَغْناك.

وبعضُ المفَسِّرين لم يُفرِّقوا بين هاتينِ الكلمَتَيْن ، ففَسَّروا جملةَ ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ : هذا أَقربُ إِلى أَنْ لا تكثُرَ عيالُكم؛ أَيْ : أَبناؤكم؛ أَي : الزواجُ بواحدةٍ بَدَلَ أربعِ نساءٍ أَقربُ إِلى أَنْ لا تكثُرَ عيالُكم!! .

وهذا فهمٌ مردودٌ ، لا يَتفقُ مع حروفِ الكلمةِ ولا معناها ، ولا مع معنى الآية .

لو كان المعنى : الزواجُ بواحدةٍ أَقربُ إِلى أَنْ لا تكثُرَ عيالُكم؛ لكانَ الفعلُ بضَمٍّ أَوَّلِه وليس بفتْحِه . ويقال : ذلك أَدنى أَن لا تُعيلوا .

يُقالُ : أَعالَ الرجلُ غيرَه ، أَيْ : أَنفقَ عليه . وتقولُ في المضارع : يُعيلُه؛ أَيْ : يُنفقُ عليه . وتَقول : أَعالَ الرجلُ؛ أَيْ : كثرتْ عيالُه وزادَتْ نفقاتُه .

والكلامُ في الآيةِ ليس عن العَيْلَةِ والنفقة ، ولا عن العِيال والأَولاد ، وإِنما هو عن العدلِ بينَ الزوجات ، وعدمُ العولِ والجَوْرِ والظلمِ والميل في العلاقةِ معهن .

ويدلُّ هذا التعليلُ على حرصِ القرآن على منع عَوْلِ الزوجات وظلمِهن ، ولذلك قرر من الإشاراتِ والتوجيهاتِ ما يحققُ ذلك .

بين الأَعدادِ الأُصول والأَعدادِ المعدولة:

نقفُ الآن أَمامَ الكلماتِ الثلاث : ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ : فما حكمة مجيئها على هذه الصيغة؟ وما الفرقُ بينها وبين : اثنتَيْن وثَلاثاً وأَربعاً؟ .

علينا أَنْ نُفرِّقَ بين شيئَيْن : الأعداد ، وأَسماءِ الأَعداد .

الأعداد الأصول : هي التي يُرادُ بها العَدَد ، وتَقبلُ التكرارَ والجَمْع ، وهي من واحدٍ إِلى عَشَرَة. تقول : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستَّة ، سبعة ، ثمانية، تسعة، عشرة. وتقول : ثلاثةٌ وأَربعةٌ يساوي : سبعة .

ومن وُرودِ الأَعدادِ مجموعةً في القرآنِ قولُه تعالى : ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] .

وقولُه تعالى : ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] .

وأَسماءُ الأَعدادِ: هي الأعدادُ المعدولَة عن العَدَدِيَّة إلى الوصفية، ولا يُرادُ بها العَدُّ أَو الجَمْع، وإنما يُرادُ بها مجردُ الوصف. ولذلك لا تَقبلُ التكرارَ ولا الجَمع.

وأَسماءُ الأَعدادِ عشرة على الراجح، وهي: أُحادُ، ومَثْنى، وثُلاثُ، ورُباعُ، وخُماسُ، وسُداسُ، وسُباعُ، وثُمانُ، وتُساعُ، وعُشارُ.

ولا تَقبلُ الجَمع، فلا تقول: ثُلاثُ ورُباعُ يُساوي سُباعُ، كما تقول في ثَلاثَةٌ وأَربَعَةٌ يُساوي سَبعَة.

وأَسماءُ الأَعدادِ ممنوعةٌ من الصَّرْفِ للوصفية والعَدْل، لأَنه يُرادُ بها الوصْف، ولأَنها معدولةٌ مصروفةٌ عن العَدَدِ إلى الوصف.

والذي ذُكِرَ في القرآنِ من أَسماءِ الأَعدادِ العشرةِ ثَلاثة، مذكورةٌ معاً، هي: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾. **وقد ذكرت مرتين في القرآن الكريم:**

المرة الأُولى: في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ وهو موضوع حديثنا.

المرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١].

أَخبرَ اللهُ في هذه الآيةِ أَنه خلقَ الملائكةَ أُولي أَجنحة، وأَنهم مُتفاوتون في ذلك؛ فمنهم أُولو أَجنحة مَثْنى، ومنهم أُولو أُجنحةٍ ثُلاث، ومنهم أُولو أَجنحة رُباع، ومنهم أُولو أَجنحةٍ أكثرُ من ذلك.

وقد أَخْبَرَنا رسول الله ﷺ أَنَّ الله جعلَ لجبريلَ عليه السلام ستَّمئةِ جَناح، وأَنه رآهُ على صورتِهِ الحقيقيةِ بهذا العددِ الكبيرِ من الأجنحة مرتَيْن.

إنَّ التعبيرَ في رخصةِ التعدد بأَسْماءِ الأَعدادِ، وليسَ بالأَعدادِ نفسِها، ليقررَ الوَصْفَ وليس العَدَدَ.

لم تَقُلِ الآية: انكحوا ما طاب لكم من النساء: اثنتَيْن وثَلاثاً وأَربعاً، لئلا يُظَنَّ أَنَّ المرادَ بذلك جمعُ الأَعدادِ الثلاثة، وأَنه يَجوزُ للرجلِ الجمعُ بين تسع نساء، إنما المقصودُ بالرخصة ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ هو ذكْرُ أَصنافِ وأَقسامِ

وَأَنواعِ الرجالِ بالنسبة للتعدُّد: فهناك مَنْ تَزَوَّجَ مَثْنى ، وهناك مَنْ تَزَوجَ ثُلاث ، وهناكَ مَنْ تَزوجَ رُباع!.

وبهذا ندركُ الفرق بين: اثنتَيْن وثَلاثاً وأَربعاً، وبين: مَثْنى وثُلاثَ ورُباعَ. وبهذا نوقِنُ أَنَّ عُدولَ القرآنِ عن الصيغةِ الأُولى إلى الصيغةِ الثانية مقصود ، وأنه لا ترادُفَ في كلماتِ القرآن!.

رخصة التعدد بين التناوب والتضمين:

نقفُ أَمامَ جملةِ ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ وقفةً أُخرى ، نَنظرُ في حكمةِ عطْفِ أَسماءِ الأَعدادِ بالواو وليس بحرف «أَوْ».

إِنَّ الآيَةَ تخيِّرُ الرجالَ عند التعدُّدِ بين ثَلاثِ خَيارات: إمّا مَثْنى ، وإِمّا ثُلاث ، وإِمّا رُباع. ولذلك كان المتوقَّعُ أَنْ تُعطفَ الكلماتُ بحرفِ «أَوْ» الدالِّ على التخيير ، فما حكمةُ العُدولِ عن «أَوْ» إلى الواو؟ وما الفرقُ بين هذيْنِ الحرفَيْنِ في العطف؟.

اختلفت أقوال الناظرين في هذه الواو في: ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾:

١ ـ **أخَذَ بعضُهم الواوَ على ظاهرها ، وهو مطلق الجمع:** فجمعوا الأعداد الثلاثة ، وقالوا: تُبيحُ الآيةُ للرجلِ الجمعَ بينَ تسعِ نِساء ، لأَنَّ هذا حاصلُ جَمْع ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾.

وهذا فَهْمٌ خاطئٌ للآية ، تَرُدُّهُ صياغَتُها ، كما يَرُدُّهُ هَدْيُ رسول الله ﷺ.

لو أرادت الآيةُ الجمعَ لذَكَرت الأَعدادَ وليس أسماءَ الأَعداد ، ولقالت: انكحوا ما طابَ لكم من النساء ، اثنتَيْن وثَلاثاً وأَربعاً. إنَّ أَسماءَ الأَعدادِ: ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ لا تَقبلُ الجَمْعَ ، فلا يُقال: إنَّ حاصِلَ جَمْعِها تُساع!.

وهذا الجمعُ يتناقضُ مع توجيهِ رسول الله ﷺ؛ فقد أَسلمَ غَيلانُ بن سَلَمة رضي الله عنه وعنده عَشْرُ نساء ، فقالَ رسول الله ﷺ: «**أَمسِكْ أَرْبعاً ، وفارِقْ سائِرَهُنّ**»!.

٢ ـ **وقال آخَرون: إنّ الواوَ نابَتْ عن «أَوْ»**: وفَسَّروها على معنى «أَوْ»، وقالوا: معنى الجملة: انكحوا ما طاب لكم من النساء؛ مَثنى أَوْ ثلاثَ أَو رُباع.

و«**التَّناوبُ» في حروفِ الجَرِّ أَنْ يكونَ الحرفُ المذكورُ في الآيةِ ليس مراداً لذاته، لأنه «نابَ» عن حرفٍ آخر**... ويَجبُ أَنْ تُفَسَّرَ الآيةُ على ذلك الحرفِ غيرِ المذكور!.

ومن الأمثلةِ على التناوبِ بينَ حُروفِ الجَرِّ ـ عند القائلين به ـ:

ـ نابَ حرفُ الباءِ عن حرفِ «على» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]، أَيْ: إِذا مَرّوا عليهم يتَغامزون.

ـ نابَ حرفُ اللام عن حرفِ «على» في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]؛ أَيْ: إِنْ أَسأْتُم فعليها.

ونحنُ لَسْنا من أَنصارِ القولِ بالتناوب، ونَرى أَنَّ الحرفَ المذكورَ في الآيةِ مقصودٌ لذاته، وأَنه لا يَجوزُ إِلغاءُ معناه، واعتبارُه نائباً عن حرفٍ آخر، ولو أَرادَ الله الحرفَ الآخَرَ لذكَرَه.

ولايجوز اعتبارُ الواوِ في قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ نائبةً عن «أَوْ»، ولا يَصحُّ أَنْ يكونَ معنى الجملة: مثنى أَو ثُلاثَ أَو رُباع!!.

إِنَّ «أَوْ» تدلُّ على التخيير الملزم، الذي لا يَجوزُ الانتقالُ عنه إِلى غيره.. وهذا ليس مقصودَ الآية، ولا يَدُلُّ عليه معناها.

تَدُلُّ «أَوْ» على أَنَّ الرجالَ مُخَيَّرونَ في التَّعَدُّد، لكن هذا التخييرَ ملزمٌ لهم، بمعنى أَنَّ أمامَهم ثلاثُ خَيارات: إِنَّ الرجلَ إِمَّا أَنْ يتزوَّجَ اثنتَيْن، وإِمَّا أَنْ يتزوَّجَ ثَلاثاً، وإِمّا أَنْ يتزوَّجَ أَربعاً. والتخييرُ ملزمٌ له، بمعنى أَنه إذا اختارَ الزواجَ باثْنتَيْن فإِنه يجبُ أَن يَبْقى عليه، ولا يجوزُ أَنْ يَتزوَّجَ ثَلاثاً! وإِذا اختارَ الزواجَ بثلاثٍ حَرُمَ عليه الزواجُ برابعة!!.

والآية لا تقول بذلك، فإنها تجعل الرجل مخيراً تخييراً مفتوحاً وليس ملزماً.. بمعنى أنه إن اختار الزواج باثنتين فإنه يجوز له الزواج بثالثة، وإذا اختار الزواج بثلاث جاز له الزواج برابعة.

وهذا التخييرُ غيرُ الملزمِ يَمنعُ أَنْ تكونَ الواوُ نائبةً عن «أَوْ».

٣ـ وذهبَ المحققونَ من علماءِ البلاغةِ والبيانِ إلى القولِ بالتَّضْمين ، على أَنَّ الواوَ في الجملة ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ ضُمنتْ معنى «أَوْ».

و«التَّضمينُ» أُسلوبٌ بيانيٌّ رفيع ، موجود في آيات عديدةٍ في القرآن ، وهو: أَنْ يُضَمَّنَ الحرفُ المذكورُ حَرْفاً آخَرَ غيرَ مذكور ، فيدلُّ على معنى الحرف غير المذكورِ أَوّلاً ، ثم يدلُّ على معناه ثانياً. وهذا من روائعِ ولطائفِ التعبير القرآني.

ويتمُّ إِجراءُ التضمينِ بفهْمِ الآيةِ على الحرفِ غيرِ المذكورِ أَوّلاً ، ثم فَهْمِها على الحرفِ المذكور ، ثم الجمعِ بين الحَرفَيْن، وكأَننا أَمامَ آيتَيْن بمعنَيَيْنِ!!.

وهذا هو الراجحُ ، فالواوُ في الآيةِ ضُمِّنتْ «أَوْ». ومعنى هذا أَنْ نفهمَ الآيةَ على معنى «أَوْ» ثم نفهمُها على معنى الواو.

● **نفهمُ الآية على معنى «أَوْ»:**

تُبيحُ الآيةُ للرجالِ تعدُّدَ الزوجات ، وتُخَيِّرُ الواحدَ منهم في أَيِّ عَدَد أَراد ، بشرطِ العدل؛ فهو إِمّا أَنْ يتزوَّجَ بواحدة ، وإِمّا أَنْ يتزوَّجَ باثنتين ، وإِمّا أَنْ يتزوَّجَ بثَلاث ، وإِمّا أَنْ يتزوَّجَ بأَربع.. ويجوزُ لمنْ تَزَوّجَ باثنتين أن يتزوج بثالثة ، ولمن تزوّجَ بثلاثٍ أَنْ يتزوَّجَ برابعة ، لأَنَّ هذا هو معنى أَسماءِ الأَعداد: مثنى أَو ثُلاثَ أَوْ رُباع.

● **ثم ننتقلُ لفهمِ الآيةِ على معنى الواو:**

الواوُ تدلُّ على الجمع؛ فالآيةُ تتحدَّثُ عن أصنافِ الرجالِ بالنسبة للتَّعَدُّد ، وتُبَيِّنُ أَنهم ثَلاثَةُ أَصناف ، معطوفٌ بعضُها على بعضٍ بحرفِ الواو.

هناك مَنْ يتزوَّجون مَثْنى من النساء؛ «و» هناكَ من يتزوَّجونَ ثُلاثَ من النساء ، «و» هناك مَنْ يتزوَّجونَ رُباعَ من النساء. فكلُّ رجلٍ يُريد التعدُّدَ يأْخُذُ ما أَرادَ من ذلك التعدد: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾.

وخلاصَةُ القول: تُبيِّنُ الآيةُ أَنَّ الرجالَ بالنسبةِ إلى الزَّواجِ ستةُ أَصناف:

الصنفُ الأول: رجلٌ يتزوَّجُ أَربعَ نساء.

الصنفُ الثاني: رجلٌ يتزوَّجُ ثَلاثَ نساء.

الصنفُ الثالث: رجلٌ يتزوَّجُ امرأَتْين.

الصنفُ الرابع: رجلٌ يتزوجُ امرأةً واحدة.

الصنفُ الخامس: رجلٌ يتزوجُ أَمَةً ملك اليمين.

الصنفُ السادس: رجلٌ يَبْقى بدونِ زواج!.

بين العدل المثبتِ والعدل المنفيّ:

ننتقلُ في وقفتِنا أَمامَ آيةِ إباحةِ التعدُّدِ إلى الجمعِ بين آيتَيْن تتحدَّثانِ عن نفسِ الموضوع، في سورةٍ واحدةٍ هي سورةُ النساء، يبدو بينهما تعارضٌ في الظاهر، لنجمع بينهما، ونُزيلَ التعارضَ الظاهريَّ بينَهما.

الآيةُ الأُولى: التي نتحدَّثُ عنها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ إنها تبيح التعدد بشرط العدل بين الزوجات، فإن لم يتحقق العدل كان التعدد حراماً، ويجب على الرجل الاكتفاء بواحدة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾.

الآيةُ الثانية: قولُه تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

هناكَ مَنْ يَتعالَون على القرآن، ويَرفضونَ من أَحكامِه وتوجيهاتِهِ ما لا يتفقُ مع أَهوائِهم وشهواتِهم، ويسيئونَ الكلامَ عنها، ويُحَرِّفونَ مَعانيها.

إِنهم في موضوعِنا يُحاربونَ رخصةَ تعدُّدِ الزوجات، لأَنهم متأَثِّرون بالحياةِ الغربيةِ التي تَمنعُ تعدُّدَ الزوجات، وتُبيحُ تَعددَ العشيقاتِ والخليلات!.

وهم يجعلون الآية الثانية ناسخةً للآية الأُولى، ويتعالَمون على الآيتَيْن قائلين: أَباحَ الله تَعدُّدَ الزوجات بشرْطِ العَدْل، فإنْ لم يتحقَّق العدلُ كانَ التَّعدُّدُ حراماً، لقوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ . ولكنَّ الله بَيَّنَ أَنَّ العدلَ بينَ الزوجاتِ مستحيل ، بِنصّ قوله تعالى : ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ . وبما أَنَّ العدلَ بينهنَّ مستحيل ، فإِنَّ التعددَ يكونُ حراماً!! فالآية (١٢٩) عندهم ناسخة للآية الثالثة .

ويَجبُ حسن النظرِ في آياتِ القرآن ، وحسنُ الجمعِ بين آياتٍ تبدو متعارضةً في الظاهر ، وإزالةُ التعارضِ الظاهريِّ بينها ، ويَجبُ إلغاءُ المزاجيةِ والهوى بينها .

من غيرِ المقبولِ أَنْ تُبيح آيةٌ التعددَ بشرْطِ العدل ، ثم تُحرمَ آيةٌ أُخرى التعددَ لأَنَّ العدْلَ مستحيل! والقرآنُ لا يتلاعبُ بالأحكام! .

العدْلُ عَدْلان : عَدْلٌ واجب ، وشرطٌ لتعدُّدِ الزوجات. وعدلٌ آخر مستحيلٌ ، ولا يَمنع تَعَدُّدَ الزوجات .

العدلُ الواجب : الذي يَقْدرُ عليه كلُّ رجلٍ هو العدلُ بين الزوجات في الأمورِ الماديةِ الظاهريةِ الخارجية ، وهو المتمثلُ في العدلِ في النفقةِ والمعاشَرَة ، والمعاملاتِ والسلوكياتِ والتصرفات ، والأَقوالِ والأفعال ، بأَنْ يُعطيَ الرجلُ كلَّ واحدةٍ ليلَتَها ، ويُساوي بَينهنَّ في كلِّ شيء حتى في الابتسامة وبشاشةِ الوَجْه . . فإِنْ لم يفعلْ ذلكَ كان آثماً ، وكان ظالماً، وكانَ مُؤاخَذاً يومَ القيامة . وعلى هذا قولُ رسول الله ﷺ : «**مَن تزَوّجَ امرأَتين فَمالَ إلى إحداهِما ، جاءَ يوم القيامةِ وشِقُّه مائِل**» .

والعدلُ المستحيل : هو الذي تحدثَتْ عنه الآيةُ الثانية : ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ ، وبما أنه مستحيلٌ فلم يكَلِّف الله به الرجالَ .

وهذا العدلُ قائمٌ على المشاعرِ والعواطف ، والانفعالاتِ والأَحاسيس ، والمحبةِ والمودَّة ، وهذه أُمورٌ لا إراديّة ، لا يُمكنُ للإنسانِ أَنْ يتحكَّمَ فيها ، ولذلك أَعفاهُ اللهُ منها .

وهذا العدْلُ منفيٌّ ، بمعنى أَنَّ محبةَ الزوج لإحدى زوجتيه قد تكونُ أكثر ، ورغبتَه فيها قد تكونُ أَكثر ، وميلَه إليها قد يكونُ أكثر ، وأُنْسَهُ بها قد

يكونُ أَكثر. . ولا يوجبُ اللهُ عليه العدلَ والمساواةَ في هذا الجانبِ بين الزوجات.

وكان رسول الله ﷺ يقصدُ هذا المعنى عندما كانَ يعدلُ العدلَ الماديَّ الواجبَ بين نسائِه، ويعترفُ بَعْجزِه عن العدل الثاني، ولذلك كانَ يَدعو الله قائلاً: «**اللهمَّ هذا قَسْمي فيما أَمْلِكُ، فلا تُؤاخِذْني في ما لا أَمْلِك**».

ومع استحالةِ هذا النوع اللاّ إراديِّ من العَدْل، ومعَ إِباحةِ القرآنِ للرجلِ أَنْ يَميلَ إِلى إحدى نسائِه أَكثرَ من الأُخريات، إلاَّ أَنَّه طالَبه أَنْ لا يَميلَ عن الأُخرياتِ كُلَّ المَيْل، بحيثُ يُؤدّي ذلك إِلى وقوعِه في الظلمِ المادي: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾.

من أحكام ودلالات الآية:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾.

يُمكنُ الإشارةُ إِلى أَهَمِّ أَحكامِ الآيةِ ودلالاتِها وتوجيهاتها:

١ - الأَصلُ أَنْ يكونَ زواجُ الرجلِ المرأةَ لرغبةٍ فيها هي نفسها، أَيْ أَنْ يكونَ الزواجُ لأَجلِ الزواجِ، وهذا من بابِ احترامِ المرأةِ وتكريمها، وحسنِ اختيارِها على غيرها، لأَنها في نظرِ زوجِها أَنسبُ من غيرِها لتكون امرأَتَه.

٢ - الزواجُ المصلحيُّ القائمُ على المصلحةِ والمنفعةِ يكرهُه الإسلام، ويُنَفِّرُ منه، فبعضُ الرجالِ قد لا تكونُ له رغبةٌ في المرأةِ لشخصها، ولكنه يتزوجها طَمَعاً في مالِها، أو في مركزِها ووظيفتها، أَو في نَسَبِها وأَهْلِها! وهذا الزواجُ النفعيُّ المصلحيُّ لا يُحققُ حكمةَ الإِسلامِ من الحَثِّ على الزواج، ويُضَيِّعُ إنسانية المرأةِ ومشاعرها وسْطَ الأَموالِ والمَصالح!.

٣ - النفوسُ تميلُ إِلى المال، وتُحبُّه، وتُؤثِرُه وتفَضِّلُه على غيره، مهما ارتقت النفوس في عالمِ الفضلِ والاستقامةِ والتزكية، فهؤلاء الصحابةُ الذين ربَّاهم رسول الله ﷺ على عينه، وُجدَ منهم مَنْ يُريدُ الزواجَ بقريبتِه اليتيمةِ ليس رغبةً فيها، وإِنما طَمعاً في مالها، فنهَاهُم اللهُ عن ذلك.

٤ ـ الأَصْلُ في الآيةِ أَنْ «تُحَرَّرَ» من قيدِ التَّخصيصِ بسببِ النزولِ أَو زمانِه ، وأَنْ تبقى تَنطبقُ على كلِّ الحالاتِ المشابهة ، التي تشملُها كلماتُها ، حتى قيامِ الساعة ، وهذا ما قَرَّرَهُ علماءُ التفسير في قولِهم عن أَسبابِ النزول: العبرةُ بعموم اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّبب.

فهذه الآيةُ لها جَوٌّ وسببٌ للنزولِ وضَّحَتْه عائشةُ رضي الله عنها لابن أُختها عُروةَ بنِ الزبير ، ولكنَّها ليستْ خاصَّةً بذلك السبب ، وإنما هي تنهى عن الزواجِ المصلحيِّ ، حتى قيام الساعة.

٥ ـ كانَ عروةُ بنُ الزبير رحمه الله من كبارِ علماءِ التابعينَ في التفسير ، ومع علمه الغزير الْتبسَ عليه فهمُ الآية ، فلجأَ إِلى خالتِه عائشة رضي الله عنها لتُزيلَ اللَّبْس.

ويدلُّ هذا على أهميةِ معرفةِ سببِ وجَوِّ النزول ، وهذا لا يَعرفُه إلاَّ الصحابةُ رضي الله عنهم ، لأَنهم هم الذينَ عايشوا وعاشوا نُزولَ الآياتِ. كما يدلُّ هذا على أنه يجبُ على مَنْ لم يعلمْ معنى الآية أَنْ يسأَلَ مَنْ هو أَعلمُ منه بها ، وأَنَّ كبارَ العلماءِ قد تخفى عليهم بعضُ المعاني والحقائق. وعلى العالِمِ أَنْ يتَواضَعَ ويوقنَ بأَنه لم يُؤْتَ من العلْمِ إلاَّ قليلاً.

٦ ـ على المسلم أَنْ يَحرصَ على العدلِ في أَفعالِه وأَقوالِه وأَحكامِه ، وأَنْ يَبتعدَ عن الظلم ، وأَنْ يَبقى خائفاً متحرِّجاً من الوقوعِ في الظلم ، لأَنه إِنْ ظَلَمَ غيره يُهْلِكُ نفسَه ، وإِنَّ الظلمَ ظلمات يومَ القيامة.

٧ ـ وُجِّهَ الرجالُ إِلى أَنْ يَنْكِحوا ما طابَ لهم من النساء: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. ووَصْفُ النكاح بالطيِّب مقصود؛ فالنكاحُ طيِّبٌ طاهرٌ مرغوبٌ مطلوب ، يَتوافَقُ مع الفطرةِ التي فطَرَ الله الناسَ عليها ، ولا يطلُبهُ إلاَّ الطيبُ من الرجالِ والنساء.. وعكسُ النكاحِ الطيبِ هو المعاشرةُ المحرمةُ والزِّنى الخبيث ، وتصريفُ الشهوةِ عن طريقٍ غير طيِّب ، ولا يَختار الزنى الخبيثَ إلاّ الخبثاءُ من الرجالِ والنساء.

٨ ـ الأَمْرُ في ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ﴾ ليسَ للوجوب ، وإنما هو للإرشادِ والتوجيه. والأَصْلُ أَنْ لا يكونَ النكاحُ واجباً ، لأَنَّ الرجلَ السويَّ القادرَ

لا يَحتاجُ إلى تكليفٍ فيه وإيجابٍ عليه ، وإنما يتوجَّهُ إليه بفطرتِه .

ويكونُ النكاحُ واجباً لمن تيسَّرَتْ له سُبُلُ الفاحشة ، وخشيَ على نفسه الوقوعَ فيها ، وعنده قدرةٌ على النكاح .

٩ ـ الآيةُ نصٌّ صريحٌ في تعدُّدِ الزوجات : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ . وتدلُّ دلالةً صريحةً على أَنَّ التعدُّدَ رُخْصَة ، وليسَ واجباً. وبما أَنَّ الله أَباحَ التعددَ فلا داعيَ لأَنْ نبحثَ عن مبرراتٍ ومسوِّغاتٍ له ، لأَنَّ الله عليمٌ حكيم ، شرعَ لنا ما فيه مصلحتُنا ، ولا خطأَ في أَحكامِه سبحانه .

ولا يَجوزُ لمسلمٍ أَو مسلمةٍ أَنْ يَتَعالَما على الله ، أَو يتفلْسَفا على كلامِه ، أَوْ ينتقدا ويُخَطِّئا أَحكامَه .

١٠ـ يَبقى الحكْم مستمراً حتى قيامِ الساعة : يُباحُ للرجلِ تَعَدُّدُ الزوجات ، بدونِ أَيِّ سَبَب ، وهو ليس مُتَّهماً ليدافعَ عن نفسِه ، ولم يَرتكبْ ذنباً أَو خَطَأً ، ولا يقالُ له : ما السببُ الذي أَلْجَأكَ إِلى التعدد؟ وما بالُ امرأتِك؟ وما العيبُ فيها؟ .

كلُّ من عندَه رغبةٌ في التعددِ فلْيُحَقِّقْها ، ولا يُلامُ على ذلك . والإِسلامُ لا يشترطُ عليه إلاّ شَرْطاً واحداً ، هو أَنْ يَعدلَ العدلَ الظاهريَّ بين نسائِه ، وأَنْ لاَ يَظلمهن! .

١١ـ تعدُّدُ الزوجاتِ محصورٌ في حَدِّه الأَعلى : ﴿ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ ، بمعنى أَنه له أَن يجمعَ بينَ أَربع نساءٍ في وقْتٍ واحد ، ولا يَجوزُ الزيادةُ على ذلك ، ودليلُ الحصرِ بأَربع ظَاهرُ الآية ، وهدْيُ رسول الله ﷺ عندما قال لغيلانَ بنِ سَلمة ، الذي أَسلمَ وعنده عَشْرُ نساءٍ : «**اخْتَرْ أَربعاً منهن**» .

١٢ـ المسلمُ ضعيف ، ومهما حاولَ الاستقامة وعدمَ الوقوعِ في الخطأ ، فسوف يَقَعُ فيه ، وعُذرُه أنه لم يتعمَّدْ ذلك ، وعليه المسارعةُ بالندمِ والاستغفارِ والتوبة .

ومهما حرصَ الزوجُ على عدمِ الخطأ والظلمِ فلن يَبْقى على ذلك ، وسيقعُ في المخالفة ، وعليه التخلّي عن الظلم والعودةُ إلى العدل، وعليهِ أَنْ يبقى متَحرِّجاً منتَبهاً متيقِّظاً! .

١٣ـ البديلُ لمن خشيَ عدمَ العدلِ مع الزوجات أَنْ لا يُعَدِّدَ ، وأَنْ يكتفيَ بواحدة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾ . وكلُّ إنسانٍ أَدرى بقدرَتِه ومشاعره وعواطفه ، ويَعرف هل يمكنه العدل بين الزوجاتِ أَمْ لا؟ وقد وكلَت الآيةُ إِلى كُلِّ إِنسانٍ تقديرَ الموقف! .

١٤ـ توجِّه الآيةُ الرجالَ إِلى التصرفِ المناسبِ عندَ خوفِهم وخشيتِهم ، وعند توقُّعهم حصولَ الظلم ، ولا تنتظرُ حتى يقعَ الظلمُ فعلاً ، وهذا من حيويةِ التوجيهِ القرآني . . إنه يَدْعو إِلى اتخاذِ خطوات عمليةٍ لمنعِ وقوعِ المشكلة ، وهذا أَهَمُّ في معالجتها . . عند توقُّعِ الرجالِ عدمَ القسطِ مع القريبات فلْيَتَوقَّفوا عن الزواج منهن ، وعند توقُّعِهم عدمَ العدلِ عند التعددِ فلْيتوقَّفوا عنه . . وهكذا نَجَحَ القرآنُ في تقريرِ أَحكامِه وتوجيهاتِه ، وحَلِّ المشكلاتِ الاجتماعية ! ! .

١٥ـ الزواجُ من الأَمَةِ «مِلْكِ اليَمين» ، لمنِ عَجزَ عن الزواج من الحُرَّة ، والذي وَرَدَ في جملةِ: ﴿فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أَصبحَ في هذا العصر مسأَلَة نظرية ثقافية تاريخية ، ولم يَعُدْ مسأَلةً عمليةً واقعيةً قائمة ، لأَنَّ نظامَ «الرّق» واتخاذ الأَرقاءِ من العبيدِ والإِماءِ كان وَضْعاً عَامّاً عالمياً في ذلك الزمان ، ولذلك وَرَدَتْ أَحكامٌ كثيرةٌ تتعَلَّقُ بهذا النظام في الكتابِ والسنةِ والتراثِ العلميِّ الإِسلامي .

وهذا النظامُ غيرُ موجودٍ في هذا العصر ، لأَنَّ دُوَلَ العالَم اتفقت على منعِ الرِّقِّ والاسترقاقِ ، والإِسلامُ يُباركُ تَحريرَ العبيد ، والاتفاقَ على إِلغاءِ هذا النظام .

ولذلك هذا الحكمُ في قولِه: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ موقوفٌ في هذا الزمان . فإذا عادَ المسلمونَ للجهاد ، وأَخَذوا العبيدَ والسَّبايا من الأَعداءِ المقاتلين ، ورأى الإِمامُ أَنَّ من مصلحةِ المسلمين العودةَ إِلى نِظامِ الرِّقِّ عادوا إليه ، وإِلاَّ فلا ! ! .

١٦ـ ظاهرُ الآيةِ أَنَّ الأَصلَ في الزواج هو التعدد ، وأَنَّ الاكتفاءَ بواحدةٍ خِلافُ الأَصْل ، وأَنَّ الرجلَ لا يلجأُ إِليه إِلاّ لسببٍ شرعي ، وهو عدمُ العدلِ

بين نسائِه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾.

فَبَدَأَ بالأَصْلِ وهو التَّعَدُّد، وعندَ الخوفِ من عدمِ العدلِ عند التعددِ يكتفي الرجلُ بالمرأة الواحدة.

ويدلُّ قولُه: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ على أنه إذا لم يَخَف الأَزواجُ الظلمَ فعليهم أَنْ يَبْقوا على الأَصْل، وهو التعدد.

ومعنى هذا أَنَّ الأَصْل أَنْ لا يُسْأَلَ الرجلُ عن سببِ تعددِ الزوجات، لأَنَّ هذا هو الأَصْلُ، فلا يَحتاجُ إلى تَبرير ودفاع، إنما يُسْأَلُ الرجلُ المكتفي بواحدة: لم اكتفيتَ بواحدة؟ هل تخشى عَدَمَ العدلِ عند التعدُّد؟ فإن وَجَدَ قدرةً مالية ونفسية وجنسية واجتماعية ولم يُعَدِّد الزوجات استحقَّ المساءلة والعتاب!!.

١٧ـ القرآنُ حريصٌ على تعليلِ توجيهاتِه، وذكرِ حِكَمِ أَحكامِه.. فلَما قدَّمت الآيةُ توجيهَها بالنسبةِ للتعددِ والاكتفاءِ بواحدة، عَللَتْ ذلك في آخرِ جملةٍ فيها: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾.

وعلينا أَنْ نأخُذَ هذه الإشارةَ من القرآن، وأَنْ نُبيِّنَ الحكَمَ التي تَبدو لنا من التشريعاتِ والتوجيهات، لتزدادَ قَناعةُ الناسِ بها، وتنفيذُهم لَها.

١٨ـ إنَّ محاربةَ الظلمِ وتحقيقَ القسط والعَدْل، مقصدٌ أَساسيٌّ من مقاصدِ القرآن، سواء على مستوى الفردِ أَو مستوى الأُسرة أَو مستوى الدولة.

الظلمُ ظلمٌ مهما كان مصدَرُه، ومهما كان مجالُه، ومهما كان باعثُه، وهو حرامٌ لخطورته وآثارِه، وهو ظلماتٌ يومَ القيامة.

ولا يُقِرُّ القرآنُ الظلمَ مهما كانتْ مبرراتُه، إنه لا يُجيزُ للرجلِ أَنْ يَظلم امرأَتَه، أَو أَنْ يَظلمَ نساءَه إذا أَخذَ برخصةِ التعدُّد.. ويتخذُ القرآنُ الإجراءاتِ الكفيلةَ بمحاربةِ الظلم: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾.

والقرآنُ الذي يلتفتُ لتحقيق العدلِ والقسطِ بين الزوجين، ويتدخَّلُ لمنع ظلمِ الرجلِ لامرأَتِه أَو نسائِه، ويهتمُّ بهذه الدائرةِ المصغرةِ في المجتمعِ الإسلامي. يتدخَّلُ في الدائرةِ الأَشملِ والأَوسع، وينهى عن الظلم بين

أَفرادِ المجتمع ، ويوجبُ على كلِّ فردٍ فيه مهما كانتْ مسؤوليتُه ودرجتُه تَحقيقَ القسطِ والعدلِ فيه .

من لطائف الآية:

مَرَّتْ بنا فيما مضى بعضُ اللطائِف البيانيةِ في الآية ، لكننا نُلخصُ هنا أَهَمَّ هذه اللطائف :

١ـ ذَكرت الآيةُ خوفَيْن ، كُلٌّ منهما بمعنى الخشيةِ والتوقُّع ، لكنَّ الخطابَ اختلف ، والخائفونَ اخْتَلفوا ، والمخوفُ منه اخْتَلَف :

الخوفُ الأَوَّلُ في قولِه تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ ؛ الخائفونَ هم أَوصياء اليتيمات الغنيّات ، والمخوفُ منه هو عدمُ القسطِ في نكاحِ يتيماتِهم .

والخوفُ الثاني في قوله تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ ؛ الخائفونَ هم الرجالُ الراغبون في التعدُّد ، والمَخوفُ منه هو عَدَمُ العدلِ مع الزوجات .

٢ـ من لطائفِ الحذْف في الآية التناسُقُ في الحَذْف في الجملتَيْن الشرطيتَيْن ، اللتَيْن تتحدَّثان عن الخوف ؛ حيثُ حُذِفَ جوابُ الشرطِ في كلٍّ منهما ، كما بَيَّنَّا ذلك في التحليل :

ـ وإنْ خفْتُم أَلا تُقْسِطوا في اليتامى فلا تَنكحوهُنّ ، وانْكحوا ما طابَ لكم من النساءِ غيرهن .

ـ وإنْ خفْتُم أَلاّ تعدلوا في النساء الزوجات فلا تعددوهن ، وانكحوا واحدةً فقط .

٣ـ نوّعت الآيةُ في حديثها عن المخوف منه :

كانَ المخوفُ منه في الجملةِ الأُولى عَدَمَ القسط : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ .

وكانَ المخوفُ مِنه في الجملةِ الثانيةِ عدمَ العدل : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ .

فما حكمةُ ذكْرِ عدمِ القسطِ مع اليتامى ، وعدمِ العدْلِ مع التعدُّد؟ .

صحيحٌ أَنَّ القسطَ قريبٌ من العَدْل ، لكنهما ليسا مترادفَيْن ، أَيْ أَنَّ القسطَ ليس هو العدل ، وليسَ معنى عدمِ القسط عدمَ العَدْل، ولا بُدَّ من ملاحظةِ الفروقِ الدقيقةِ بين الكلمتيْن :

العدلُ هو المساواةُ بين المتساويَيْن . والقِسطُ هو التقسيمُ والتجزئة .

يُقالُ : عَدَلَ بينَ الطرفين . أَيْ : ساوى بينهما .

ويلاحَظُ أَنَّ الفعلَ «يَعْدل» يتعدّى إلى ما بعدَه بظرفِ المكانِ «بَيْنَ» ، ليدلَّ على وجودِ طرفَيْن لا بُدَّ من العدلِ والمساواةِ بينهما . قال تعالى : ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى : ١٥] .

أمّا القسطُ فهو حُسْنُ التقسيمِ ؛ يُقال : أَقْسَطَ في تعامُلِه مع الناس . أَيْ : أَعطى كلَّ ذي حقٍّ حَقَّه كاملاً ، ونصيبَه وَافياً . ففيه معنى التقسيم وإخراجِ الحقِّ والنصيب .

ويتعدّى فعْلُ «يقسط» إلى ما بعدَه بحرف «في» ، ليدل عَلى إعطاءِ النصيبِ كاملاً ؛ قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ . وقد يتعدّى بحرفِ «إلى» ليدلَّ على حسنِ المعاملة وإعطاءِ الحقوق ، قال تعالى : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] .

بعدَ معرفةِ الفرقِ الدقيق بين العَدْلِ والقسطِ نعرفُ حكمةَ استعمالِ الخوفِ من عدمِ القسطِ في نكاحِ اليتامى ، والخوفِ من عدمِ العدلِ بين الزوجات .

لا توجَدُ مساواةٌ في نكاحِ اليتيمة ، إنما هو إعطاؤُها حَقَّها ونصيبها ، وهذا الإعطاء يناسبه التعبيرُ بالقِسط في التعاملِ معها ؛ ولذلك جاء التعبير : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ .

أَمَّا في تعدُّدِ الزوجات فهناك أَطرافٌ متعددَة ، هناكَ زوجةٌ وزوجةٌ وزوجة ، وهذا لا يناسبُه القِسط ، إنما يناسبُه العدل بينهن ، بمعنى المساواةِ بينهن ، ولذلك جاءَ التعبيرُ بالعدلِ وليس بالقسط : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ .

وتعدّى الفعل إلى ما بعدَه بالظرف في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

واللطيفُ في التعبيرِ القرآنيِّ أنه جمعَ بين القسطِ والعدلِ في آيةٍ واحدةٍ، هي قولُه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

أَي: اعْدِلوا وساووا بينهما في الصُّلح، وأَقْسِطوا فيهما عندما تُعطونهما نَصيبهما.

٤ـ اللطيفُ أَنه عندما تكلمت الآيةُ عن القسطِ ذكرتْ متعلِّقَ الفعلِ، فقالت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾. وعندما تكلمتْ عن العدلِ حَذَفَتْ متعلِّقَ الفعل، فقالت: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾.

لقد ذَكَرَتْ ما تعلَّقَ به القِسط، لأَنه لم يَسبقْ له ذِكْرٌ فلزمَ بيانُه.. أَمّا العدلُ فقد سبقَت الإِشارَةُ إِلى الأَطراف التي لا بُدَّ أَنْ يعدلَ بينها: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾؛ أي: فإِنْ خفتُم أَلاّ تَعْدِلوا بين النساء فلا تعدّدوهنَّ واكْتفوا بواحدة.

فذِكْرُ ما تعلَّقَ به القسطُ مقْصود، وحذْفُ ما تعلَّقَ به العدلُ مقصود، والقرآنُ يوازِنُ موازَنَةً دقيقةً بين ما يَذْكُره وما يحذِفُه، وهو معجزٌ في ذِكْرِه وفي حَذْفِه.

٥ـ في الآيةِ ثَلاثُ فاءات، كلٌّ منها حرفُ عَطْف، لكن اختلفَ المعطوفُ عليه:

الفاءُ الأُولى: في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ حيث عَطَفَتْ ما بعدَها على جوابِ شرطٍ محذوف، ولذلك جاءتْ بمعنى الواو. والتقدير: إِنْ خفتم أَلا تقسطوا في اليتامى فَلا تنكحوهن، وانكحوا ما طاب لكم من النساء.

والفاءُ الثانيةُ: في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ عَطفَتْ ما بعدَها على

ما قبلها مباشَرَة ، فهي على ظاهِرها: انكحوا ما طاب لكم من النساء، فإن خفتم . . .

والفاءُ الثالثة: في قوله تعالى: ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ دخلتْ على مفعولٍ به منصوبٍ لفعلٍ محذوف، تقديره: «فانكحوا واحدة» ، وعَطَفَتْ هذه الجملةَ على جوابِ شرطٍ محذوف. والتقديرُ: إنْ خفْتُم ألاّ تعدلوا بينهن فلا تنكحوهُن وانكحوا امرأةً واحدة.

ويُلاحَظُ أَنَّ القرآنَ يُنوِّعُ في الجُمَلِ التي استخدَمَ فيها هذه «الفاءات» ، فمعَ أنها كُلَّها للعطف ، إلاَّ أَنَّ صياغةَ الجملِ الواردةِ فيها اختلفَتْ.

٦ـ «أَنْ» التي هي حرف مصدري ونصب مذكورةٌ في الآيةِ ثَلاثَ مرات: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ ، و﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ ، و﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ .

واللطيفُ أَنها داخلةٌ على جُمَلٍ ثلاثٍ منفية ، وأَنَّ المصدرَ المسبوكَ منها منفيٌّ: وإنْ خفْتُم عَدَمَ القسط ، وإنْ خفتُم عَدَمَ العدل ، ذلك أَدْنى إلى عَدَمِ العَوْل.

بينما ذُكِرَتْ «إنْ» التي هي حرفُ شرطٍ مرتَيْن ، كانَ فيهما فعلُ الشرطِ مَذْكوراً ، وكانَ فيهما جوابُ الشرط محذوفاً.

٧ـ ذُكِرَتْ «ما» التي هي اسْمُ موصول مرتَيْن ، وأُريدَ بها الصنف والنوع ، وكانَتْ في الموضعَيْن منصوبة.

إنها في الموضعِ الأَول منصوبةٌ على أَنها مفعولٌ به: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ .

وفي الموضع الثاني منصوبةٌ لأَنها معطوفةٌ على مفعولٍ به منصوب: ﴿فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ . أي: انكحوا حُرَّةً واحدَة ، أَو أَمَةَ ملكَ اليمين.

٨ ـ «أو» التي هي حرفُ عطفٍ يدلُّ على التخيير مذكورةٌ في الآيةِ مرتَيْن:

في المرةِ الأُولى لم تُذكَرْ صريحة ، إلاَّ أَنها دَخَلَتْ ضمنَ الواو ، وضُمِّنَتْها الواوُ تَضْميناً ، كما وضَّحْنا ذلك ، وذلك في قولِه: ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ .

وفي المرةِ الثانية ذُكِرَتْ صراحة ، وأُريدَ بها التخييرُ الصريحُ الملزم ، وذلك في قوله: ﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ . أَيْ أَنه مَنْ عَجَزَ عن الزواجِ بالحُرَّة ، فإنه يَجبُ عليه الانتقالُ للخَيارِ الثاني ، وهو الزواجُ بملك اليمين.

٩ـ بين العَدْلِ والعَوْل جناسٌ في اللفظ ، لكن بينهما تَضادٌّ في المعنى ، فالعَدْلُ هو القِسْطُ ، والعَوْلُ هو الجَوْرُ والظلمُ والميل.

إنهما حالَتان متقابلتان لا تَجْتَمِعان ، وإنهما خَطَّانِ مُتقابلانِ مُتوازيانِ لا يلتقيان ، فإمّا عَدْلٌ وإمّا عَوْلٌ.

والقرآنُ يريدُ نَفْيَ العَوْلِ: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾، ولَنْ يُنفى العَوْلُ إلاّ بتحقيق العَدْل ، فإذا لم يَتَّصفْ تصرُّف المسلمِ بالعدلِ فقد وَقَعَ في العول.

١٠ـ في الآيةِ مجموعةٌ من مظاهر الحذفِ اللطيف ، وهي كما يلي:

أ ـ حَذْفُ المضاف في قوله: ﴿فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ . والتقدير: في نكاح اليتامى.
ب ـ حَذْفُ جوابِ شرط: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ . والتقدير: فلا تَنْكِحوهنّ. أَيْ: إنْ خِفْتُم أَلاَّ تُقْسطوا في نكاحِ اليتامى فلا تَنكحوهن وانكحوا ما طابَ لكم من النساء.

جـ ـ حَذْفُ صفةِ «النساء» في قوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ . أَيْ: فانكحوا ما طابَ لكم من النساءِ غير اليتامى ؛ لأَنَّ المرادَ بالنساءِ غيرُ اليتيمات اللاتي يخافونَ عَدَمَ القسط فيهن.

د ـ الصفاتُ الثلاثةُ: ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ صفاتٌ معدولةٌ عن العددِ والتكرارِ ؛ فكلٌّ واحدة منها بدلٌ عن كلمتَيْن محذوفتَيْن ، ومعنى قوله: ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾: انكحوا النساءَ: اثنتَيْن اثنتَيْن ، وثَلاثاً ثلاثاً ، وأَربعاً أربعاً.

هـ ـ حَذْفُ ما تعلَّقَ به فعلُ ﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ . والتقدير: أَلاّ تعدلوا بينَ نسائِكم.

و ـ حَذْفُ جوابِ شرطِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾. والتقديرُ: إِنْ خفتُم أَلاَّ تعدلوا بينهن فلا تنكحوهن.

ز ـ حَذْفُ الفعلِ والفاعل وإِبقاءُ المفعولِ «فواحدةً». والتقدير: فانكحوا امرأَةً حرةً واحدة.

ح ـ حَذْفُ البدلِ من اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ بعدَه. والتقدير: ذلك الحكمُ لأَنه أَقربُ إِلى أَنْ لا تعولوا.

ط ـ حَذْفُ حرفِ «إِلى» الداخل على الجملةِ المصدرية: «ألا تعولوا». والتقدير: ذلك أَدنى إلى أَنّ لا تَعولوا.



الفصل الثاني

﴿لَّا يَسۡتَوِى ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِى ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

تَتحدثُ الآيةُ عن الخبيثِ والطيب، وتُقررُ عدمَ تساويهما في ميزان الله، فالطيبُ هو الحسنُ، وإنْ كانَ قليلاً، والخبيثُ هو السيِّئ، وإنْ كانَ كثيراً، وكَثْرَتُهُ قد تُعجبُ بعضَ الناس، فيختارونَه ويُفضِّلونه، لكنَّها لا تُعجبُ المسلمَ البصيرَ الواعي، فيَبقى مع الطيبِ القَليل. وبما أَنه لا يعرفُ هذه الحقيقةَ القرآنيةَ إلاّ أُولو الألباب وأصحابُ العقولِ الكبيرة، فقد خاطبَتْهم الآيةُ وحْدَهم، وطالَبَتْهم بتقوى الله والبقاءِ مع شرعِه ومنهاجِه، لأَنَّ هذا وحدَه طريقُ الفلاحِ والفوز.

والخَبيثُ والطيبُ أَمْرانِ مُتقابلان مُتمايزان، ومُخْتِلفان متضادّان، لا يُمكنُ أَنْ يجتمعا معاً في الشيء الواحد، في الوقتِ الواحد، بمعنى أَنه لا يُمكنُ أَنْ يكونَ الشيءُ طيِّباً وخبيثاً في الزمانِ الواحدِ والمكانِ الواحد، لأَنهما متناقضان، ومعلومٌ أَنَّ النقيضَيْن لا يجتمعان!!.

و«الخبيثُ» و«الطيبُ» صِفَتان، تُطْلَقانِ على كُلِّ شيء، من الأَقوالِ والأَفعالِ، والمبادئ والأَفكار، والممارسات والتصرفات...

«الخبيثُ» صفةٌ مشبَّهة، على وزْنِ «فَعيل»، مشتقَّةٌ من الفعلِ الماضي الثلاثي: «خَبُثَ». تقول: خَبُثَ، يَخْبُثُ، خُبْثاً، فهو خَبيث. ومعنى قولك: خَبُثَ الشيءُ: صارَ فاسداً رَديئاً مَكْروهاً.

قالَ الإمامُ الرّاغبُ الأَصفَهانيّ: «الخُبْثُ والخَبيث: ما يُكْرَهُ رَداءَةً وخَساسةً، مَحْسوساً كانَ أَو معقولاً، وأَصْلُه الرديءُ الدُّخْلَةِ، الجاري مَجرْى خَبَثِ الحديد، كما قال الشاعر:

سَبَكْنـــاهُ وَنَحْسَبُـــهُ لُجَيْنـــاً   فَأَبْدَى الكيرُ عَنْ خَبَثِ الحَديدِ

وذلك يَتَناولُ الباطلَ في الاعتقاد، والكذبَ في المقال، والقبيحَ في الفِعال»[1].

أَيْ أَنَّ الخبيثَ هو كلُّ شيءٍ رديءٍ خَسيسٍ مكروه، وقد يكونُ هذا الخبيثُ شيئاً ماديّاً مَحْسوساً مجسَّماً، كطعامٍ أَو شراب، وقد يكونُ أَمْراً معنويّاً معقولاً، كمبدأ أَو تصوُّر أَو فكرة.

واعتبرَ الإمامُ الراغبُ الخبيثَ شاملاً لثلاثة جوانب: اعتقاد باطل، أَو قول كاذب، أَو فعل قَبيح.

وهذا الخبيثُ حَرامٌ، حَرَّمَه الله، ودعا المسلمينَ إِلى الامتناعِ عنه، لرداءَتِه وخِسَّتِه وسوئِه وفسادِه.

و«الطيِّبُ» في مقابل الخبيث؛ وهو صفةٌ مشبَّهةٌ على وَزْنِ «فَيْعِل»، مشتق من الفعلِ الثلاثي «طابَ»؛ تقول: طابَ، يَطيب، طَيْباً، فهو طَيِّبٌ؛ أَيْ: زَكا وطهُر، وجادَ وحَسُنَ، ولَذَّ وأَمْتَع، وصارَ حلالاً.

جاءَ في المعجمِ الوسيط عن الطيِّب: «الطيِّب: ما يُتَطَيَّبُ به من عِطْر ونحوه.. وكلُّ ما تستلذُّه الحواسُّ أو النفس، وكُلُّ ما خَلا من الأَذى والخُبْث، وكُلُّ مَنْ تَخلّى عن الرذائل، وتحلّى بالفضائل»[2].

وقالَ الراغبُ الأَصفهاني: «أَصْلُ الطَّيِّب: ما تستلذُّه الحواسّ، وما تستلذُّه النفس.. والطعامُ الطيبُ في الشرع: ما كان مُتَناولاً مِن حيثُ ما يَجوز، ومِن المكانِ الذي يَجوز، فإنه متى كان كذلك كان طيِّباً عاجِلاً وآجلاً... والطيِّبُ من الإنسان: مَنْ تَعرّى من نجاسةِ الجهلِ والفسقِ وقبائحِ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٧٢.

(٢) المعجم الوسيط، ص ٥٧٣.

الأَعمال ، وتحلَّى بالعلمِ والإِيمانِ ومحاسنِ الأعمال»[1] .

الطيِّبُ هو كلُّ ما كانَ حَسَناً مَرْغوباً لَذيذاً مطلوباً ، خالياً من الأَذى والضَّرَر ، والمفاسدِ والخبائثِ والقبائح .

والطيِّب قد يكونُ ماديّاً مَحْسوساً ، كالطعام والشرابِ واللباسِ والعِطْر ، وقد يكونُ معنويّاً كالأَفكارِ والمبادئ ، والأَقوالِ والكلمات . . وقد ينتقلُ من الأَفكارِ والأَقْوالِ والأَفعالِ إِلى أَصحابها . فيقال : هذا مسلمٌ طَيِّبٌ ، وهو الذي اتَّصَفَ بالطَّيِّبِ من الاعتقاد أَو القول أَو الفعل .

بعدَ معرفةِ معنى «الطَّيِّبِ» و«الخَبيث» ، نَقِفُ مع جُمَلِ الآيةِ ، التي قَرَّرَتْ عدمَ استوائهما .

تتكوَّنُ الآيةُ من الجُمَلِ التالية :

١ ـ قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾:

﴿ قُل﴾ : فعلُ أَمْر . والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرُه «أَنت» .

الآمِرُ هو الله سبحانه وتعالى ، والمأمورُ ـ وهو الفاعِلُ ـ عامٌّ ، يَنصرفُ في المقامِ الأَوَّلِ إِلى رسول الله ﷺ ، أَيْ : قُلْ يا محمدُ للناس : لا يَستوي الخَبيثُ والطيب .

ولكنَّه ليس خاصّاً بالرسولِ ﷺ ، وإنما هو عامٌّ ، يَشملُ كُلَّ مسلمٍ من بعدِه ، من العلماءِ والدعاةِ والخطباء ، الذين يمكنُ أَنْ يقولوا . فاللهُ يأمرُ كُلَّ عالمٍ وداعيةٍ وخَطيب قائلاً له : قُلْ للناسِ من حولِك : لا يَستوي الخَبيثُ والطَّيِّبُ .

وفي عمليةِ «القولِ» أَطرافٌ ثَلاثَة : القائلُ ، والمَقولُ له ، والقولُ نفسُه .

القائل : هو الرسولُ ﷺ ، وكلُّ مسلمٍ قائلٍ داعيةٍ من بعده .

المقول له : هو الطرفُ الآخرُ الذي يوجَّه له القول ، وهو كلُّ إِنسانٍ يُمكنُ أَنْ يَسمعَ القولَ ، وهو محذوفٌ في الآية . والتقديرُ : قُلْ «لَهُ» . أَيْ : قُلْ لأَيِّ إِنسان . وحكمةُ حذفِه هي العمومُ والشمولُ ، ليدخلَ فيه كلُّ إِنسان .

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٢٧ .

القولُ: وهو الجملةُ التي يَجبُ أَنْ يَقولَها، وهي المذكورةُ في الآيةِ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾.

ما هي الحقيقةُ القاطعةُ الصادقةُ، التي يَجبُ أَنْ يَقولَها كلُّ قائلٍ واعٍ بَصير؟.

إنها عدمُ استواءِ الخبيثِ والطيِّب: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾.

﴿يَسْتَوِى﴾: فعلٌ مضارع. الماضي منه خُماسيّ: «اسْتوى»، وهو مَزيدٌ بحرفَيْن: الهمزةِ وتاءِ الافتعال. الثلاثيُّ منه: سَوى.

تقولُ: سَوى الشيءُ. أَي: اسْتَقامَ وصَلَحَ.

وإذا استُعملَ الخماسيُّ «اسْتوى» في طرفَيْن، كان بمعنى التَّساوي والمساواةِ؛ تقولُ: اسْتَوى فلانٌ وفلانٌ في الطُّول؛ أَيْ: تساويا في الطول، وكانا على طولٍ واحد.

والطَّرفانِ اللَّذانِ لا يَسْتَويان ولا يَتَساويان هما: الخبيثُ والطيِّبُ.

الخَبيثُ هو المكروهُ المرذولُ الفاسدُ الرديءُ الخَسيس، من الأَفكارِ والأَقوالِ والأَفعالِ والأَشخاصِ. والطيِّبُ هو المحبوبُ المرغوبُ المطلوبُ الحَسَنُ الممتعُ المستَلَذُّ، من الأَفكارِ والأَقوالِ والأَفعالِ والأَشخاص.

إِنَّهما متَضادّان مُتَقابلان، ومُخْتلفان مُتناقضان، لا يُمكنُ أَنْ يَلتقيا، ولا أَنْ يجتمعا، ولا أَنْ يَسْتويا أَو يَتَساويا!.

لماذا لا يَستوي ولا يَتَساوى الخَبيثُ والطَّيِّب؟.

لأَنَّ الخيرَ لا يَتَساوى مع الشَّر، والحَقَّ لا يَتَساوى مع الباطل، والهُدى لا يَتَساوى مع الضَّلال، والإيمانَ لا يَتَساوى مع الكفر، والمؤمن لا يَتَساوى مع الكافر، والمُحسنَ لا يَتَساوى مع المسيء.. وهكذا كلُّ طرفَيْن مُتَقابلَيْنِ من الأَفكارِ والأَقوالِ والأَفعال.

الطيِّبُ: شَريفٌ عالٍ سامٍ، عزيزٌ كريمٌ طاهر.. والخَبيثُ: هابطٌ سافلٌ مَتَدَنٍّ، ذَليلٌ هَيِّنٌ ساقِط.. وكلما زادَ الطيبُ سُمُوّاً وارتفاعاً، زادَ الخبيثُ هُبوطاً وسُقوطاً. وكلما زادَ الطيبُ طهارةً وزكاةً وإِشراقاً، زادَ الخبيثُ

رجساً ونجاسَةً وظَلاماً. . فكيف يتساويان عند سليمِ القلب ، كبيرِ العقل ، طاهرِ الفطرة؟.

هل لا يَستوي الخبيثُ والطيبُ عندَ كُلِّ الناس؟.

الجوابُ بالنفي. إنهما لا يَستويانِ عندَ فريقٍ مخصوصٍ من الناس ، وهم المؤمنون أُولو الألباب ، المستقيمون على شرع الله.

ولكنَّ الخبيثَ والطيبَ يَستويانِ عندَ فريقٍ آخَرَ من الناس ؛ وهم الذين اختلَّتْ نَظراتُهم ، وفسدَتْ موازينُهم ، فتساوى عندهم الخيرُ والشَّرّ.

والمصيبةُ عند فريقٍ ثالثٍ من الناس ، الذين انقلبتْ عندهم الأَشياءُ ، فصارُ الخبيثُ عندهم هو الأَفضل ، وصارَ الطيِّبُ هو الأَسوأ ، واختاروا الخبيث ، وتركوا الطيب.

إِنَّ الناسَ بالنسبةِ للخبيثِ والطيِّبِ ثلاثَةُ أَصناف:

الصنف الأول: المؤمنون الصالحونَ أُولو الأَلباب: لم يَتَساوَ عندهم الخَبيثُ والطيّب ، لكَرَمِ الطيبِ وشرفِه ، وسوءِ الخبيثِ ونجاستِه.

الصنف الثاني: الذين اضطربَتْ عندهم الحقائقُ والموازين ، فاسْتَوى عندهم الخبيثُ والطيِّبُ، وصاروا بدرجةٍ واحدة.

الصنف الثالث: المنحرفونَ الضالّون ، المتَّبعونَ للأهواءِ والشهوات ، لم يَتَساوَ عندهم الخبيثُ والطيب؛ لأَنَّ الخبيثَ هو الأَفضلُ المقبولُ المطلوب ، ولأَنَّ الطيبَ هو السيِّئ المرذول المهجورُ المتروك!!.

ومعنى هذا أَنه تَختلفُ النظرةُ إِلى الطيبِ والخبيث ، بحسبِ اختلافِ أَصحابها ، الذينَ يَنظرونَ بها ، ويَختلفُ تقييمُ الطَّيبِ والخبيث ، بحسبِ اختلافِ الميزانِ الذي يوزَنُ به كلٌّ منهما.

لا يَستوي الطيِّبُ والخبيثُ في ميزان الله ، ولا في شرعِ الله ودينِه ، ولا عندَ المسلمينَ الصادقين ، الملتزمينَ بدين الله ، المنطلقين من منهاج الله.

أمّا في الموازينِ الجاهلية ، وعندَ أَصحابِها الجاهليّين فإن الطيبَ يتساوى

مع الخبيث!! وكثيراً ما يَسْمو ويَعْلو الخبيث على الطيب ، ويَفْضُلُ الخبيثُ على الطيِّب عند هؤلاء الجاهليّين!!.

وأَوضحُ ما يكونُ هذا الوضع الجاهليُّ الشّاذُّ وُجوداً في هذا العصر ، الذي أُقصيَ فيه الإسلامُ عن المجتمعات ، وتَحَكَّمَتْ فيه الجاهليةُ في العالم ، وانتشرَتْ فيه قِيَمُ وتصرُّفات الجاهليةِ في العالم.. حيثُ وَجَدْنا محاربةً شديدةً للطيب ، ووجَدْنا انتشاراً واسِعاً للخَبيث ، وصارَ الطيبُ قليلاً نادِراً مُطارَداً، وصارَ الخبيثُ عامّاً شامِلاً ، وطوفاناً جارفاً...

في هذا الجَوِّ الجاهليِّ صارَ الخبيثُ أَفضلَ وأَحسنَ من الطَّيِّب ، وصارَ هو المرغوبَ المطلوبَ المحبوبَ المقبولَ.. وصارَ الطيِّبُ مَنبوذاً متروكاً مُحارباً!!. والله المستعان!!.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾:

هذه الجملةُ معطوفةٌ على الجملةِ الفعليةِ السابقة ، وداخلةٌ ضمنَ القولِ الذي أُمِرَ أَنْ يَقولَه القائلونَ للآخرين: ﴿لَّا يَسۡتَوِى ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾.

وهي جملةٌ شرطيّة: ﴿وَلَوۡ﴾: حرفُ شرط. و﴿أَعۡجَبَكَ﴾: فعلٌ ماضٍ والكافُ في محلِّ نصب مفعولٍ به مقدَّم. و﴿كَثۡرَةُ﴾: فاعلٌ مُؤخر. و﴿ٱلۡخَبِيثِۚ﴾: مضافٌ إليه. وجملةُ: ﴿أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾: فعلُ الشرط. وجَوابُ الشرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه ما قبلَه. تقديرُه: لا يَسْتوي مع الطَّيِّب. فتكون الجملةُ الشرطيةُ هكذا: لو أعجبكَ كثرةُ الخَبيثُ فلا يستوي مع الطيِّب.

والمخاطبُ في ﴿أَعۡجَبَكَ﴾ هو أَيُّ إنسان مُوَجَّه له القولَ؛ فالرسولُ ﷺ يقولُ لكلِّ إنسان: لا يَستوي الخبيثُ والطيِّب.. ولو أَعجبكَ كثرةُ الخبيثِ فلن يَستوي مع الطيِّب.. وكلُّ عالمٍ أَو داعيةٍ يَقولُ هذا القولَ نفسَه للمقول له في زمانه.

و﴿كَثۡرَةُ﴾: مَصْدَر. فعلُه الماضي «كثُرَ». تَقول: كَثُر ، يكْثُرُ ، كَثْرَةً. والكثرةُ هي الزيادَة في العَدَد ، والانتشارُ والتوسُّعُ ، يُقابلُها القلَّة.

وإِسنادُ الفعلِ الماضي ﴿أَعۡجَبَكَ﴾ إلى ﴿كَثۡرَةُ﴾ مقصود ، لأنَّ الإعجابَ هو الرِّضا والقبولُ والانخداع ، فإذا أُعجبَ الإنسانُ بالشيء فإنه يَميلُ إليه ويَرغبُ فيه ويطلبه.

ولا يَكونُ الخَبيثُ كثيراً منتشراً ، إلاّ في عصرِ اختلالِ الموازين ، وتَحَكُّم الباطل ، وانتفاشِ الجاهلية ، وانتشارِ قِيَمِها ومبادئِها وأَعْرافِها وسُلوكياتِها . . ولا يَكثُرُ الخَبيثُ ويَنتشرُ إلاّ على حسابِ الطيِّب ، الذي يكونُ مُحارَباً مُطارَداً مَقْصِيّاً ، ويَكونُ قَليلاً نادراً في هذا الجوِّ الفاسدِ الموبوء! .

وتدلُّ هذه الجملةُ ﴿أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ على إشارةٍ نفسيةٍ واجتماعية ، وهي أَنَّ كَثيرينَ يَستمدّون قِيَمَهُم وموازينَهم من المجتمع الذي يَعيشونَ فيه . . فإِنْ عاشُوا في مجتمعٍ إسلاميٍّ طاهر كثُرَ فيه الطيبُ، أَعجبتْهم كثرةُ الطيِّب ، وأَخَذوا به وفَضَّلوهُ واختاروهُ على الخبيث ، وهم لم يَأْخُذوا به لأنه طيِّبٌ في نفسهِ ، وإنما لأنه كثيرٌ مَشهورٌ مُنْتَشِر!! وإذا عاشوا في مجتمعٍ جاهليٍّ كَثُرَ فيه الخَبيث ، أَعجبتْهم كثرةُ الخبيثِ ، واخْتاروه على الطيِّبِ وفَعَلوه ، لأنه منتشرٌ مشهور!! فتتغيَّرُ نظرةُ هؤلاء للطيبِ والخبيثِ حسبَ العُرْفِ العامّ ؛ بالأَمْسِ يَفعلونَ الطيبَ لأَنه منتشر ، واليومَ يَفعلونَ الخبيثَ لأَنه منتشر!! وبذلك يَقعونَ في تناقضٍ مَرْذول.

هؤلاءِ مَذْمومون ، كلُّ واحدٍ منهم «إِمَّعَة»! ونهى رسولُ الله ﷺ كُلَّ مسلمٍ أَنْ يكونَ مثْلَه، وذلك في قوله : «**لا يكُنْ أَحدُكم إمعَة ، يقولُ : أَنا مع الناس ، إِنْ أَحسَنَ النَّاسُ أحسنت ، وإِنْ أَساؤوا أَسَأْتُ . ولكن وَطِّنوا أَنفُسَكم ، إِنْ أحسنَ النَّاسُ أَنْ تُحسِنوا ، وإِنْ أساؤوا أَنْ تَجْتَنِبوا إساءَتَهم**»!! .

وقد فسَّرَ الحديثُ الإمَّعَة بأنه الذي معَ الناس : «لا يكُنْ أَحدكُم إِمَّعَة ، يقول : أَنا مَع الناسِ» . أَي : أَنَّ «إِمَّعَة» اختصارُ جملةِ : «أَنا مَعَه»!! .

الخطابُ في جملةِ : ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ للإنسانِ الواعي البَصير ، الذي لا يتأَثَّرُ بكثرةِ الخبيث ، ولو أَعجبَتْه كثرتُه .

إِنَّ الذي لا يتأَثَّرُ بكثرةِ الخبيث وانتشاره بين الناسِ ، هو المؤمنُ الملتزمُ بالقرآن ، الذي يَزِنُ كُلَّ شيء بميزانِ الله ، ويُعطي الأَشياءَ وَزْنَها وقيمتها من

ميزانِ الله ومنهاجِه! الطيِّبُ عنده يَبْقى طَيِّباً ، ولو هَجَرَه كلُّ الناس ، والخَبيثُ عنده يَبقى خَبيثاً مَتروكاً مَهْجوراً ، ولو فعلَه كُلُّ النّاس . إنه ثابتٌ على الحَقِّ لأنه يَنطلقُ من الجملةِ الأولى في الآية : ﴿لَا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ .

وفي الجملةِ : ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ إشارةٌ أُخرى ، هي أَنَّ كَثْرَةَ الخبيثِ وانتشارَهُ تُعجبُ كَثيرينَ من الناس ، وتُؤثِّرُ في نظراتِهم وسلوكياتهم وقراراتِهم ، وتخدعُهم وتُلبِّسُ الأُمور عليهم ، ولا يَنجو من هذا المرضِ إلاّ المؤمنون الصالحون .

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

هذه الجملةُ نتيجةٌ للجملتيْن السابقتَيْن ، وجاءَ فيها التوجيهُ من اللهِ للمؤمنينَ في الوقتِ المناسب ، فإذا كانَ الخَبيثُ والطيبُ لا يَستويان ، وإذا كانَ المؤمنُ يَبْقى تارِكاً للخبيثِ حتى لو انْتَشَرَ وأَعجبَتْ كثرتُه كثيرين ، فعلى أُولي الأَلبابِ المؤمنين أَنْ يَتَّقوا الله ، ويَثْبُتوا على الحَقِّ ، ليُفلحوا ويَفوزوا .

الفاء في جملة : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تُسَمَّى «فاءَ الفَصيحة» ؛ وهي الفاءُ التي تُفصحُ عن جملةٍ مُقَدَّرة ، وتُرشدُ إليها ، والجملةُ المقدَّرَةُ فعْلُ شَرْطٍ ، لأَداةِ شَرْطٍ مُقَدَّر ، والفاءُ الفصيحةُ داخلةٌ على جوابِ الشرطِ . والتقديرُ : إذا عرفْتُم هذا فالتزِموا به واتقوا الله لعلكم تفلحون .

واللاّفتُ للنظرِ أَنَّ توجيهَ الله للمؤمنين كان أَمْراً لهم بتَقْواه ، فما هي الصلةُ بين التقوى وبينَ عدم تساوي الخبيثِ والطيِّب؟ فَعَدمُ تساويهما مسأَلَةٌ فكريةٌ نظريةٌ تَصوريّة ، والتقوى حالةٌ نفسية ، يَنتجُ عنها سلوكٌ عمليّ! فما هي الصلةُ بين الجملتَيْن؟ .

إِنَّ الصلةَ هي الارتباطُ بين الأفكارِ والتصوُّرات ، وبين السلوكيّاتِ والتصرفات ، على أَنَّ الأَفكار النظريّةَ لا بُدَّ أَنْ تَقودَ إِلى السلوكيّات العملية ، وتُوجِّهُ التصرفاتِ والأَقوالَ والأَفعال .

إِنَّ الاعتقادَ الجازمَ بعدم تَساوي الخبيثِ والطيِّب ، يَدفعُ المؤمنَ إِلى عَدَمِ الإِعجابِ والتأَثُّرِ بالخَبيث ، مهما كَثُرَ وانتشر ، وإِلى الثباتِ على الحق مهما قَلَّ أَنصارُه . . والذي يُعينُ على ذلك هو تَقْوى الله ، وحُسْنُ مراقَبَتِه ،

والحرصُ على فعْلِ ما يُرضيه ، وتَرْكِ ما يُسخطُه! ولذلك جاءَ التوجيهُ الربانيُّ آمراً المؤمنينَ بتقوى الله .

والمأمورونَ بالتقوى هم المؤمنونَ الصالحون ، وقد ناداهم الله واصِفاً إيّاهم بصفةٍ لطيفةٍ ذاتِ دلالة : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

﴿يا﴾ : حرفُ نداء . و﴿أولي﴾ : منادى منصوبٌ لأنه مضاف . و﴿ الْأَلْبَابِ ﴾ : مضافٌ إليه . وجملةُ النِّداء ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ جملةٌ معترضة ، بينَ جملةِ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، وجملة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

و﴿أُولي﴾ : بمعنى أَصحاب . وهي لفظٌ ملحقٌ بجمعِ المذكَّرِ السالم ، فيُرْفَعُ بالواو ، ويُنْصَبُ ويُجَرُّ بالياء . وهو لا مُفْرَدَ له من لفظِه ، فلا يُستعْمَلُ إلاّ جَمْعاً ، وإذا أُريدَ المفردُ جيءَ بلفظِ «ذو» ، الذي هو بمعْنى «صاحب» ، وهو من الأسماء الخمسة . . فالمفردُ «ذو» لا جمعَ له من لَفْظِه ، والجمعُ «أُولو» لا مفردَ له من لَفْظِه .

و﴿ الْأَلْبَابِ ﴾ جمعُ «لُبّ» ، وهو العقلُ ، و«لُبُّ» الشيء : داخِلُه ، والعقلُ «لُبٌّ» لهذا الاعتبار .

قالَ الإمامُ الراغب : «اللُّبُّ : العقلُ الخالِصُ من الشوائب ، وسُمِّيَ بذلك لكونِه خالِصَ ما في الإنسانِ من معانيه ، كاللُّباب واللُّبِّ من الشيء . . وقيلَ : هو ما زكا من العقل ، فكلُّ لُبٍّ عَقْلٌ ، وليسَ كلُّ عَقْلٍ لُبّاً ، ولهذا عَلَّقَ الله الأَحكامَ التي لا تُدركُها إلاّ العقولُ الزكيةُ بأُولي الألباب»(١) .

و﴿ الْأَلْبَابِ ﴾ لم تَرِدْ في القرآنِ إلاّ جَمْعاً .

وحكمةُ ذكْرِ الجملةِ المعترضة ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، ونداءُ المؤمنين المتقين بها الإشارَةُ إلى دَوْرِ الأَلبابِ والعقولِ الزكيةِ في تقْوى الله ، والثباتِ على الحَقّ ، وعدمِ الانخداعِ بالخبيثِ الكثير .

أَيْ أَنَّ عَدَمَ تساوي الخبيثِ والطيبِ يَحْتاجُ إلى لُبٍّ زَكيٍّ ، وعَقْلٍ ذَكيٍّ ، ووعْيٍ بَصير ، لأَنَّ هذا اللُّبَّ والوعيَ هو الذي يُحسنُ المقارنةَ بين الخبيثِ

---

(١) المفردات ، ص ٧٣٣ .

والطيب ، وهو لا يُمكنُ أَنْ يَختارَ الخبيثَ وإِنْ كانَ كثيراً. . فالمسأَلَةُ لا تُحسنُ فَهْمها إِلاَّ الأَلبابُ والعقولُ والبصائر ، ولذلك نادى الله المؤمنينَ بهذه الصفة.

وجملةُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ : تعليلٌ للأَمْر بالتَّقوى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ. . . لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. .

أَيْ أَنَّ الله أَمَرَنا بتقواه كي نُفلحَ ونَنجحَ ونَفوز. . ومَعنى هذا أنه لا يمكنُ للمؤمنِ أَنْ يَصلَ إِلى الفَلاحِ إِلاَّ عن طريقِ التقوى. فالذين يَتَّقون الله ويَثْبُـتُونَ على الحَقِّ يُفْلِحون ، والذين لاَ يَتَّقون الله لا يُفلِحون.

والفلاحُ هو النجاحُ وتحقيقُ الغاية ، والظفَرُ بالمطْلوب.

والأَصْلُ في «لَعَلَّ» أَنها للتَّرَجّي ، تقول: ادرسْ لعلَّكَ تَنْجَح. فأَنتَ تَرجو له النجاح ، ولكنك لا تَجزمُ به ، لأَنك لا تعلمُ المستقبل.

فإِذا دخلت «لَعَلَّ» على جملة أَخبرَ بها الله ، فإِنها لا تدلُّ على التَّرَجّي ، وإِنما تدلُّ عل الجزمِ واليقين ، لأَنَّ الله لا يَرجو ولا يتوقَّع ، وإِنما هو يجزمُ جَزْماً ، لأَنه أَحاطَ بكُلِّ شيء علماً ، في الماضي والحاضرِ والمستقبل.

من لطائف الآية:

من أَروعِ اللطائفِ التي يُمكنُ أَنْ تُؤخَذَ من الآية:

١ـ الفعلُ المضارعُ ﴿يَسْتَوِى﴾ بمعنى «يتَساوى». والماضي من الأَوّلِ خُماسي: «اسْتوى» ، على وَزْنِ «افْتَعَلَ» ، والتاءُ فيه تُسَمّى «تاءَ الافتعال». والماضي من الثاني خُماسيّ: «تَساوى» ، على وزن «تَفاعَلَ» ، والأَلفُ فيه تُسَمّى «أَلِفَ المفاعَلَة».

وأُوثِرَ ﴿يَسْتَوِى﴾ على «يَتَساوى» لما فيه من تاءِ الافتعال ، الدالَّةِ على الحيويةِ والتفاعل ، وهذا أَبلغُ في هذا المقامِ من أَلِفِ المفاعلة ، لأَنَّ أَلِفَ المفاعلةِ تدلُّ على المسابقةِ والمشاركة ، وهذا غيرُ مُرادٍ هنا ، إِنما المرادُ أَنَّ الخبيثَ لا يَسْتَوي ولا يَرْتَقي إِلى مستوى الطيِّب ، فمهما كَثرَ الخَبيث وانتشر فإِنه لا يَستوي إِلى مستوى الطيبِ الرفيعِ السّامي!!.

٢- في الآيةِ خطابان للمفرد: خطابٌ لفاعلِ فعلِ الأَمْرِ ﴿قُل﴾ ، وخطابٌ للمفعولِ به في ﴿أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾. والخطابانِ لَيْسا مترادفَيْن ، لا في المخاطِبِ ، ولا في المخاطَبِ.

المخاطِبُ في ﴿قُل﴾ هو الله الآمِرُ. والمخاطبُ هو الرسولُ ﷺ ، وكُلُّ عالمٍ من بعدِه ، وهو المأمورُ بأَنْ يقولَ ذلك القول.

أمّا المخاطِبُ في ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ فهو الرسولُ ﷺ ومَنْ بَعْدَه ، والمخاطَبُ هو كُلُّ مَنْ يُمكنُ أَنْ يُوَجَّهَ له الخطاب.

واللَّطيفُ أَنَّ المخاطَبَ في الجملةِ الأُولى صارَ مُخاطِباً في الجملةِ الثانية. وتَحَوَّلَ منْ مُكلَّفٍ بالخطابِ إلى مُبَلِّغٍ لما كُلِّفَ به ، ومُنَفِّذٍ لما أُمِرَ به.

٣- يجمعُ بينَ الكلمتَيْن ﴿ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ أَنَّ كُلاًّ منهما صِفَةٌ مُشبَّهةٌ ، والصفَةُ المشبَّهةُ هي الصفةُ الملازمةُ للموصوف ، بحيثُ لا تُفارقُه ولا تَنفكُّ عنه ، وللصفةِ المشبهةِ عِدَّةُ أَوزان.

واللَّطيفُ أَنَّ كُلَّ واحدةٍ من الكلمتين على وَزْنٍ خاصٍّ من أَوزانِ الصفةِ المشَبَّهَة:

﴿ٱلۡخَبِيثُ﴾ على وَزْن «فَعيل». ﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾ على وَزْن «فَيْعِل».

«فَيْعِل» أَبلغُ وآكَدُ من «فعيل»، والكلمة التي على وزنها أَبلغُ وآكَدُ.

واللطيفُ في الآيةِ أَنها أَوردت «الطيِّبَ» على وزْنٍ أَبلغَ وآكَدَ وأَفضلَ من وَزْنِ «الخبيث». أَيْ أَنَّ «الخبيثَ» لا يَستوي مع «الطيبِ» في كلِّ شيء ، حتى في «ميزانِه الصَّرْفيِّ»! إِنَّ «الطيبَ» ارْتَقى وتسامى حتى في ميزانه «فَيْعل» ، وبَقيَ «الخبيثُ» دونَه في كُلِّ شيء ، حتى في ميزانِه «فَعيل»!!.

٤- في الآيةِ حذفانِ لطيفان:

الحذفُ الأَوَّل: حَذْفُ جوابِ الشرط ، في جملةِ: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ ، والتقدير: ولو أَعجبكَ كثرةُ الخبيثِ فلا يَستَوي مع الطيِّب.

الحذف الثاني: حذفُ فعلِ الشرط ، الذي أَشارَتْ له الفاءُ الفصيحة:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ . والتقديرُ : إذا عرفتُم عَدَمَ استواءِ الخبيثِ والطيِّبِ فاتَّقوا الله والْزَموا الطيِّبَ .

واللطيفُ أَنَّ الحَذْفَيْن في جملتَيْن شرطيتَيْن متجاورتَيْن : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

واللطيف أَنَّ بينَ الحذفَيْن «تَناوُباً» ؛ فوقَعَ الحذْفُ على جوابِ الشرطِ في الجملةِ الأُولى ، ثم انتقل هذا الحذْفُ إلى فعلِ الشرطِ في الجملةِ الثانية !!

٥ ـ وَقعت الفاءُ الفصيحةُ في الآيةِ في موقعِها اللطِيف ، حيثُ أُدخلَتْ على جوابِ الشرط ، وأَفْصحَتْ عن فعلِ شرطٍ مَحْذوف ، وأشارَتْ إليه .

٦ ـ في الآيةِ انتقالٌ لطيفٌ من الفردِ إلى الجماعة في الخطاب :

القسمُ الأولُ من الآيةِ خطابٌ للمفرد : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ .

القسمُ الثاني من الآيةِ خطابٌ للجماعة : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وفي هذا الانتقالِ إلى الجماعةِ إشارَةٌ إلى الطبيعةِ الجماعيةِ لهذا الدين .

٧ ـ في الآيةِ صيغتا جمعٍ لا مُفْرَدَ لهما في القرآن : ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، واجْتَمَعا معاً ، وأُضيفَ أَوَّلُهما إلى ثانيهما ، وهذا من لطائفِ المجاورةِ والإضافة .

٨ ـ في الآيةِ فعلانِ ماضيهما خماسيّ :

الأول : ﴿ يَسْتَوِي ﴾ . ماضيه «اسْتوى» بتاءِ الافتعال ، على وَزْنِ «افْتَعَل» .

الثاني : الأَمْرُ ﴿ فَاتَّقُوا ﴾ . ماضيه «اتَّقى» ، بتاء الافتعال ، على وَزْنِ «افْتَعَل» لأَنَّ ثلاثِيَّه «وقى» ، وأَصْلُ ماضيه : «اوْتَقى» ، ولما أُدغمت الواوُ في التاءِ صار «اتّقى» .

واللَّطيفُ أَنَّ الفعلَ الأَولَ خَبرِيٌّ منفيٌّ : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ ﴾ . والفعلَ الثاني طلبيٌّ مُثْبَت : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

من أهم دلالات الآية:

١ـ الطيبُ والخبيثُ في الآيةِ لَفْظان عامّان ، شامِلان لكلِّ المعاني التي يَدُلّان عليها ، والواجبُ عدمُ صَرْفِهما عن هذا العمومِ والشمول ، لعدم وُجودِ دليلٍ على ذلك. إنهما يَنطبقانِ على كُلِّ طيبٍ وخَبيث ، من الأَفكارِ والأَقوالِ والأعمالِ والأَشخاص.

٢ـ الخَبيثُ يَدُلُّ على معناه ، بحُروفه وجَرْسِه وإيقاعِه ؛ إنه الرديءُ الفاسدُ الكريهُ الخَسيس ، تَمثَّلَ فيه السوءُ بكلِّ جوانبه ؛ فالخبيثُ هو السَّيِّئُ.

والطيّب يدلُّ على معناه ، بحُروفِه وجَرْسِه وإيقاعِه ، وهو المرغوبُ المطلوبُ اللَّذيذ ، الخالي من الأَذى والضَّرَر ، تمثَّلَ فيه الحَسَنُ بكلِّ جوانبه ، فالطيِّبُ هو الحَسَن.

٣ـ الخبيثُ والطيبُ أَمْرانِ متَقابلان ، وهما مُخْتَلفان متضادّان ، وخَطّانِ مُتمايزان مُفترقان ، لا يُمكنُ أَنْ يلتقيا في منتصفِ الطريق ، ولا يُمكنُ أَنْ يجتمعا مَعاً ليكونا صِفَتَيْنِ لموصوفٍ واحد ؛ أَيْ أَنه يَستحيلُ أَنْ يكونَ الشيءُ أَو الشخصُ خَبيثاً وطَيِّباً في الوقت نفسه.

٤ـ الحقيقةُ القرآنيةُ القاطعةُ أَنَّ الخبيثَ مهما كَثُرَ وانتشر ، فإنه لا يُمكنُ أَنْ يَرتقيَ إِلى مُستوى الطيب ، ولا يُمكنُ أَنْ يَستويَ معه في منزلةٍ واحدة.

وبما أَنه لا يَستوي معه في ميزانِ الله ، فلا يَجوزُ أَنْ يَستويَ معه في تصوُّرِ المسلم؛ أَيْ أَنَّ الطيِّبَ عند المسلم يَجبُ أَنْ يكونَ في المنزلةِ الأَعلى ، والخبيثَ لا بُدَّ أَنْ يكونَ في الحَضيض.

٥ـ الذينَ يُخالفونَ منهجَ الله يَقَعون في خطأ النظرِ والوَزْنِ والتقويمِ والاختيار ، فمنهم مَنْ يَخلطُ الخبيثَ بالطيِّب ، ومنهم مَنْ يُساوي الخبيثَ بالطيب ، والأَقبَحُ منهم هو الذي يَرفعُ ويُفَضِّلُ الخبيث ، ويَطرحُ ويُدْني الطَّيِّبَ! وتفضيلُ الخبيثِ على الطيبِ من أَهَمِّ صفاتِ هذا الزمان ، الذي تحكمتْ فيه الجاهلية.

٦ـ غالباً ما يكونُ الخبيثُ أَكثرَ من الطيبِ في حياةِ البشرية ، على مستوى الأَفكار والأَقوالِ والأَفعالِ والأَشخاص ، ويكونُ الطيبُ من هذه الأَصنافِ

قليلاً نادراً. وذلك بسببِ الصفةِ العامَّةِ للبشرية ، التي تُفَضِّلُ ـ في عمومها ـ الخبيثَ والسَّيِّئ ، والانحراف والضلال ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

فلا غَرابَة أَنْ يكثرَ الخَبيثُ ويقلَّ الطيبُ في هذه البيئة ، ووسْطَ هذه الأَكثرية.

٧ـ معظمُ الناسِ مُعْجَبونَ بالخبيث ، لأَنه أَكثرُ من الطيب ، ومقياسُ النظر عندهم هو العمومُ والكثرة ، والانتشارُ والتوسُّع ، فهم لا يَلْحَظونَ ما فيه من خبثٍ كَريه ، وسوءٍ رديء ، إِنما يَلحظونَ انتشاره ، وإِقبالَ أكثريةِ الناسِ عليه.

إِن هؤلاء خاضعون لمنطق الأغلبية والأَكثرية ، ويتأَثَّرون بما عليه الغالبية ، ويَرضونَ بما عليه الأكثرية ولا يُهمُّهم بعدَ ذلك أَنْ يكونَ هذا خبيثاً أَو طيباً!.

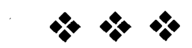
٨ ـ المؤمنونَ المتَّقونَ ثابتونَ على الحَقِّ رغْمَ انتفاشِ الباطل ، وهم مع الطيِّبِ رغْمَ قِلَّتِه وندرتِه ، وهم تاركونَ للخبيث ، كارِهونَ له رغم انتشاره.

وهذا موقفٌ عظيمٌ لهم ، يُحمدَون عليه ، فهم لا يَخْضعونَ في نظراتِهم واختياراتِهم للعرفِ أَو العادة ، أَو رأيِ الأَغلبية والأَكثرية ، إِنما هم يَخضعونَ لحكمِ الله وشرعِه ومنهاجِه ، فما وافقَه فهو الحَقُّ والطيِّب ، وهم معه ، وما خالَفَه فهو الباطلُ والخبيث ، وهم يَهجرونه ويُحاربونه.

٩ـ الميزانُ الصحيحُ لوزْنِ الأَفكارِ والأَعمالِ والأَشخاص ، هو ما كانَ صادِقاً عالماً خبيراً عادِلاً ، وهذا لا يتوفَّرُ إِلاّ في «ميزانِ الله» ، الذي جعلَه الله في كتابِه الكريم وسنةِ رسولِه العظيم ﷺ. فهذا الميزانُ الإِلهيُّ يُعْطيكَ الوزنَ الحقيقيَّ الصحيحَ العادل ، بدونِ زيادةٍ أَو نقصان! وغيْرُه من الموازينِ أَرضيةٌ باطلة ، وتقومُ على الهوى والمزاج ، والظلمِ والعُدوان ، وتُعطيكَ النتائجَ الظالمةَ الخاطئة.

والمؤمنونَ لا يَزنونَ الخبيثَ والطيبَ إِلاّ في ميزانِ الله الصحيح.

١٠ ـ لا يُحسنُ فهمَ وفِقْهَ الحقائقِ القرآنيةِ المذكورةِ في هذه الآيةِ إلاّ أولو الألباب ، ولذلك خَصَّتْهم الآيةُ بالنداء ، في جملةٍ معترضة ، عندما أَمَرت المؤمنين بتقوى الله. . . والتركيزُ على الأَلبابِ الواعية ، والعقول الزاكية ، والبصائرِ النافذة ، لإِحسانِ النظرِ ، ودقَّةِ الوزن ، وصحةِ التقويم . . ومَنْ لم يَكونوا من أَولي الأَلبابِ وأَصحابِ البصائر ، فلن يُدْرِكوا معنى ودقَّةَ وصحة الحقائقِ القرآنية بشأن الخبيث والطيب.



الفصل الثالث

﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

قال الله عز وجل: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

تتحدثُ الآيةُ الكريمةُ عن عظمةِ الله، وتُخبرُ أَنَّ الأَبصارَ لا يمكنُ أَنْ تُدركَه، بينما هو يدركُها سبحانه، لأَنه لطيفٌ خبير.

وفيما يلي وقفَتُنا التحليليةُ مع جُمَلِ الآية:

١ ـ قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

هذه جملةٌ فعليةٌ خبريةٌ منفية، أخبرَ اللهُ فيها أَنَّ أَبصَارَ المخلوقين لا يُمكنُ أَنْ تدركَ الله.

﴿لا﴾: حرفُ نفيٍ. و﴿تُدرِكُ﴾: فعلٌ مضارعٌ مرفوع. و«الهاءُ»: ضميرٌ متصلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به مقدَّم، يَعودُ على لفظِ الجَلالة المذكور في الآيةِ السابقة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾. و﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: فاعلٌ مؤخَّرٌ مرفوع.

والماضي: «أَدْرَكَ». تقول: أَدركَ، يُدرك، إِدراكاً.

وإِدراكُ الشيء هو: اللحاقُ به، والوصولُ إليه، والإِحاطةُ به.

والأبصارُ جمعُ «بَصَر». وهي العُيونُ التي تُبصر وترى وتُدْركُ المرئيَّ.

والمعنى: أبصارُ المخلوقين لا يُمكنُ أَنْ تُدركَ الله، ولا أَنْ تُحيطُ به.

والدليلُ على أَنَّ الإِدراكَ هو اللحوقُ والوصولُ والإحاطةُ قولُهُ تعالى

عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] فالغرقُ أدركَ فرعونَ؛ أَيْ وصل إليه وأحاط به من كل جانب.

وقولُه تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء: ٧٨]. وقال تعالى في الإدراكِ المنفيِّ: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. أَيْ أَنَّ الشمسَ لا يُمكنُ أَنْ تَلحقَ بالقَمر، ولا أَنْ تَصِلَ إليه، لاختلافِ مَسارِ وطريقِ ومَجرى كُلٍّ منهما.

والإدراكُ قد يكونُ بالعين، وما فيها من قوةِ الإبصار؛ تقول: أَدركْتُ الشيءَ بعَيْني؛ أَيْ: رأَيتُه. وقد يكونُ بالوصولِ إليه بالجسم؛ تقول: أَدركْتُه بيدي؛ أيْ: وَصَلْتُ إليه، وأمسكْتُه بيدي.

وقد يكونُ الإدراكُ عمليةً عقليةً معنوية، وليستْ مادِّيةً محسوسة؛ تقول: أَدركْتُ المسأَلَةَ بعَقْلي؛ أَيْ: فهمْتُها واستوعبْتُها، فكأَنَّني وصلتُ إليها وحصلتُ عليها.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾:

هذه جملةٌ خبريةٌ اسميَّةٌ مثبَتَة، معطوفةٌ على الجملةِ المنفيةِ قبلَها.

﴿هُوَ﴾: ضميرٌ منفصلٌ في محلِّ رفعِ مبتدأ، يَعودُ على الله. و﴿يُدۡرِكُ﴾: فعلٌ مضارعٌ مرفوع. والفاعلُ تقديرُه «هو» يَعودُ على الله. و﴿ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾: مفعولٌ به. والجملةُ الفعليةُ ﴿يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ في محلِّ رفع خَبَر. والتقدير: اللهُ مدركُ الأَبْصار.

والمعنى: اللهُ يعلَمُ الأَبصَارَ وأَصحَابَها، ويَرَاها ويتصرَّفُ فيها، فهو قد أَحاطَ بها عِلْماً وبَصَراً وإدراكاً، ولا يخفى عليه سبحانه شيءٌ منها.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾:

هذه جملةٌ خبريةٌ تعليليَّة، تعلِّلُ الجملتَيْن قبلَها، وتَصفُ اللهَ بأَنه لطيفٌ خبير. و﴿ٱللَّطِيفُ﴾: صفةٌ مشبَّهَة، على وَزْن: «فَعيل».

واللُّطْفُ في الاشتقاقِ اللغويِّ مادَّتان:

الأُولى: لَطُفَ، يَلْطُفُ، لُطْفاً ولَطافَة، فهو لَطيف. ويكونُ اللطفُ صفةَ ذات، ويكونُ معنى «لَطُفَ»: رَقَّ وَدَقَّ وخَفي، تقول: الهواءُ لَطيفٌ فهو رَقيقٌ خَفيّ، ولذلك لا يَراهُ الإِنسانُ، كما يرى الأَشياءَ الكثيفةَ المجسَّمَة المرئية.

الثانية: لَطَفَ، يَلْطُفُ، لُطْفاً، فهو لَطيف. ويكونُ اللُّطْفُ صفةَ فِعْل، بمنى اسمِ الفاعل: «لاطِف». ويكونُ اللُّطْفُ بمعنى الرأفةِ والرفقِ والإِحسانِ والإِكرام؛ تقول: أَنت لَطَفْتَ بي: أَيْ: رفقْتَ بي وأَحسنْتَ إِليَّ(١).

وتكونُ صفةُ الفعل مبنيَّةً على صفةِ الذات.

واللَّطيفُ في اللغةِ أَنَّ الطّاءَ ـ التي هي عينُ الكلمة ـ مضمومَةٌ في لُطْفِ الذّات، و: لَطُفَ، يَلْطُفُ، من باب «عَظُمَ، يَعْظُمُ». بينما هي مفتوحَةٌ في لُطْفِ الفِعْل، و: لَطَفَ، يَلْطُفُ، من باب «نَصَرَ، يَنْصُرُ».

واللطيفُ أَنَّ المعنَيَيْن اللغويَّيْن يتحقَّقانِ في وصفِ اللهِ سبحانه بأَنه لطيف، فلُطْفُ اللهِ قد يكونُ لُطْفَ ذات، وقد يكونُ لُطْفَ فِعْلٍ.

إِذا أَردتَ وصْفَ اللهِ بأَنه لطيف، يكونُ فعلُه الماضي مَضمومَ الطّاء. تقول: لَطُفَ اللهُ في ذاتِه، فهو لَطيف.

وقد وَرَدَت الصفةُ المشبَّهَة بمعنى لُطْفِ الذّاتِ في هذه الآية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، أَيْ: لا تُدركه الأبصارُ، لأنه لَطيف. وفي قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وإِذا أَردتَ باللَّطيفِ لُطْفَ اللهِ بأَفعالِه كانَ الفعلُ الماضي بفتْحِ الطاء، وكانت الصفةُ المشبَّهَةُ «لَطيف» بمعنى اسم الفاعل «لاطِف». فمعنى قولك: اللهُ لطيفٌ في فعْلِه: اللهُ يَرأَفُ بعبادِه، ويرفقُ بهم، ويُكرمُهم ويُحسنُ إِليهم، وهو عالِمٌ بهم وبأَحوالِهم. وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، ص ٨٢٦.

﴿ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣ ـ ١٤].

وعندما توصَفُ أَفعالُ اللهِ باللُّطف، فإنَّ ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ يتعدَّى إلى ما بعدَه بحرفِ الباء، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [الشورى: ١٩].

وقد يتعدّى إلى ما بعدَه بحرفِ اللاّم، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

و﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾: صفةٌ مُشَبَّهَةٌ أُخرى على وَزْنِ «فعيل»، مشتقةٌ من الفعلِ الماضي الثلاثي «خَبُرَ». تقول: خَبُرَ الرجلُ خُبْراً؛ أَيْ: عَلِمَ بالأَشياءِ اللطيفةِ الدقيقةِ اللطيفة، فالخبيرُ هو العالِمُ بما دَقَّ وَخفِيَ ولَطُفَ، وهو بهذا يكونُ أَدَقَّ في المعنى من العالِمِ.

وكثيراً ما يقترنُ اللطيفُ بالخبيرِ في الآياتِ التي تَحَدَّثَتْ عن لُطْفِ اللهِ وخبرتِه وعلْمِه: فتكون ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ تفسيراً لـ﴿ٱللَّطِيفُ﴾، وبياناً لحُسْنِ معناها.

من لطائف الآية:

تتكوَّنُ الآيةُ الكريمةُ من ثَلاثِ جُمَل، مترابطة، مليئة باللطائفِ البيانية، ومنها:

١ ـ الجملةُ الأُولى جملةٌ فعليّة: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ﴾. والجملةُ الثانيةُ اسميَّة: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ﴾.

٢ ـ الجملةُ الأُولى منفيةٌ بحرف ﴿لَّا﴾. والجملةُ الثانيةُ مثبتة.

٣ ـ عُطفت الجملةُ الثانيةُ على الجملةِ الأُولى بحرف الواو؛ أَي: عُطفت الجملةُ الاسميةُ المثبتةُ على الجملةِ الفعليةِ المنفية؛ وهذا عَطْفٌ لطيف.

٤ ـ ذُكِرَ الفعلُ المضارعُ مرتَين، لكنَّه لم يكنْ فيهما مُكَرَّراً، إذ كانَتْ هناك فروقٌ لطيفةٌ بين ذِكْرِهِ في المرتَيْن، من هذه الفروق:

أ ـ كانَ في المرةِ الأُولى بالتاء: ﴿تُدۡرِكُهُ﴾ ، وكان في المرةِ الثانيةِ بالياءِ: ﴿يُدۡرِكُ﴾.

ب ـ أُسندَ في المرةِ الأُولى إلى فاعلٍ صريح ، هو ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ، بينما أُسندَ في المرةِ الثانيةِ إلى فاعل مستتر ، تقديرُه «هو» ، يَعودُ على الله.

ج ـ اتَّصلَ في المرة الأُولى بالضميرِ المتصل هاء الغائب: ﴿تُدۡرِكُهُ﴾. وجاءَ في المرةِ الثانية مُجَرَّداً: ﴿يُدۡرِكُ﴾.

د ـ فاعلهُ في المرة الأُولى جمع: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾. وفاعله في المرة الثانية ضميرٌ مفرد «هو».

هـ ـ جاءَ في المرةِ الأُولى جملة فعلية أَصلية ، وجاءَ في الجملةِ الثانيةِ في محلِّ رفْع خبر ، وأُسندَ فيها إلى المبتدأ: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾.

٥ ـ بينَ الجملةِ الأُولى والجملةِ الثانية «تَناوُبٌ» بيانيٌّ رائع ، ومن مظاهره:

أ ـ الفاعلُ في الأُولى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ صارَ مفعولاً به في الثانية: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾.

ب ـ المفعولُ به في الأُولى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ﴾ صارَ فاعلاً في الثانية: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ﴾.

ج ـ الفعلُ المنفيُّ في الأُولى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ صارَ مُثْبَتاً في الثانية: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ﴾.

٦ ـ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾: مذكورةٌ مرتَيْن ، في الجملتَيْن المتتابعتَيْن ، لكن بينهما فرق؛ فالكلمةُ في الجملةِ الأُولى فاعلٌ مرفوع ، بينما هي في الجملةِ الثانيةِ مفعولٌ به منصوب. وهي منفيةٌ في الأُولى ، مثبتةٌ في الثانية.

٧ ـ ضميرُ الغائبِ مذكورٌ في الجملتَيْن مرتَيْن ، ومن الفروقِ بينهما:

أ ـ كانَ في الأُولى ضميراً مُتَّصِلاً: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ﴾ ، وفي الثانية ضميراً منفصلاً: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ﴾.

ب ـ كانَ في المرةِ الأُولى في محلِّ نصب مفعولٍ به ، وكان في المرة الثانيةِ في محلِّ رفع مبتدأ .

٨ ـ بين الجملتَيْن «طِباقٌ» بلاغيٌّ لطيف ؛ حيثُ جَمَعَ فيهما بين الضِّدَّيْنِ : الإدراك المنفي والإدراك المثبت! حيثُ نَفت الجملةُ الأُولى إدراكَ الأبصارِ لله ، وأَثبتت الجملةُ الثانية إدراكَ الله للأبصار .

٩ ـ الواوُ في الآيةِ حرفُ عطف ، وقد ذُكِرَتْ مرتَين :

أ ـ في المرة الأُولى : عَطفتِ الجملةَ الثانيةَ على الجملةِ الأُولى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ .

ب ـ في المرةِ الثانية : عَطَفت الجملةَ الثالثةَ على الجملةِ الأُولى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ . . . وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ .

١٠ ـ ذُكِرَ الضميرُ المنفصلُ «هو» مرتين ، كان فيهما في محلِّ رفع مبتدأ . لكنَّ خَبَرَهُ مختلف :

أ ـ خَبرُه في الجملةِ الأولى : ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ جملةٌ فعلية .

ب ـ خَبَرُه في الجملةِ الثانية : ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ اسْمٌ صريح .

١١ ـ جاءت الجملةُ الثالثةُ تعليلاً للجملتَيْن السابقتَيْن ، فهي مرتبطةٌ بهما ارتباطاً مُحْكماً وَثيقاً .

١٢ ـ في الجملةِ الثالثةِ اسمانِ من أَسماءِ الله : ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ، كِلاهما على وزْنِ : «فعيل» . والمرادُ بهما اسْمُ الفاعل : لاطِفٌ خابِرٌ .

١٣ ـ الرائعُ أَنَّ ترتيبَ الاسمين ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ متناسقٌ مع ترتيبِ الجملتَيْن ، وكأَنَّ كُلاًّ منهما تعليلٌ لجملتِه ، وجوابٌ على سُؤالٍ يُثارُ حولَها :

أ ـ لماذا لا تُدركُ الأَبصارُ اللهَ؟ لأَنه لَطيفٌ لا يُدْرَكُ! .

ب ـ لماذا اللهُ يُدركُ الأَبصارَ؟ لأَنه خبيرٌ عالمٌ بها! .

بين الإدراك المنفي والرؤية المثبتة:

توقَّفَ المفسِّرونَ أَثناءَ تفسيرِهم لهذهِ الآيةِ أَمامَ رؤيةِ اللهِ في الدنيا وفي

الآخرة ، لأنَّها تتحدَّثُ عن نفي إدراكِ الأبصارِ لله ، ومعظمُ مَنْ تكلَّموا على هذا الموضوع لم يُحْسِنوا التوفيقَ بين النصوص ، ولا التفريقَ بين الإدراكِ والرؤية ، وسنتكلمُ عن هذا الموضوعِ بمنتهى الإيجازِ ، المتناسبِ مع موضوعِ الآية .

انقسم المسلمونَ في موضوعِ رؤيةِ اللهِ إلى ثلاثِ طوائف :

● **الطائفة الأولى** : نفوا رؤيةَ اللهِ في الدنيا وفي الآخرة ؛ ومنهم المعتزلةُ والشيعةُ الإمامية . واعتمدوا في هذا النفيِ على آيتَيْن :

الآيـةُ الأُولـى : التـي نتكلـمُ عنهـا : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ . واعتبروا الإدراكَ بمعنى الرؤية ، وسَحَبوهُ على الدنيا والآخرة . وقالوا : إذا رَأَت الأَبصارُ اللهَ فقد أَدركَتْه ، وتَنفي الآيةُ إدراكَ الأَبصارِ له .

الآية الثانية : قوله تعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

طلب موسى عليه السلام من ربِّه أَنْ يَراه ، فأَخبره بأنَّه لَنْ يَراه ، وعَلَّقَ ذلك على الجبل ، فإنْ تَحمَّلَ الجبلُ تَجَلّي الله أَمكن لموسى أَنْ يَراه ، ولكنَّ الجبلَ لم يتحمَّل التجلّي ، فلما تجلّى اللهُ للجبلِ جَعَلَه دكّاً ، وخَرَّ موسى صَعِقاً ، وعَرَفَ أَنه لا يُمكنُ أَنْ يرى الله .

الشاهدُ في الآية قولُه : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ ، وقد عَمَّمَها المعتزلةُ والشيعةُ على الدنيا والآخرةِ فنفوا الرؤية في الدنيا والآخرة .

● **الطائفة الثانية** : كانوا على النقيضِ من الطائفةِ الأُولى ؛ فقالوا : اللهُ يُمكنُ أَنْ يُرى في الدنيا وفي الآخرة ! ومنهم الصوفية .

واعْتَمَدوا في إثباتِ رؤيةِ اللهِ في الدنيا على حادثةِ المعراج ، وقالوا : رأى رسولُ الله ﷺ ربَّه ليلة المعراج ، وأخبرَ اللهُ عن ذلك في قولِه تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ٨ ـ ١٠] .

واستدلالُهم بهذه الآياتِ مَرْدود ، لأَنها لا تتحدَّثُ عن رؤيةِ الرسولِ ﷺ لربِّه ليلةَ المعراج ، وإنما تتحدَّثُ عن نزولِ جبريلَ عليه السلام بالوحي ، وتَصفُ ذلك بالتفصيل ، والضمائرُ في الآياتِ تعودُ على جبريلَ عليه السلام وليس على الله!! قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ٥ ـ ١٥].

وهذا ما فهمَه الصحابةُ من الآيات:

١ ـ روى البخاريُّ، عن عبدِ الله بنِ مسعود رضي الله عنه: أَنه قالَ في معنى قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾: رأى محمدٌ ﷺ جبريلَ ، له ستُّمئةِ جناح[1].

٢ ـ وروى مسلمٌ ، عن مسروق ، قالَ: قلتُ لعائشةَ رضي الله عنها: فأَينَ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾؟ قالت: إِنما ذلك جبريلُ عليه السلام ، كان يأْتيهِ في صورةِ الرجال ، وإِنه أَتاه في هذه المرة في صورتِه ، التي هي صورتُه ، فَسَدَّ أُفُقَ السماء[2].

٣ ـ وروى مسلمٌ ، عن أَبي هريرةَ رضي اللهُ عنه في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: رأى جبريل.

ولقد كانَ رسولُ الله ﷺ صريحاً في نفيِ رؤيتهِ لله ليلةَ المعراج.

٤ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ ، عن مسروق ، قال: قلتُ لعائشةَ رضي اللهُ عنها: يا أُمَّتاهُ! هل رأى محمدٌ ﷺ ربَّه؟.

فقالَتْ: لقد قفَّ شَعْري مما قُلْت! أَينَ أَنت من ثلاث ، مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فقد كذب: مَنْ حَدَّثَك أَنَّ محمداً ﷺ رأى ربَّه فقد كَذَب ، ثم قرأَتْ قولَه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]،

---

(١) البخاري ، برقم (٤٨٥٧).

(٢) مسلم ، برقم (١٧٧).

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]. .(١).

٥ ـ وروى مسلمٌ ، عن مسروق ، قال: كنتُ متَّكِئاً عند عائشةَ رضي اللهُ عنها ، فقالت: يا أَبا عائشة! ثلاثٌ مَنْ تكلَّمَ بواحدةٍ منهنَّ فقد أَعْظَمَ على اللهِ الفِرْيَة. قلتُ: ما هُنَّ؟ قالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ محمداً ﷺ رأى ربَّه فقد أَعظَمَ على اللهِ الفرية! قال: وكنتُ متكئاً فجلسْتُ ، فقلْتُ: يا أُمَّ المؤمنين! أَنْظِريني ولا تَعْجليني ، أَلم يقل اللهُ عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ، و﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]؟.

فقالتْ: أَنا أَوَّلُ هذه الأُمَّة سأَلَ عن ذلك رسولَ الله ﷺ ، فقال: «**إنما هو جبريل ، لم أَرَهُ على صورتِه التي خُلِقَ عليها غيرَ هاتَيْن المرتَيْن ، رأيته مُنْهَبِطاً من السماء ، سادّاً عِظَمُ خَلْقِهِ ما بين السماءِ والأرض**».

ثم قالَتْ: أَو لم تسمعْ أَنَّ اللهَ يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؟! أو لم تسمعْ أَنَّ اللهَ يقول: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١] ؟!(٢).

٦ ـ وروى مسلمٌ ، عن عبد الله بن شقيق ، قال: قلْتُ لأَبي ذَرٍّ رضي الله عنه: لو رأيتُ رسولَ الله ﷺ لسأَلْتُه ، فقال: عن أَيِّ شيءٍ كنت تَسْأَلُه؟ قلتُ: كنتُ أَسْأَلُه: هل رأيتَ ربَّك؟ قال أَبو ذَرّ: أَنا سأَلْتُه ، فقال ﷺ: «**رأَيْتُ نوراً**».

وقالَ في روايةٍ أُخرى: «**نورٌ أَنّى أَراهُ**»(٣).

تدلُّ هذه الأَحاديثُ على أَنَّ الرسولَ ﷺ لم يَـرَ رَبَّه ليلةَ المعراج.

● **الطائفةُ الثالثة**: قالوا: اللهُ لا يُمكنُ أَنْ يُرى في الدنيا ، أَمّا في الآخرةِ

---

(١) البخاري ، برقم (٤٨٥٥) ؛ ومسلم ، برقم (١٧٧).
(٢) مسلم ، برقم (١٧٧).
(٣) مسلم ، برقم (١٧٨).

فإِنَّ المؤمنينَ يرونَه في الجنةَ، وهم أَهْلُ السنةِ والجماعةِ من السلفِ والخلف، من الصحابةِ والتابعين وتابعيهم.

قالوا: إِنَّ اللهَ لا يُمكنْ أَنْ يُرى في الدنيا، لعدمِ وجود آيةٍ صريحةٍ تُثبتُ ذلك، وعدمِ وجودِ حديثٍ صحيح صريحٍ يُقَرِّرُ ذلكَ.

بل إِنَّ الآياتِ تَنفي ذَلك، ومن أشهرها آيتان:

الأُولى: قولُه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

الثانية: قولُه تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أَمّا في الآخرةِ فقد أَخبرت الآياتُ الصريحةُ والأحاديثُ الصحيحةُ أَنَّ المؤمنين يرونَ ربَّهم في الجَنَّة، منها:

١ ـ قولُه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، اكتسبتْ وجوهُ المؤمنين النضرةَ والإشراقَ والبَهاءَ من نظرِها إلى ربِّها، ورؤيتها له.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

أخبرَ اللهُ أَنهُ يُكرِم المؤمنين المحْسنين، ويؤتيهم الحُسْنى، ويَزيدُهم عليها. والمرادُ بالحُسْنى: الجنة، وما فيها من نعيم، والمرادُ بالزيادةِ: النظرُ إلى اللهِ عز وجل.

ولقد فَسَّرَ رسولُ الله ﷺ الزيادةَ بالرؤية.

روى مسلمٌ، عن صهيب الروميِّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «**إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، يقولُ الله تبارك وتعالى: تُريدونَ شيئاً أَزيدُكم؟ فيقولون: أَلَمْ تُبيِّضْ وُجوهَنا؟ أَلم تُدْخِلْنا الجنة، وتُنَجِّنا من النّار؟ فيُكشفُ الحجابُ، فما أُعطوا شيئاً أَحَبَّ إِليهم من النظرِ إلى ربِّهم**». ثم تلا قوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][1].

٣ ـ روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ ناساً في زمنِ

---

(١) مسلم، برقم (١٨١).

رسولِ اللهِ ﷺ ، قالوا: يا رسولَ الله! هل نرى رَبَّنا يومَ القيامة؟ فقالَ ﷺ: «**نَعَمْ . . هل تُضارونَ في رؤيةِ الشمس بالظهيرةِ صَحْواً ليس معها سَحاب؟ وهل تُضارونَ في رؤيةِ القمر ليلةَ البدْرِ صَحْواً ليس فيها سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «**فإنكم ترونَه كذلك**»(١).

٤ ـ روى البخاري ومسلم ، عن أَبي سعيد الخدريِّ رضي اللهُ عنه ، عن النبيِّ ﷺ ، قال: «**جَنّتانِ من فِضَّة ، آنيتُهما وما فيهما ، وجَنَّتان من ذَهَب آنيتُهما وما فيهما ، وما بينَ القومِ وبينَ أَنْ يَنظروا إلى ربِّهم إلاَّ رداءُ الكبرياءِ على وجْهِه في جَنَّةِ عَدْن**»(٢).

٥ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ ، عن جريرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنه ، قال: كُنّا جُلوساً عندَ رسول الله ﷺ ، إذ نَظَرَ إلى القمر ليلةَ البدر ، فقالَ: «**إنكم سترونَ ربَّكُم ، كما ترونَ هذا القمر ، لا تَضامُّون في رؤيتِه ، فإن استطعْتُم أَنْ لا تُغْلَبوا على صَلاةٍ قبلَ طُلوعِ الشمس وقبلَ غُروبها فافعَلوا**».

يَعْني الفجرَ والعصرَ . . ثم قرأَ جريرٌ قولَه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩](٣).

والراجحُ هو ما ذَهَبَ إليه أَهْلُ السنة والجماعة من السلف والخَلَف ، من أَنَّ اللهَ لا يُمكنُ أَنْ يُرى في الدنيا ، ولكنَّ المؤمنينَ يرونَه في الجنةِ فيُسَرّون ويَفْرَحون ، وتكونُ وجوهُهم ناضرةً مشرقَةً . . ورجَّحْنا هذا القول اعتماداً على النصوصِ التي تنفي الرؤية في الدنيا ، وتُثبتُها في الجنة.

لا تدركه الأبصار حتى في الجنة:

بقيَتْ في هذا الموضوع مسألة ، وهي: هل أَبصارُ المؤمنينَ تُدْرِكُ اللهَ في الجَنَّة ، عندما تراهُ وتنظرُ إليه؟.

الجوابُ بالنفي ، فأَبصارُ المؤمنين تَرى اللهَ في الجنة ، لكنها لا تُدركُه. وهذا يدْعونا إلى أَنْ نُفرِّقَ بين الإدراكِ والرؤية.

---

(١) البخاري ، برقم (٨٠٦) ؛ ومسلم ، برقم (١٨٣).
(٢) البخاري ، برقم (٤٨٧٨) ؛ ومسلم ، برقم (١٨٠).
(٣) البخاري ، برقم (٥٥٤) ؛ ومسلم ، برقم (٦٣٣).

الرؤيةُ تكونُ بإبصارِ ومشاهدةِ الشيء المرْئيِّ المُشاهَد ، وقد يَرى الناظرُ الشيءَ البعيدَ ، لكنَّه لا يدركُه . . فالمؤمنونَ يرونَ ربَّهم في الجنةِ ، لكنَّ أَبصارَهم لا تُدركُه سبحانه .

إنَّ الإدراكَ ـ كما قَرَّرْنا ـ هو اللّحاقُ والإحاطةُ والوصول . وليس كلُّ شيءٍ تَراه تُحيط به معرفةً وعِلْماً ، وتعرف تفاصيله وجزئيّاتِه ، فكثيرٌ من الأَشياءِ تَراها ولكنكَ لا تُدركُها ، فأَنتَ ترى الشمسَ والقمرَ والكواكبَ والسماء ، لكنكَ لا تُدركُها ، ولا تعرف تفاصيلَ أَجزائِها ، ولا تُحيطُ علماً بها .

والمؤمنونَ يرونَ ربَّهم في الجنة ، لكنَّهم لا يُدرِكونَه ، ولا يُحيطونَ به علماً . . ولذلك كانَ الرسولُ ﷺ حَكيماً عندما شَبَّهَ رؤيةَ اللهِ برؤيةِ الشمسِ والقمر ، وَوَجْهُ الشَّبَهِ بينهما هو وُضوح الرؤيةِ وسهولَتُها ، وعدمُ المشقَّةِ فيها ، كما وَرَدَ في الحديث : «**لا تُضامُّون في رؤيته**» . ووجْهُ الشبهِ أيضاً هو عَدَمُ إِدراكِ المرئيّ ، وعدمُ الإحاطةِ به .

ومعنى هذا أَنَّ هذه الآية مستمرةٌ في معناها ، في الدنيا وفي الآخرة : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ . وأبصارُ المؤمنين التي ترى اللهَ في الجنة ، ستَرَاهُ من بَعيد ، دون أَنْ تُدركَه أَو تُحيطَ به ! ! .



الفصل الرابع

﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾

قال الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١].

هاتانِ الآيتانِ في سياقِ آياتٍ من سورةِ التوبة، تتحدَّثُ عن الجهادِ، وتحثُّ المؤمنينَ عليه، وتَنهى عن التثاقلِ عنه، وتَمدحُ المسارعين إلى الجهاد، وتَعِدُهم بجزيلِ الأجرِ عند الله.

يُخبرُ اللهُ أنه لا يُمكنُ لأَهْلِ المدينةِ ـ على ساكِنها الصلاةُ والسلام ـ من المهاجرينَ والأنصار، ولا للأعرابِ المقيمينَ حولَ المدينة، المؤمنين الصادقين، المتحمِّسينَ للجهاد، أَنْ يَتخلَّفوا عن رسولِ الله ﷺ، وأَنْ يتركوه يَخرجُ وحْدَه مُجاهداً في سبيلِ الله، وأَنْ يَرْغَبوا بأَنفسِهم عن نفسِه، ويُؤْثِروا الراحةَ والسَّلامةَ والأمان... إنَّهم لن يفْعلوا ذلك، لأَنَّ قوةَ إيمانِهم والتزامِهم تمنَعُهم من هذه المخالفة.

وإذا كانوا لا يَرضونَ بالتخلُّفِ وإيثارِ السلامة، فإنهم سَيَتسابَقونَ للخروجِ إلى الجهادِ مع رسولِ الله ﷺ، ويتطلَّعونَ إلى نَيْلِ الأَجْرِ الجزيلِ من الله.

وقد وَعَدَهم اللهُ أَنْ يَأْجُرَهم على كُلِّ ما يفعلونَه في حركتِهم الجهاديةِ

الصادقة ، سيأْجُرُهم سبحانه على كُلِّ ما يُصيبُهم من ظَمَأ وعَطَش ، ومن نَصَبٍ وتَعَب ، ومن مَخْمَصَةٍ وجوع ، وسيأْجُرُهم على كل موطئ يَطَؤونه يغيظ الكفار ، وعلى كلِّ ما ينالونَه من العَدُوّ ، كما أَنه سبحانه سيأْجُرُهم على كُلِّ نَفَقَةٍ يُنفقونَها على الجهاد ، سواءٌ كانَتْ صغيرةً أَو كبيرة ، وعلى كلِّ خطوةٍ يَخْطونَها أَثناءَ الخروجِ للجهاد ، وعلى كلِّ وادٍ يقطعونَه.

وبعدَ معرفةِ المعنى الإِجمالي لهاتَيْن الآيتَيْن ، نقفُ وقفاتِنا التحليلية مع جُمَلِهما :

١ ـ قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾:

نفى اللهُ عن أَهْلِ المدينة ومَنْ حولَهم من الأَعراب التخلُّفَ عن رسوله ﷺ ، عندما يَخرجُ للجهاد ، وجاءَ هذا النفيُ بأبلغ صيغة ، ليدلَّ على أَنْ مِن غيرِ المقبولِ منهم التخلُّفَ؛ تقول: ما كانَ لك أَنْ تَفعلَ ذلك؛ أَيْ: لا يُقْبَلُ منك ولا يُتَوَقَّعُ منك أَنْ تَفعلَ ذلك.

وأَهْلُ المدينةِ هم الأَنصارُ من الأَوسِ والخزرج ، والمهاجرونَ الذينَ أَتَوْها من مكة وغيرها ، وهم السابقونَ الأَوّلونَ الذين نَصَروا الإِسلامَ ، والقاعدةُ الصلبةُ التي رَبّاها النبيُّ ﷺ بيدَيْه ، وأَنشأَها على عَيْنَيْه. إِنَّ هؤلاء المهاجرينَ والأَنصارَ هم أَهْلُ المدينةِ الحقيقيّون ، لأَنهم مؤمنونَ مُجاهِدون ، وهذا مَعناهُ أَنَّ المؤمنينَ هم الجَديرونَ بأَنْ يَكونوا أَهْلَ البلاد ، أَما الكفارُ فهم غُرَباءُ طارئونَ ، ليسوا أَهْلاً لبَلَد ، ولا مالكين لأَرض! قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

والأعرابُ الذينَ حولَ المدينة هم القبائلُ العربيةُ المقيمةُ حولَ المدينة ، الذين كانوا من السابقينَ إِلى الإِسلام ونصرتِه ، مثلُ: غفار ، وأَشجع ، ومُزَيْنَة.

أَثنى اللهُ على هَذيْن الفريقَيْن من المؤمنين المجاهدين: أَهل المدينة ، ومن حولهم من الأعراب؛ بأنهم سالمون من الفعلِ القبيح ، وهو التخلُّفُ

عن رسول الله ﷺ ، في حياتِه وحركتِه ، وسَيْرِه وتنقُّلِه ، وخروجه ودعوتِه ، وجهادِه وغزوِه.

يُقال: تخَلَّفَ فلانٌ عن الخارجِ: أَيْ: بقيَ قاعِداً في مكانِه بعدَ خروجِ الشخصِ الذي كانَ مَعَه. والتخلُّفُ يَرِدُ في سياقِ الذّمّ ، لأنه قعودٌ في المكان ، وعدمُ خروجٍ للجهادِ في سبيلِ الله.

إنهما فعْلانَ متضادّان عندَ التكليف بالجهاد: الفعلُ الأَوَّلُ: هو تلبيةُ الدعوة ، والاستجابةُ للنَّفير ، والخروجُ للجهاد.. والفعلُ الثاني: نقيضُه؛ وهو القعودُ والتخلُّفُ وإيثارُ السلامةِ والراحة. وإذا كانَ الفعلُ الثاني المذمومُ يَصْدُرُ عن ضِعافِ الإيمانِ ومشلولي الهِمَمِ والعزائم ، فإِنَّ الفِعلَ الأَوَّلَ العظيمَ يصدرُ عن أَصحاب الهِمَم والعزائم من المجاهدينَ الشجعان ، وفي مقدمَتِهم: أَهْلُ المدينة ، ومَنْ حولهم من الأعراب.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾:

بعدَ أنْ نفى عن هؤلاء المجاهدين سوء التخلف عن رسولِ الله ﷺ ، الخارجِ للجهاد ، نفى عنهم خُلُقاً أَكْثَرَ سوءاً وقُبْحاً وذَمّاً ، وهو أَنْ يَخْتاروا السلامَةَ والراحةَ ، ويتركوا الرسولَ ﷺ عُرْضَةً للهلاك؛ فقال: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

وهذه الجملةُ معطوفةٌ على الجملةِ السابقة ، والتقدير: ما كانَ من خُلُقِ أَهْلِ المدينة ومَنْ حولَهم من الأَعراب التخلُّفُ عن رسول الله ﷺ الخارجِ للجهاد ، ولا الرغبةُ بأنفسِهم عن نفسه!!.

وأَعادَ حرفَ النفيِ «لا» مع الجملةِ الثانية ، ليؤَكِّدَ على نفي اتصافِهم بهذا الخلقِ المذموم ، فلم يَعطفْ فعلَ ﴿يَرْغَبُوا۟﴾ على فعلِ ﴿يَتَخَلَّفُوا۟﴾. إنما عَطَفَ «لا» النافية على «لا» النافية: ما كانَ لهم التخلُّفُ ولا الرغبةُ بأنفسهم ، وذلك ليعطي الجملةَ الثانيةَ نفياً خاصّاً مستقلاًّ ، وللإشارةِ إلى أَنَّ الفعلَ الثاني لا يمكنُ أَنْ يَصدُرَ منهم!.

واللافتُ للنظرِ أَنْ فعْلَ ﴿يَرْغَبُوا۟﴾ تعدّى إلى اسمَيْنِ بعدَه ، وكانت تعديتُه

إلى كلِّ اسمٍ منهما بحرفِ جَرّ ، غيرِ الحرفِ الذي تَعَدّى به إلى الآخر: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾.

فما الفرقُ بين ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ و ﴿عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾؟ ولماذا أَدخلَ الباءَ على ﴿أنفسهم﴾ ، وأدخلَ «عن» على ﴿نَّفْسِهِۦۚ﴾! وما الفرقُ بين الباءِ و «عَن» هنا؟ وما الفرقُ بينَ قولك: رغبتُ فيه ، وقولك: رغبتُ عنه؟.

الباءُ في ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ للملابَسَة ، وهي بمعنى التلبُّسِ والمصاحبة ، وعدمِ التركِ والانفكاك.

و﴿عَن﴾ في ﴿عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ للتجاوزِ والتَّرْك؛ يُقال: رغبَ عنه؛ أَي: تَركه وتَجاوزَ عنه. وفَرْقٌ بين قولك: رغبتُ في الشيء ، وقولك: رغبتُ عن الشيء.

معنى قولك: رغبتُ في الشيء: حرصتُ عليه ، وأَحببتُ أَخْذَه والحصولَ عليه. . أَمَّا معنى قولك: رغبتُ عن الشيء ، فهو: تَركتُه ولم أُرِدْه ، وزهدْتُ فيه. فصارت الجملتان متضادَّتَيْن: رغبتُ فيه: أَردتُه. ورغبتُ عنه: تركتُه. فالثانيةُ نَقيضُ الأُولى ، مع أَنَّ الفعلَ في الجملتَيْن واحد! وهذا يدلُّ على أَهميةِ حُروفِ الجَرِّ ومعانيها.

لا يُمكنُ للمؤمنين المجاهدين أَنْ يَرْغَبوا بأَنفسِهم عن نفسِ رسولِ الله ﷺ ، ولا يُمكنُ أَن تُسيطرَ عليهم محبتُهم لأنفسهم ، وتتمكنَ منهم ، بحيثُ تتلبَّسُ بهم ولا تفارقُهم ، في الوقتِ الذي يتركونَ فيه حبيبَهم رسولَ الله ﷺ عُرْضَةً للخطرِ والهلاك.

المؤمنون المجاهدون يُحبونَ رسولَ الله ﷺ ، أَكثرَ من محبتهم لأَنفسِهم ، ويُحِبّونَ ما أَحبَّه رسولُ الله ﷺ ، ويَختارونَ ما اخْتاره ، ويَتركونَ هواهم إذا تعارضَ مع اختيارِه ﷺ ، ويُؤْثِرونَ رسولَ الله ﷺ على أنفسِهم.

يُمثلُ هذه الحقيقةَ عمرُ بنُ الخطاب رضيِ الله عنه ، عندما قالَ لرسولِ الله ﷺ: واللهِ يا رسولَ الله! لأَنْتَ أَحبُّ إِلَيَّ من كُلِّ شيء ، إلاّ من نفسي! فقال له ﷺ: «**لن تُؤمنَ يا عمرُ حتَّى أكونَ أَحَبَّ إليك مِن نفسِك!**» ففكَّرَ عمرُ رضيَ الله

عنه لَحظة ، ثم قال: واللهِ لأنتَ يا رسولَ اللهِ! أَحَبُّ إليَّ حتَّى من نفسي! قال: «**الآنَ ياعمرُ!**» أي: الآنَ حَقَّقْتَ كمالَ إيمانِك!.

ولم يَكنْ عمرُ رضي الله عنه وَحْدَه هكذا ، وإنما كانَ الصحابةُ كُلُّهم هكذا ؛ فمن كانَتْ محبتُهم لرسولِ الله ﷺ على هذا المستوى ، لا يُمكنُ أَنْ يَرغبوا بأَنفسِهم عن نفسِه ﷺ.

اختارَتْ نفسُ الرسولِ العظيمةُ ﷺ الجهادَ ، فاخْتاروا ما اخْتاره ، وتَحَمَّلوا ما تَحَمَّلَه ، من الشدائدِ والمشقاتِ ، وتقَرَّبوا بذلك إلى الله.

والأَصْلُ في كُلِّ مسلمٍ صادقٍ أَنْ يكونَ هكذا ، مهما كان زمانُه أو مكانُه أَو علمُه ، فيؤثِرُ الرسولَ ﷺ على نفسِه ، ولا يرغبُ بنفسِه عن نفسِ حبيبِه ﷺ!.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

هذه الجملةُ تعليلٌ لما قبلَها ، فعندما يَعجبُ القارئ لموقفِ أهلِ المدينةِ ومَنْ حولَهم من الأعرابِ في الخروجِ مُجاهدينَ مع رسول الله ﷺ ، وعَدمِ تَخلُّفِهم عنه وعدمِ رغبتِهم بأَنفسِهم عن نفسِه ، قد يَتَساءل: لماذا يَنفرُ هؤلاء الصادقونَ للجهادِ؟ ولماذا يتحمَّلونَ مشاقَّ الجهادِ؟ وماذا لا يُؤْثِرونَ السَّلامَةَ؟.

تُجيبُه هذه الجملةُ وما بَعْدَها على سؤالِه ، وتُعلِّلُ له موقفَهم العظيم ، وتدلُّهُ على الباعثِ الذي يبعَثُهم ويُحركُهم: إنه حرصُهم على إرضاءِ الله ، وفي الحصولِ على جَزيلِ الأَجْرِ منه.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسْمُ إشارة. والمشارُ إليه هو: عَدَمُ تَخلُّفِهم عن رسولِ الله ﷺ ، وعدمُ رغبَتِهم بأنفسِهم عن نفسِه. والتقديرُ: ذلكَ الخروجُ وعدمُ التخلُّفِ بسببِ كذا وكذا.

والباءُ في ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: باءُ السببية ؛ أَيْ: بسببِ أَنهم لا يُصيبهُم.

واللطيفُ في التعبيرِ القرآنيِّ هنا وُرودُ الباءِ التي هي حرفُ جرٍّ في جملتَيْن متجاورتَيْن: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ . . .﴾: الجملةُ الأُولى

منفيَّة ، تَنفي عنهم ذلك الفعل ، والجملةُ الثانيةُ مُثْبَتة ، تُثبتُ لهم هذا الفعلَ الطيِّبَ . والباءُ في الجملةِ الأُولى باءُ الملابَسَةِ كما قُلْنا ، بينما الباءُ في الجملة الثانيةِ باءُ السببية .

ومعنى ﴿ يُصِيبُهُمْ ﴾ : يَصلُ إِليهم ، وَينالُهم ، ويَقعُ بهم .

و«الظَّمأُ» : العطشُ الذي يُصيبُهم بسببِ مَسيرهم وحركتِهم وسَفَرِهم ، وقطعِهم المسافاتِ وصعودِهم المرتفعات .

و﴿ ظَمَأٌ ﴾ : فاعلٌ مُؤَخَّرٌ مرفوع ، والضميرُ المتصلُ في ﴿ يُصِيبُهُمْ ﴾ يَعودُ على الخارجينَ للجهاد ، في مَحَلِّ نصب مفعول به مُقَدَّم .

وحكمةُ تقديمِ المفعولِ به أَنه هو الذي تَأَثَّرَ بالإِصابة ؛ أَيْ : أَنَّ الظمأَ أَثَّرَ في أَبدانِهم ، فتَعِبوا من العَطَش وتَأَلَّموا . . ولذلك أُلصقَ المفعولُ به بالفعل ، لأنه هو الذي تَضَرَّرَ من الفعل ، وأُخِّرَ الفاعلُ لهذا الاعتبار ! .

و﴿ ظَمَأٌ ﴾ : نكِرَة ، والتنكيرُ والتنوينُ يدلُّ على العُمومِ والشمول ، وذلك ليشملَ أَقَلَّ دَرجاتِ الظَّمأِ وأَكْثَرَها ، فأَيُّ نسبةِ ظَمَإٍ أَصابَتْهم يُؤْجَرونَ عليها ، حتى لو كانَتْ بنسبةِ واحدٍ بالمئة . أَيْ : لو كانتْ مجردَ جَفافِ شَفَتَيْن ، فإِنَّ اللهَ يأْجُرُهم عليها . وكلما زادتْ حِدَّةُ الظمأ زادَ أَجْرُهم عندَ الله ، وكلَّما طَالَتْ مُدَّةُ العطشِ زادَ أَجْرُهم عِندَ اللهِ . . ومعلومٌ أَنَّ الإِنسانَ قد يَعطشُ إذا سارَ عشراتِ الأَمتارِ ، فما بالك بمنْ يَقطعُ السهولَ والجبالَ مجاهداً في سبيل الله ؟ ! .

و﴿ نَصَبٌ ﴾ : معطوفٌ على ﴿ ظَمَأٌ ﴾ ، مرفوعٌ مِثْلَه . والنَّصَبُ هو التَّعَبُ ، الذي يُصيبُ الإِنسانَ ، بسببِ جُهْدِه وحركتِه . وتَنوينُه وتَنكيرُه للعُمومِ والشمولِ أَيضاً ، ليشملَ أَقَلَّ درجاتِ التعب وأَكْثَرَها ، وأَطولَ مُدَّتِه وأَقْصَرَها .

و﴿ مَخْمَصَةٌ ﴾ : معطوفٌ على ﴿ ظَمَأٌ ﴾ ، مرفوعٌ مِثلُه . والمخمَصةُ هي الجوعُ والحاجةُ إِلى الطعام . وعندما يتحرَّكُ الإِنسانُ ويتنقَّلُ ويَقطعُ المسافاتِ الطويلةَ يستهلكُ ما في معدتِه من طعام ، ويَحرقُ سُعُراتٍ حراريةً أَكثر ، وتزدادُ حاجتُه إِلى الطعام .

وتَنوينُ ﴿مَخۡمَصَةٞ﴾ لإِفادةِ العُموم والشمولِ ، مثلُ تنكيرِ ما قَبْلَها .

ولا يُؤجَرُ الإنسانُ على أَيِّ ظَمَأ أَوْ نَصَبٍ أو مخمصة ، إنما يُؤجَرُ على ما أصابَهُ من ذلك في سبيلِ الله ، ولذلك قَيَّدَت الآيةُ الإِصاباتِ الثلاثةَ بشبهِ الجملةِ بَعْدَها : ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

والسَّبيلُ هي الطريق ، و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ : هي الطريقُ التي يسلُكُها المؤمنُ يَبْتَغي بذلك وَجْهَ الله ، ويكونُ مُخْلِصاً لله ، ويَصلُ في نهايتِها إلى رضوانِ اللهِ وجَنَّتِه .

وأَعظمُ سبيلِ لله ، وأَفضلُ طَريقٍ توصِلُ إلى رضوانِ اللهِ هي : الجهادُ الصادقُ المبرورُ البصير ، وتَحَمُّلُ مشقّاتِه وتَبعاتِه وتكاليفِه .

وهذا معناهُ أَنَّ المجاهدَ يَحتسبُ عندَ الله كُلَّ ما يُصيبُه عند خروجِه للجهاد ، من عَطَشٍ وجوعٍ وتَعَب ، ويَجعلُ هذه الآلامَ عبادَةً وقُربى ، يَتقربُ بها إلى الله . وهذه الآلامُ البدنيةُ لا تُقْعِدُه ولا تُعيقُه ، في الوقتِ الذي تُقْعِدُ كثيرينَ من ضُعفاءِ الهمم والعزائم ، لأَنهم لا يَنظرونَ إلى ما يَنظُرُ إليه المجاهد ، ولا يَرجونَ ما يَرجوهُ هو من صَبْرٍ على الآلامِ والتضحيات ! ! .

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني ذِكْرُ ﴿لَا﴾ النافيةِ ثلاثَ مَرّاتٍ في الجملةِ : ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ . وهذا مَقْصودٌ وليسَ مصادَفَة ، إنَّ الجملةَ لم تَعطِف النَّصَبَ والمخمصةَ على الظَّمأ ، لأَنها لم تَقُلْ : لا يُصيبُهم ظمأٌ ونَصَبٌ ومَخْمَصَة ، فلم تَعْطِف اسماً على اسم ، ولم تَجْعَل النَّصَبَ والمخمصةَ مُشتركَيْنِ في الإصابة! لأنها لو فَصَلَتْ ذلك لَقَسَّمَت الإِصابة إلى ثلاثةِ أَقْسام ، وأَعطتْ كُلَّ قسمٍ جُزْءاً منها : إصابةُ ظمأ ونَصَبٍ ومَخْمَصَة .

إِنَّ العطفَ في الحقيقةِ عَطْفُ جملةٍ فعليَّةٍ على جملةٍ فعليَّة ، وتكرارُ ﴿لَا﴾ النافيةِ يُقررُ هذا ، ولا بُدَّ أَنْ نُقَدِّرَ الفعلَ في الجملةِ الثانيةِ والثالثة . والتَقْديرُ هكذا : ذلك بأَنه لا يُصيبُهم ظَمَأٌ ، ولا يُصيبُهم نَصَبٌ ، ولا تُصيبْهم مَخْمَصَةٌ ، في سبيلِ الله ، إلاّ كُتِبَ لهم . وبذلك أعطت الجملةُ كُلَّ مَشَقَّةٍ من المَشَّقاتِ الثّلاثِ إِصابَةً خاصة ، ولم تُشركْها كُلَّها في إِصابةٍ واحدةٍ ، وذلك

للإشارةِ إلى شِدَّةِ أَثَرِ كُلِّ مشقَّةٍ عليهم ، ومع ذلك لم تُقْعِدْهم! وهذا من بابِ الثناءِ عليهم ، والإشادةِ بِهممِهم.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾:

هذه الجملةُ معطوفةٌ على الجملةِ الفعليةِ السابقة: ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ ، فهؤلاءِ المجاهدونَ مأْجورونَ على كُلِّ مشقَّةٍ تُصيبُهم أَثناءَ جهادِهم ، كما أَنهم مأْجورونَ على كُلِّ فعلٍ يفعلونَه يُغيظُ الكفار.

والوَطْءُ هو: الدَّوْسُ بالأَرجُل. يُقال: وَطِءَ الرجلُ الأَرضَ. أَيْ: داسَها برجلَيْه. و﴿ مَوْطِئًا ﴾: مفعولٌ به ، لأَنه اسمُ مكان. والتقديرُ: لا يَطؤونَ مَكاناً يَغيظُ الكفارَ. ويمكنُ أَنْ يكونَ ﴿ مَوْطِئًا ﴾ مَفْعولاً مطلقاً ، على أَنه مصدرٌ ميميٌّ ، ولعلَّ هذا هو الأَرجح ، لأَنه موصوفٌ بالجملةِ الفعليَّةِ بَعْدَه: ﴿ يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾. والتقدير: لا يَطَؤونَ وَطْئاً مُغيظاً الكفارَ.

و﴿ يَغِيظُ ﴾: فعلٌ مضارع ، ماضيه رباعيّ: أَغاظَ. وهو بمعنى «يُغضبُ» ؛ أَيْ: وَطْءُ المجاهدينَ بلادَ الكفارِ يَغيظُهم ويُغضِبُهم.

وَوَطْءُ المجاهدين بلادَ الكفارِ لا يكونُ بالدَّوْسِ بالأَقْدامِ فقط ، إِنما يكونُ بالتجوُّلِ والتحركِ فيها ، والجَوْسِ خلالَها ، والعملِ على احتلالِها والانتشارِ فيها ، بمختلفِ وسائلِ وأَساليبِ الوطءِ والدَّوْس ، مثلُ: أَرجلِ المجاهدين ، وحوافرِ خيولِهم ، وأَخفافِ إِبِلِهم ، وعجلاتِ سياراتِهم ودباباتِهم ، وقذائفِ صواريخهم ، وقصفِ طَائراتِهم.. وغيرِ ذلك.

وهذا الوطءُ يَعْني احتلالَ المجاهدينَ لبلادِ الكفار ، كُلِّها أَو بعضِها ، وسيطرتَهم على الجزءِ الذي وَطئوه.

وهذا يَغيظُ الكفارَ ويُغضبُهم ، لأَنَّ فيه إِذلالَهم وكَسْرَ شوكتِهم وهزيمتَهم. ومعلومٌ أَنَّ انتشارَ الجيشِ في بلادِ العدوِّ يَنتجُ عنه إِذلالُ العَدُوِّ وإِغاظتُه وإِغضابُه!!.

ووصْفُ الوطءِ بأَنه مُغيظٌ للكفارِ يُشيرُ إِلى أَنه على المجاهدين أَنْ يَحرِصوا على إِغاظةِ الكفار ، ومَلءِ قلوبِهم بالحنق والغضب ، وحَربِهم في نفوسِهم

ومعنوياتِهم وأَعصابِهم ، واستفزازِهم وتحدّيهم ، ليستهلكَ الكفارُ كثيراً من طاقتِهم في الغَيظِ والغضبِ والتوتُّر!!.

كما أَنهُ يشيرُ إلى أَهمية الحربِ النفسية ، التي قد تكونُ بمستوى الحربِ الماديةِ العسكرية ، إنْ لم تَزِدْ عليها أَهمية ، لأَنَّ كُلَّ طرفٍ يكون حَريصاً على تحطيمِ معنوياتِ الطرفِ الآخر ، وقتْلِ عزائمه ، واستمرارِ توتُّرِ أَعصابِه ومشاعِرِه!!.

وعلى المجاهدينَ أَنْ يقوموا بكلِّ عَمَلٍ يُؤَدِّي إلى إغاظةِ الكفار ، واستمرارِ إغاظتِهم! لا أَنْ يَحرصوا على إرضائِهم ، وهدوءِ أَعصابِهم.. إنَّ استمرارَ إغضابِ وإغاظةِ الكفارِ يجبُ أَنْ يَبقى هَدفاً للمجاهدين. وإنَّ الاجتهادَ في اختراعِ كُلِّ وسائلِ إغاظتِهم هدفٌ للمجاهدين!.

وبَعدما يُغيظونَهم ويَستفزونَهم يُخاطبونَهم بما أَمرهم اللهُ أَنْ يُخاطبوهم به ، والذي وردَ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾:

هذه الجملةُ معطوفةٌ على الجملةِ السابقة ، تُخبرُ عن فعلٍ جَديدٍ يَصدرُ عن المجاهدينَ ضِدَّ الأَعداء ، وهو نيلُهم منهم ، وإِصابتُهم بالمصائبِ والرَّزايا والخسائر.

أَخبرت الجملةُ السابقةُ عن وَطْءِ المجاهدين لبلادِ الكافرين ، الذي يَنتجُ عنهِ إغاظَتُهم ، وأَخبرتْ هذه الجملةُ عن نَيلِ المجاهدينَ من الأَعداء. والنيلُ من الأَعداءِ أَعمُّ من وطءِ واحتلالِ بلادِهم ، فالعطفُ من باب عطفِ العامِّ على الخاص ، فبعدَ أَنْ وَعَدت الجملةُ السابقةُ المجاهدين الأَجرَ على كُلِّ وطءٍ يَطَؤونَ الكفارَ به ، وَعَدَتْهم هذه الجملةُ على كُلِّ نَيْلٍ ينالونَ منهم به!.

و﴿نَّيْلًا﴾: مفعولٌ مطلق ، فهو مصدرُ فعْلِ ﴿يَنَالُونَ﴾. تَقول: نَالَ ، يَنالُ ، نَيْلاً. وهو بمعنى الإِصابة. تقول: نالَ الرجلُ من خَصْمِه ، أَيْ: أَصابَه. وإِذا تعدّى إِلى ما بعده بحرفِ ﴿مِنْ﴾ كما في الآية: ﴿يَنَالُونَ مِنْ

عَدُوٍّ﴾ دَلَّ على إِصابةِ الخصمِ بالمصيبةِ والأَذى ، وإيصالِ ما يكرهُه ويَسوءُه إِليه .

وتنوينُ ﴿نَّيۡلًا﴾ وتَنكيرُه يدلُّ على العمومِ والشمول ، فيشملُ كُلَّ درجاتِ ومستوياتِ وحالاتِ النيلِ من الأَعداء ، سواء كانت قليلةً أَو كثيرة ، ماديةً أَو معنوية .

وبما أَنَّ أَساليبَ مواجهةِ الكفارِ وجهادهم عديدة ، فإِنَّ كُلَّ أُسلوبٍ منها يُعْتَبَرُ مظهراً من مظاهرِ النَّيْلِ منهم ، وإِنَّ مستوى كُلِّ أُسلوبٍ ودرجتَه وتأثيرَه في الأَعداءِ يُعتبرُ نَيْلاً منهم ! .

وهذا معناهُ تعميمُ صُوَرِ ومظاهرِ النَّيْلِ مِن الأَعداء : قِتالُهم نَيْلٌ منهم ، وقتلُ بعضِهم نَيْلٌ منهم ، وإِصابةُ بعضِهم بجراحٍ نَيْلٌ منهم ، واحْتلالُ بعضِ بلادِهم نَيْلٌ منهم ، وتدميرُ أَسلحتِهم ومواردهم وصناعاتِهم نَيْلٌ منهم ، وأَخذُ أموالِهم نَيْلٌ منهم ، ومهاجمةُ أَفكارِهم ونقدُ مبادئِهم نَيْلٌ منهم ، وفضحُهم وكشفُ مؤامراتِهم نَيْلٌ منهم ، وشنُّ الحربِ النفسيةِ والإعلاميةِ عليهم نَيْلٌ منهم ، وإِساءةُ وجوهِهم نَيْلٌ منهم ، وتحطِيمُ معنوياتِهم وإِراداتِهم نَيْلٌ منهم . . . وكلُّ إِصابةٍ تُصيبهم في هذه الجوانبِ والمجالات نَيْلٌ منهم . والمؤمنون المجاهدونَ مأجورون على كلِّ نَيْلٍ يَنالونَ منهم به في كُلِّ هذه الجوانب ! . . فتأَمَّلْ معي عظمةَ الجزاءِ والأَجْرِ الذي يستحصلونَ عليه في هذا النَّيْلِ العامِّ الشامل ! وتأَمَّلْ فضلَ الجهادِ وقيمتَه وبركتَه ، وعظمةَ منزلةِ المجاهدِ عند الله ! .

إِنَّ مهاجمةَ الكفارِ عبادة ، وإِنَّ جهادَهم عبادة ، وإِنَّ النَّيلَ منهم عبادة ، ولا بُدَّ أَنْ يُدرِكَ المؤمنون المجاهدون هذه الحقيقةَ القرآنية ، ولا بُدَّ أَنْ يُجاهدوا الأَعْداءَ بهذه الجبهةِ الواسعة ، الشاملةِ للنَّيْلِ الماديّ والمعنويّ ، والنَّيْلِ العسكريّ والسياسيّ والاقتصادي ، والاجتماعيّ والإِعلاميّ والفكريّ ، والعلميّ والفنيّ ، والنفسيّ والعصبي . . فكل هذا نَيْلٌ مبارَكٌ عند الله ! ! واللطيفُ أَنَّ التعبيرَ عن الأَعداءِ في الجملتَيْنِ مختلف : ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ :

فالأعداءُ في الجملةِ الأُولى هم: ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ والكلمةُ جمعُ تكسير. وهم في الجملةِ الثانية: ﴿عَدُوٍّ﴾ والكلمةُ مفرد، وهي مجرورةٌ بحرف ﴿مِنْ﴾ الدالِّ على التبعيضِ والتجزيء، أيْ: أيُّ جزءٍ من نَيْلٍ ينالونَه من أيِّ عَدُوّ. ويَجبُ وصْفُ الأعداءِ بالصفتَيْن معاً؛ فهم كفارٌ أعداء. والصفةُ الأُولى سببٌ لحصولِ الصفةِ الثانية؛ أيْ هم يعادونَ المؤمنين لأنهم كفارٌ.

واللطيفُ أَنَّ الصفةَ الأُولى جمعٌ: ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾، لأنها في جملةٍ تتحدَّثُ عن وَطْءٍ ودَوْسٍ في البلاد، وهذا مَعْنى جماعي، فناسبَ التعبير عنه بالجَمْع.. أما الصفةُ الثانيةُ فهي مفرد: ﴿مِنْ عَدُوٍّ﴾ لأنها في جملةٍ تتحدَّثُ عن أَيِّ نَيْلٍ يُنالُ من العدوّ. و﴿عَدُوٍّ﴾: اسْمُ جنس، ينطبقُ على المفردِ والمثنّى والجمع. والتعبيرُ بالمفردِ هنا يُرادُ منه العُموم، ليشمَلَ كُلَّ عدوّ.

ويُفْهمُ العمومُ من أُسلوبٍ بيانيٍّ آخرَ، وهو أَنَّ ﴿عَدُوٍّ﴾ نكرةٌ في سياقِ النفي: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾؛ ومعلومٌ أَنَّ النكرةَ في سياقِ النفيِ تدلُّ على العُموم.

فيتحققُ العمومُ بأُسلوبَيْن: أُسلوبِ النكرةِ في سياقِ النفي، وأُسلوبِ اسْمِ الجنسِ الذي أُدخلَ عليه حرفُ ﴿مِنْ﴾!.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾:

هذه الجملةُ نتيجةُ الجملِ الثلاثِ قبلَها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾.

وحرفُ الاستثناءِ هنا مُلْغى، لأَنه مسبوقٌ بحرف ﴿لا﴾ النافية. ومعلومٌ أَنه إذا اجتمع النفيُ والاستثناءُ أَلغى كُلٌّ منهما الآخر، ودَلاَّ معاً على الحصر. والمعنى المحصورُ هنا كتابةُ عملٍ صالح بكلِّ ما ذكَرَتْه الجملُ السابقةُ المنفية، وإخبارُ المجاهدين بأَنَّ اللهَ كَتَبَ لهم الأَجْرَ على ذلك العملِ الصالح.

و﴿كُتِبَ﴾: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول. و﴿عَمَلٌ﴾: نائبُ فاعل. و﴿صَٰلِحٌ﴾ صفة. والباءُ في: ﴿بِهِۦ﴾ للسببيةِ. والهاءُ تَعودُ على الأَفعالِ

السابقةِ الصادرةِ عن المجاهدين أثناءَ حركتِهم الجهادية؛ أَيْ: كُتِبَ لهم عملٌ صالحٌ عندَ الله بسبب ذلك الفعل.

وجاءَ الضميرُ مُفْرَداً مذكَّراً: ﴿بِهِۦ﴾ لإرادةِ معنى التفعيل والترغيبِ والتكريم، لأَنَّ الضميرَ عادَ على كُلِّ فعْلٍ من الأَفعالِ السابقة، وهي: الظمأُ، والنَّصَبُ، والمخمصةُ، والوطءُ، والنَّيْلُ!!.

واللطيفُ أَن كُلَّ فعلٍ من الأَفعالِ السابقةِ معطوفٌ على ما قبلَه بحرفِ الواو، فجعلَتْه مستَقِلاًّ بالذِّكر. وكُلُّ فعلٍ أُدخلَتْ عليه ﴿لَا﴾ النافيةُ يدلُّ على الحَصْر، وإِعادَةُ الضميرِ المفردِ الغائبِ ﴿بِهِۦ﴾ على كلِّ فعْلٍ منها تدلُّ على التخصص.

والتقديرُ هكذا: لا يُصيبُ المجاهدين ظمأٌ إلاّ كُتِبَ لهم به عملٌ صالح، ولا يُصيبهُم نَصَبٌ إلاّ كُتِبَ لهم به عملٌ صالح، ولا يُصيبُهم جوعٌ إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالح، ولا يَطَؤونَ موطئاً يَغيظُ الكفارَ إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالح، ولا ينالونَ من عَدُوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالح، فاختصرَ التعبيرُ القرآنيُّ المعجزُ العبارة، وعَطَفَ الأَفعالَ المنفية بحرفِ الواو، وأَعادَ الجملةَ الحاصرةَ عليها كُلِّها: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾.

واللطيفُ أَنَّ الفعلَ مبنيٌّ للمجهول، و﴿عَمَلٌ﴾: نائب فاعل؛ فمن الذي كَتَبَ لهم العملَ الصالحَ؟ إِنَّه اللهُ. والتقدير: كَتَبَ اللهُ للمجاهدين عَمَلاً صالحاً بكلِّ فعْلٍ يفعلونَه.

وليس كلُّ واحدٍ من الخمسةِ المذكورةِ عَمَلاً، ومع ذلك كَتَبَ اللهُ لصاحبِهِ عَملاً صالِحاً مأجوراً بسببه. وهو لا يُكْتَبُ له به عَمَلٌ، إلا إذا اعتبرَه عَمَلاً!! ومعنى هذا أَنَّ ظَمَأَ المجاهدِ عملٌ مأجور، وتَعَبَهُ عملٌ مأجور، ومخمصَتَه عملٌ مأجور، ووطأَه في بلادِ الكفارِ عملٌ مأجور، ونَيْلَه من الأَعداءِ عملٌ مأجور.

واعتبارُ كلِّ واحدٍ من الخمسةِ عَمَلاً فضلٌ من الله على المجاهدين، وتكريمٌ منه سبحانه لهم، ولا يكونُ الشيءُ عَمَلاً لصاحبه إلا إذا نواهُ واجتهدَ به، وفَعَلَه وكَسَبَه، علماً أَنَّ بعضَ الخمسةِ قد يَحصلُ للمجاهدِ بدونِ إرادةٍ

منه ، مثلُ العطشِ والتعبِ والجوع ، لأَنَّ الحاجةَ إلى الطعامِ والشرابِ والراحةِ حاجةٌ بيولوجية ، لا اختيارَ للإنسان فيها! ومع ذلك اعتبرَ اللهُ العطشَ والجوعَ والتَّعَبَ اللاّ إراديَّ عَمَلاً صالحاً يعملُه صاحبُه ، وقَبِلَه منه ، وأَثابَه عليه.

ومعنى هذا أَنَّ كُلَّ ما يَصدرُ عن المجاهدِ منذُ خروجه من بيته للجهاد عملٌ ، وكُلَّ ما يُصيبُه من شدائدَ عملٌ ، وكلَّ ما يَشعرُ به في جهادِه عملٌ!! أَيْ: كلُّ لحظةٍ تمرُّ بالمجاهدِ فهي عملٌ ، وكلُّ ثانيةٍ فهي عمل!.

وبعبارةٍ أُخرى: كُلُّ نَفَسٍ يتنفَّسُه المجاهدُ من شهيقٍ أَو زفيرٍ عملٌ صالح ، وكلُّ نظرةٍ يَنظرُها عملٌ صالح ، وكلُّ كلمةٍ طيبةٍ تخرجُ من فمه عملٌ صالح ، وكلُّ خطوةٍ يَخطوها عملٌ صالح ، وكلُّ فكرةٍ تمرُّ على خاطرِه عملٌ صالحٌ ، وكلُّ إِحساسٍ بالنَّصَبِ والتَّعَبِ في كلِّ ثانيةٍ عملٌ صالح ، وكلُّ شعورٍ بالجوعِ أَو العطشِ عملٌ صالح ، وكلُّ عبادةٍ يُؤَدّيها عملٌ صالح ، بل كلُّ ثانيةٍ يَنامُ فيها عملٌ صالح. . فكمْ من عملٍ صالح يصدرُ عن هذا المجاهدِ في الساعةِ الواحدة؟ وكم يَكتبُ اللهُ له من أَجْرٍ وثوابٍ في يومٍ كامل؟ وَتَخَيَّلْ ما يَكتبُ اللهُ له من أَجْرٍ إِذا أَمضى في الجهادِ شهراً أَو شهرين ، أَو سنةً أو سنتين! وإِذا كانت حياةُ المجاهدِ كُلُّها جهاد ـ بمفهومِ الجهادِ الواسعِ الشامل ـ فكم سيكتبُ اللهُ له من الأَجْر؟ وَتَصَوَّرْ عظمةَ أَجْرِه وجزائِه إِذا أَمْضى خمسينَ أَو ستين سنةً في الجهادِ!! ما أَكرمَ الله ، وما أَعظمَ منزلةَ المجاهدِ عند الله!!.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

ختمَ اللهُ الآيةَ التي رَغَّبَتْ في الجهادِ بهذه الجملة ، وهي ترغيبٌ في الجهادِ وحَثٌّ عليه أَيضاً. وهذه الخاتمةُ متناسبةٌ مع موضوعِ الآية ، وتدلُّ على أَنَّ المجاهدينَ مُحْسِنون ، ولذلك قَبِلَ اللهُ إِحسانَهم ، وأَثابهم عليه ، ولم يُضَيِّعْ لهم شيئاً منه!.

وهذه الجملةُ الخاتمةُ تعليلٌ لما قبلها ، وكأَنها جوابٌ على سؤالٍ قد يَتبادرُ للذهن: لماذا كتبَ اللهُ لهؤلاءِ المجاهدينَ عَمَلاً صالحاً على كلِّ

ما صدرَ منهم في الجهاد؟ فيأتي الجوابُ في هذه الجملة: لأَنهم محسنونَ في جهادِهم وحياتِهم، واللهُ لا يُضيعُ أَجْرَ المحسنين.

والحقيقةُ القرآنيةُ التي تقدمُها هذه الجملةُ أَنَّ اللهَ يتقبلُ عملَ المحسنين، ويَكتبُ لهم به الأَجْرَ والثواب، ولا يُنقصُ ولا يُضيعُ منه شيئاً، ومن ذلك أَعمالُ المجاهدين.

وهذه الحقيقةُ مؤكَّدةٌ في الجملةِ بحرف ﴿إِنَّ﴾ الذي هو للتوكيد. والجملةُ الاسميةُ بعدها ﴿ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جمعٌ، مفردُه «مُحْسِن»، وهو اسْمُ فاعلٍ من الرباعي «أَحْسَنَ»؛ تقول: أَحسنَ إِحْساناً فهو محسن.

والتعبيرُ باسمِ الفاعلِ هنا مقصود؛ فمن المعلومِ أَنَّ اسْمَ الفاعلِ يدلُّ على الثباتِ والاستقرار، وملازمةِ الصفةِ للموصوف، ومعنى هذا أَنَّ الإِحسانَ صفةٌ ثابتةٌ فيهم، ملازمةٌ لهم، لا تفارقُهم ولا تَنفصلُ عنهم.

والإِحسانُ نتيجةٌ وثمرةٌ للأَعمالِ السابقةِ التي عملَها هؤلاء المجاهدونَ المحسنون، وهي: ما أَصابَهم من ظمأ ونَصَبٍ ومخمصةٍ في سبيلِ الله، وما وطئوه مما أَغاظوا به الكفار، وما نالوا به من العَدُوِّ! أَيْ أَنهم محسنونَ في عَطَشِهم وجوعِهم وتَعَبِهم، ومُحسنونَ في وطْئِهم البلادَ واحتلالِها، ومُحسنونَ في نَيْلِهم من العَدُوّ؛ ولذلك يأجرهم اللهُ على إِحسانِهم في هذه الأمورِ الجهادية.

وبما أَنهم «محسنون» فإن الله يُحبُّهم لإِحسانِهم في جهادِهم، لأَنَّ المحسنينَ أَحبابُ الله؛ قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وجزى اللهُ إِحسانَهم في جهادِهم بإِحسانٍ في مضاعفةِ أَجرهم، لأَنَّ جزاءَ الإِحسان إِحسانٌ؛ قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ووَصْفُهم بأَنهم محسنون، في ختامِ الآيةِ التي تحدَّثَتْ عن بعضِ أَعمالِهم الجهادية، وبعضِ ما يُصيبُهم أَثناءَ الجهادِ مقصودٌ، الهدفُ منه وَصْفُ

الجهادِ بأَنه إِحسان ، وَوَصْفُ المجاهدين بأَنهم محسنون ، وبالجهادِ يَنالُ المجاهدونَ المحسنونَ محبةَ الله ! ! .

وهذا رَدٌّ على التشكيكِ في الجهاد ، وتشويهِ حقائقِه ، واتهام المجاهدين باتهاماتٍ باطلةٍ ، وهذا ضمن الحربِ الإعلاميةِ الشرسةِ التي يشنُّها الأَعداءُ ضدَّ الجهادِ والمجاهدين ! .

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾:

تُتابعُ الآيةُ الثانية الكلامَ على أَعمالِ المجاهدين ، التي يَكتبُ اللهُ لهم عليها الأَجرَ والثواب : ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ .

ولذلك عُطفت الآيةُ الثانيةُ على الآيةِ الأُولى بحرفِ الواو .

وتنتقلُ الآيةُ الثانيةُ إلى الحديثِ عن أعمالٍ إراديةٍ جهاديةٍ مقصودَةٍ ، تصدرُ عن المجاهِدينَ أَثناءُ خروجِهم للجهاد ، بينما تَحدثَت الآيةُ السابقةُ عن أعمالٍ لا إراديةٍ تَصدرُ عنهم ، وعن مشقاتٍ وشدائدَ لا إِرادية ، تُصيبُهم أَثناءَ حركتِهم الجهادية .

﴿لا﴾ : حرفُ نفي ، وهو هنا بمعنى الحَصْر ، لوقوع حَرْفِ ﴿إِلَّا﴾ فيما بَعد: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ؛ ومعلومٌ أَنَّ اجتماعَ النفي والاستثناء يدلُّ على الحَصْر .

و﴿يُنفِقُونَ﴾ : فعلٌ مضارعٌ وفاعلُه . و﴿نَفَقَةً﴾ : مفعولٌ به . و﴿صَغِيرَةً﴾ : صفةٌ منصوبة . و﴿كَبِيرَةً﴾ : معطوفةٌ على ﴿صَغِيرَةً﴾ .

و﴿نَفَقَةً﴾ : اسْمٌ مشتقٌّ من الثلاثي : «نَفَقَ» ، ويُطْلَقُ على أَيِّ شيء يُخْرِجُه المؤمنُ في سبيلِ الله ، يَبتغي به الأَجْرَ من الله .

وغالبُ استعمالِ النفقةِ في المال ، الذي يُخرجُه المتصدِّقُ في سبيلِ الله ، سواء كان هذا المالُ قليلاً أو كثيراً ، لكنَّها ليستْ خاصَّةً بإخراجِ المال ، وإِنما هي عامة ، تشملُ كُلَّ شيء يُخرجُه ويُنفقُه المؤمنُ في سبيلِ الله ، ويدخلُ فيها إِنفاقُ المال ، وإِنفاقُ الجهدِ والنشاط ، وإِنفاقُ الفكرِ والعِلْم ، وإِنفاقُ

الوَقْت ، وإِنفاقُ الإِرادة . . وتوجيهُ كلِّ هذهِ المجالات لتحقيقِ الهدف ، وتوظيفُها لخدمةِ الدين ، طلباً لَلأَجْرِ من الله .

وبَشَّرَت الجملةُ المجاهدينِ المنفقين بقبولِ كُلِّ نفقةٍ أَنفقوها في الجهاد ، سواء كانت صغيرةً قليلة ، أو كبيرة كثيرة .

و﴿كَبِيرَةً﴾ معطوفةٌ على ﴿صَغِيرَةً﴾ . وإدخالُ ﴿لا﴾ النافيةِ عليها لمزيدٍ من التوكيد ، ويُمكنُ إِدخالُ الفعل عليها ، فيكونُ التقدير : ولا يُنفقون نفقةً كبيرةً إلاّ كُتبتْ لهم .

وَذكرت الجملةُ طرفَي النفقات : ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ : الطرفُ الأَول : النفقةُ الصغيرة ، والطرفُ الثاني المقابلُ : النفقةُ الكبيرة ، وبينَ الطرفينِ تدخلُ جَميعُ النفقاتِ على اختلافِ مَقاديرِها وكمياتِها ، ومجالاتِها وآفاقِها ، وأنواعِهَا وأَشكالِها .

والعُمومُ مأخوذٌ من أُسلوبَيْن : أُسلوب الحَصْر : ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً . . . إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ . . وأُسلوب التنكير ، إنَّ ﴿نَفَقَةً﴾ في الآيةِ نكرة ، والنكرةُ في سياقِ النفي تدلُّ على العُمومِ والشمول .

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾:

هذه الجملةُ الفعليةُ معطوفةٌ على الجملةِ الفعليةِ قبلَها ، وتسجلُ هذه الجملةُ عَمَلاً جهادياً صادراً عن المجاهدين ، وتُقررُ قبولَه عند الله .

﴿لا﴾ : حرفُ نفي ، وهو هنا للحصر ، والتقديرُ : ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ .

وقَطْعُ الوادي : اجتيازُه وعُبورُه ، وللوادي جانبان ، يأتي المجاهدون من جانب ، ويَعبرونَ الوادي ، ويَنتقلونَ للجانبِ الآخر ، وسُمِّيَ هذا العبورُ والتجاوزُ قَطْعاً .

و﴿وَادِيًا﴾ : مفعولٌ به ، وهو اسْمٌ على وزْنِ «فاعِل» ، مشتقٌّ من الثُّلاثي : «وَدَى» . ومَعْناهُ : سالَ .

والوادي: هو المكانُ المنخفضُ بين جبلَيْن ، وسُمِّيَ وادِياً لأَنَّ الماءَ يَدي ويَسيلُ ويَجْري فيه.

وَذكَرت الجملةُ قَطْعَ الوادي واجْتيازَه ، لأَنه حالَةٌ من حالاتِ حركاتِ المجاهدين ، وهذه الحالةُ تشيرُ إِلى غيرها. إِنَّ للسائرينَ في سيرِهم ثَلاث حالات: فهم إِمّا أَنْ ينزلوا في وادٍ ، وإِمّا أَنْ يَصْعَدوا على جَبَل ، وإِمَّا أَنْ يسيروا في سّهلٍ منبسط. . وهم مأجورونَ في كلِّ حالاتِ مَسيرهم.

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾:

﴿ إِلَّا ﴾: حرفُ استثناءٍ في الأَصل ، لكنَّها هنا يُرادُ بها الحَصْر ، لأَنها مسبوقةٌ بحرفِ ﴿لا﴾ النافية. و﴿ كُتِبَ ﴾: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهولِ ، ونائبُ الفاعلِ محذوف ، تقديرُه «عَمَل». أَيْ: إِلاَّ كُتِبَ لهم عمل. وهو يَعودُ على الفِعْلَيْن السابقَيْن: الإِنفاقُ وقطعُ الأَودية: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾.

والمعنى المحصورُ في الآيةِ هو كتابةُ الأَجْرِ والثوابِ للمجاهدين على كُلِّ نفقةٍ يُنفقونَها على الجهاد ، مهما كانَتْ قيمَتُها ، وعلى كُلِّ خَطوةٍ يَخْطونَها في الجهادِ ، مهما كانَ مكانُها ، قطعُ وادٍ ، أَو صعودُ جبل ، أَو سيْرٌ في سهل.

ومن اللطيفِ ملاحظةُ الفرقِ بين الكتابَتَيْن ، المذكورتَيْنِ في الآيتين؛ فلما تحدثَت الآيةُ الأُولى عن ما يُصيبُ المجاهدين من ظمأ أَو نصَب أَو مخمصةٍ قالت: ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ ، بينما قالت الآيةُ الثانيةُ عن نفقةِ وحركةِ المجاهدين: ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾.

والفرقُ بين الجملتَيْن في جانبَيْن:

الأَول: نائبُ الفاعلِ مذكورٌ في الأُولى ، ومحذوفٌ في الثانية.

الثاني: شبهُ الجملةِ ﴿ بِهِۦ ﴾ مذكورةٌ في الأُولى ، محذوفَةٌ في الثانية. وسنحاول ذكْرَ حكمةِ الحذفِ والذكرِ في الجملتين بعدَ قليلٍ إِنْ شاءَ الله.

١١ ـ قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾:

هذه الجملةُ تعليلية ، تعللُ المذكورَ في الجملِ السابقة ، وتذكُرُ الحكمةَ

منه ؛ وكأنها جوابٌ على تَساؤُلٍ: لماذا يَكتبُ اللهُ للمجاهدين كلَّ عملٍ جهاديٍّ يَعملونَه ، ومنه النفقةُ المبذولة ، والحركةُ المطروقة؟ تُقدمُ هذه الجملةُ الجوابَ: كتبَ اللهُ لهم كلَّ ذلك ليجزيَهم أَحسنَ ما كانوا يَعملون.

«يَجزي»: من الجَزاء ، وهو بمعنى المقابلةِ والمكافأةِ والفَناء. وعندما تَجزي شَخْصاً خيراً ، فإنك تكافِؤه على خيرٍ صدرَ منه ، وتُقابلُ خيرَه بخيرٍ منك.

ولفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. والضميرُ «هم»: في محلِّ نصْب مفعولٍ به أول. وأَفعلُ التفضيل ﴿أَحْسَنَ﴾: مفعولٌ به ثان. و﴿مَا﴾: مصدرية. وجملةُ ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: مصدرية ؛ وهذه الجملةُ المصدريةُ في محلِّ جَرٍّ مُضافٍ إليه لأَفعلِ التفضيل ، والتقديرُ: كتبَ اللهُ للمجاهدين الأَجْرَ ليَجزيهم أَحسنَ أَعمالِهم.

واختيارُ أَفعلِ التفضيل ﴿أَحْسَنَ﴾ في هذا المقامِ مقصود ، وذلك للإِشارةِ إِلى أَنَّ الأَعمالَ المتصلةَ بالجهاد هي أَحسنُ أَعمالِ المجاهدين الحسنة.

إِنَّ الأَعمالَ الصالحةَ نوعان:

الأَول: أَعمالٌ حَسَنَة: وهي أَعمالٌ صالحةٌ خَيِّرَة ، يَقبلُها اللهُ من أَصحابها.

الثاني: أَعمالٌ أَحسنُ من الأَعمالِ الحسنة ، وهي الأَكثرُ حُسْناً ، والأَكثرُ دقةً وأَداءً وإِتْقاناً ، وهي الأَرفعُ والأَكرمُ والأَسمى.

وأَعمالُ المجاهدينَ من النوع الثاني ، لأَنها هي الأَحسنُ والأَفضلُ.. واللهُ يُريدُ من العاملين أَنْ يَعْمَلوا الأَعمالَ الأَحسنَ ، وليست الأَعمالَ الحسنة.. وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

والتعبيرُ بالفعلِ الماضي «كانَ» مقصود ، فهو يدلُّ على الكينونةِ والدَّوام ، أَيْ أَنَّ أَعمالَهم الصالحة ـ ومنها حركَتُهم الجهاديةُ ـ كائنةٌ دائمةٌ ، مُلازمةٌ لَهم ، لا تَنفصلُ عنهم.

والتعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مقصود أيضاً ؛ فالمضارعُ يدلُّ على التجددِ والحدوث ، ومعنى هذا أَنَّ أَعمالهم الصالحةَ متجددةٌ متواصلة ، لا تتوقَّفُ.

واللطيفُ الجمعُ بين الماضي والمضارع في ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ، لأَنَّ جملةَ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في محلِّ نصْب خبر ﴿كَانُواْ﴾. ومجيءُ المضارع ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ خبراً للماضي ﴿كَانُواْ﴾ جمالٌ ملحوظٌ في التعبيرِ القرآني.. واللطيفُ أَنَّ الماضي الدالَّ على الدوام ، في الإِخبارِ عن المجاهدين ، وأَنَّ المضارعَ الدالَّ على التجدد ، في الإخبارِ عن أَعمالِهم.. ومعنى هذا أَنَّ تَواصُلَ واستمرارَ وتَجَدُّدَ أَعمالِ المجاهدين الصالحة صفةٌ ملازمةٌ دائمةٌ لهم ، لا تُفارقُهم!.

من لطائف الآيتين:

في هاتينِ الآيتينِ مجموعةٌ من اللطائفِ الرائعة ، من أَهَمِّها:

١ ـ في قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ نهيٌ للمؤمنين عن التخلُّف ، ولكنَّ هذا النهيَ في صورةِ الخَبَر ؛ فالجملةُ خبريةٌ في الظاهر ، لكنها طلبيةٌ في الحقيقة ، وهذا يُسمى: «طَلَبٌ في صورةِ الخبر».

٢ ـ حُذِفَتْ لامُ الجحود من خبرِ «كان» المنفية. وإِذا كانَ خَبَرُ «كانَ» المنفيةِ جملةً فعليةً فإِنَّ «لامَ الجحود» تَدخلُ عليه ، كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ١٢٢] ؛ جملةُ ﴿لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾: في محلِّ نصبِ خبرِ ﴿كَانَ﴾ ، أَيْ: ما كانَ المؤمنون نافِرينَ كافَّة ، وأُدخلتْ على الجملةِ لامُ الجحودِ لتدلَّ على مزيدٍ من التوكيد.

ولامُ الجحودِ هي كُلُّ لامٍ داخِلةٍ على فعلٍ مضارع ، ويُنصبُ بـ«أَنْ» مضمرة بعدَ اللاّم ، ولا بُدَّ أَنْ تُسبَقَ لامُ الجحودِ بـ«كان» المنفية!.

ولو أُدخلتْ لامُ الجحودِ على الجملةِ المصدريةِ لقالَتْ: ما كانَ لأَهلِ المدينةِ ومن حولَهم من الأَعرابِ ليتخلَّفوا عن رسولِ الله.

وقد انصبَّ النفيُ على الجملةِ المصدرية ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ﴾ ، وهو أَبلغُ صيغِ النَّفي. والمعنى: ما كانَ التخلفُ عن رسول اللهِ أَنْ يَصْدُرَ عن أَهلِ المدينة!!.

٣ ـ في الآيةِ جملتان منفيَّتان:

الأُولى: منفيةٌ بحرفِ ﴿مَا﴾: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾.

الثانيةُ: منفيةٌ بحرْفِ ﴿لا﴾: ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

وعُطِفت الجملةُ الثانيةُ على الأُولى بحرفِ ﴿لا﴾ بعد واو العطف، ونصب الفعلُ المضارع: ﴿يَرْغَبُواْ﴾ بـ«أَنْ» المضمرة، وعلامةُ نصبِه حذفُ النون، لأنه من الأفعالِ الخمسة؛ لأَنه معطوفٌ على المضارع المنصوب ﴿يَتَخَلَّفُواْ﴾.

ويَبدو في هذا العطفِ التدرُّجُ في نفيِ السوءِ والقبحِ عن المجاهدين، ولذلك انتقلت الآيةُ من نفي السيِّئ القبيحِ عن المجاهِدين ـ وهو التخلُّفُ عن رسولِ اللهِ ﷺ ـ إلى نفيِ الأسوأ والأقبح ـ وهو أَنْ يرْغَبوا بأنفسِهم عن نفسِه. فالتدرُّجُ في نفيِ السوءِ عن المجاهِدين واضح.

ويُفهمُ من الجملتيْن أَنَّ الجملةَ الثانيةَ سببٌ في وُقوعِ الجملةِ الأُولى، بمعنى أَنَّ الذي يَدفعُ ضِعافَ الإيمانِ إلى أَنْ يَتَخَلَّفوا عن رسولِ اللهِ ﷺ هو أَنهم كانوا يَرغبونَ بأنفسِهم عن نفسِه، فالحرصُ على سلامَةِ النفسِ يَقودُ إِلى التخلُّفِ عن الجهاد.

٤ ـ تَعَدّى فعلُ ﴿يَرْغَبُواْ﴾ إلى ما بعدَه بحرفَيْن: الباءِ وعن: ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

ويتحدَّدُ معنى «رَغِبَ» بالحرفِ الذي تَعدَّى به، وله أَربعُ حالاتٍ من تَعَدّيه لما بعده:

الأُولى: يتعدّى بحرفِ «إلى». تقولُ: رغبْتُ إِليه كذا. أَي: سأَلْته إِيّاهُ، وطلبْتُه منه، وحرصتُ عليه.

الثانية: يَتَعَدّى بحرفِ «عن». تقول: رغبْتُ عن الشيء. أَيْ: تركْتُه وزهدْتُ فيه.

الثالثة: يَتَعدّى بحرف «في». تقول: رغبتُ في الشيء. أَي: أَحببْتُه وملْتُ إليه.

الرابعة: يتعدّى بحرفِ الباء. تقول: رغبتُ به. أَيْ: أَردْتُه.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ مرغوبان:

الأَوَّلُ: المرغوبُ به، وهو ما دَخلَتْ عليه الباء: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ﴾: وهو الذي أَرادوهُ وطَلَبوهُ وحرصوا عليه؛ وهو: أَنفسهم.

الثاني: المرغوبُ عنه، وهو ما دَخَلَ عليه حرفُ ﴿عَن﴾: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾، وهو نفسُ رسولِ الله ﷺ. والمرغوبُ عنه هو المستبْعَدُ المتروك الذي تَجافوا عنه وزَهِدوا فيه.

إنَّ إِدخالَ الباءِ على المرغوب فيه يدلُّ على الملابَسَةِ والملاصَقَة والمصاحَبَة، أَيْ أَنَّ مَنْ رغبوا بأَنفسهم، فإِنَّ هذه الرغبة ملازمةٌ لهم لا تفارقُهم.

وإِدخالُ ﴿عَن﴾ على المرغوبِ عنه يدلُّ على المتروك؛ لأَنَّ من أَهَمِّ معاني ﴿عَن﴾ هو: التجاوز والانتقال.

ولا يُمكنُ للمؤمنين المجاهدين الصادقينَ أَنْ يَفعلوها، وأَنْ يحرصوا على سلامةِ أَنفسهم، وأَنْ يَتركوا رسولَ اللهِ ﷺ، ويتَجافَوْا عنه ويَزْهَدوا فيه!!.

٥ ـ اجتمع في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ...﴾ الإِشارةُ والسببية، بهدفِ التعليل.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسْمُ إِشارة؛ والمشارُ إِليه ما وَرَدَ في الجملةِ السابقة: ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾. والتقدير: ذلك الفعلُ الصادرُ عن أَهلِ المدينة، وهو عدمُ التخلفِ عن رسولِ الله ﷺ، وعدمُ الرغبةِ بأنفسِهم عن نفسِه.

والباءُ في ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ...﴾ باءُ السببية؛ أَيْ: بسببِ أنه لا يُصيبُهم.

وباجتماعِ الإشارةِ مع السببيةِ صارتِ الجملةُ للتعليل، وكأَنها جوابٌ على تَساؤُلٍ يثورُ في ذهنِ القارئ: لماذا يُسارعُ المجاهدونَ للجهاد؟ ولماذا لم يتخلَّفوا عن رسولِ الله ﷺ؟.

تُقدمُ الجملةُ التعليليةُ الجوابَ: السببُ هو حرصُهم على الأَجر، فكلُّ ما أَصابهم في الجهادِ من مصائب وشدائدَ وآلامٍ وتضحياتٍ، مكتوبٌ لهم عندَ الله.

٦ ـ من المعلوم أَنَّ اجتماعَ ﴿لا﴾ النافية و﴿إلاّ﴾ الاستثنائية يَدُلُّ على معنى الحصر، وهذا واضحٌ في جملة: ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ والمعنى المحصورُ هو كتابةُ الأَجرِ على كُلِّ ما يُصيبُهم، وكُلِّ ما يَفعلونَه. وجملةُ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾ الحصريَّةُ في محلِّ رفع خبر ﴿أَنَّ﴾. والتقدير: ذلك الخروجُ وعدمُ التخلفِ بسببِ أَنهم مأجورون على كُلِّ شيءٍ أَثناءَ جهادِهم.

٧ ـ حَصرت الجملةُ خمسةَ أَعمالٍ تتعلَّقُ بالمجاهدين أَثناءَ حركتِهم الجهادية، وهذه الأَعمالُ الخمسةُ قِسْمان:

الأَول: أَعمالٌ لا إرادِيّة، وهي الثلاثةُ الأُولى: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ فالظمأُ حاجةٌ بيولوجيةٌ لا إراديّة، والنَّصَبُ حاجَةٌ جسديةٌ لا إراديّةٌ، يَنتجُ عن الحركَةِ والجهد، والمخمصةُ: جوعٌ لا إراديّ يتأَثَّرُ به البدنُ عندما يحتاجُ إلى طعام.

والمجاهدونَ مأْجورونَ على هذا العطشِ والتعبِ والجوع، تكريماً من الله لهم!.

الثاني: أَعمالٌ إراديّةٌ مكتَسَبَة، لهم فيها اختيارٌ وقَصْدٌ، وهما الاثنانِ الآخرانِ المذكوران في الآية: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾.

إنَّ وَطْأَهم بلادَ الكفارِ ودوسَهم فيها عملٌ إراديٌّ كسبي ، وإنَّ نَيْلَهم أيَّ نَيْلٍ من الأعداء ، عملٌ إرادي كسبي ، وهم مأجورونَ على هذا الوطء وهذا النَّيْل .

٨ ـ أُدخلتْ ﴿لَا﴾ النافية ، التي هي للحَصْرِ هنا على الأعمالِ الجهاديةِ الخمسةِ بقسمَيْها : الإراديةِ وغيرِ الإراديةِ ، وذلك لتأكيدِ الحقيقةِ المحصورَةِ وترسيخِها ، وهي كتابةُ الأجْرِ المستقِلِّ على كل واحدٍ من الأعمالِ الخمسة .

فرقٌ بعيدٌ بينَ قولِك : لا يصيبهم ظمأ ونصب ومخمصة ويطؤون موطئاً وينالون نيلاً . . . وبين ما وَرَدَ في الآية ؛ ففي الجملةِ المفترضةِ السابقةِ كُلُّ الأعمالِ الخمسة مجموعةٌ بحصْرٍ واحد ، وَرَدَ في العملِ الأول وهو الظمأ ، فكأنها جُمعَتْ كلُّها بحصْرٍ واحد . أمّا في الآيةِ فكلُّ عملٍ من الخمسةِ أَخذَ حَصْراً كامِلاً ، لأَنَّ ﴿لَا﴾ الحصرية دَخلَتْ عليه . . وفرقٌ بينَ تقسيم حصرٍ واحدٍ على خمسةِ أعمال ، وبينَ إعطاء كلِّ عَمَل ﴿لَا﴾ حصريةً خاصّةً به ! ! .

٩ ـ اختلفت الصياغةُ في الآيةِ بينَ الأعمالِ الإراديةِ والأعمال اللا إرادية ؛ فاختلفَ إسنادُ الفعلِ فيها ، واختلفَ الفاعلُ والمفعولُ به فيها . ويمكِنُنا أَنْ نقول : حَصَلَ تناوبٌ بين الفاعلِ والمفعولِ به في الجملتَيْن ، فالمفعولُ به في الأعمالِ اللاّ إراديةِ صارَ فاعلاً في الأعمالِ الإراديّةِ ! .

جاءَ التعبيرُ عن الأعمالِ اللاّ إرادية : ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ :

الضميرُ المتصلُ في ﴿يُصِيبُهُمْ﴾ في محلِّ نصب مفعولٍ به مُقدَّم . و﴿ظَمَأٌ﴾ : فاعلٌ مُؤخَّر . وقُلْ هكذا في النَّصبِ والمخمصة . والتقديرُ : لا يصيبهم ظمأٌ ، ولا يصيبُهم نَصَبٌ ، ولا تُصيبُهم مخمصَة .

وإسنادُ الإصابةِ إلى الظمأ والنَّصَبِ والمخمصَةِ يُشيرُ إلى لفتةٍ نفسيَّةٍ بشريَّة ، لأَنَّ العطشَ والتعبَ والجوعَ أَشياءٌ لا إراديّة ، لا بدَّ أَنْ تُصيبَ الإنسان ، ولا إرادةَ ولا كسب له فيها ، وفَطَرَ اللهُ عليها نفسَه ، فكلُّ مَن احتاجَ إلى الماءِ ولم يَجِدْهُ يُصيبُه الظمأُ رغماً عنه ، وكُلُّ مَنْ بَذَلَ جهداً كبيراً ،

لا بدَّ أَنْ يُصيبَه التعبُ والعَطشُ ، وكلُّ مَن احتاجَ إِلى الطعامِ ولم يجدْه يُصابُ بالجوع.

فهذه الأشياءُ الثلاثةُ تُصيبُ الإنسانَ رغْماً عنه ، ولذلك كان كلٌّ منها هو فاعلُ الفعل ، وكانَ المجاهِدون مفعولاً به!!.

ولما عَبرت الآيةُ عن الفعلَيْن الإراديين صارَ المفعولُ به ـ الضميرُ العائدُ على المجاهدين ـ فاعِلاً ، وتمَّ إسنادُ الفعلَيْن المذكورَيْن إلى المجاهدين: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾؛ لأنَّ المجاهدين هم الذين يتحرَّكون حركةً إراديَّةً جهادية ، ولذلك كانَ إسنادُ الوطءِ والنَّيْل إليهم.

وتحويلُ المفعول به في الأفعالِ الثلاثةِ الأُولى إلى فاعلٍ في الفعلَيْن الأَخيرَيْن جمالٌ ملحوظ!.

١٠ ـ عادَ الضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿ظَمَأٌ﴾ والمعطوفَيْن عليه: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وجاءَ مذكَّراً من بابِ التَّغْليب ، لأَنَّ أَربعةً من المذكوراتِ الخمسةِ مذكَّرة فغلَّبَ المذكّرَ على المؤنَّث ، وقال: ﴿كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾. والتقدير: كُتبَ لهم بكلِّ واحدٍ من المذكورين في الآيةِ عملٌ صالح.

١١ ـ الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ باءُ العِوَضِ والبَدَلِ ، أُدخلَتْ على المبدَلِ منه ، وهو المذكوراتُ الخمسة: الظمأ والنصبُ والمخمصةُ والوطءُ والنَّيْل. والبَدَلُ بعدَ الضمير وهو ﴿عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾.

ودَلَّتْ باءُ البَدَلِ في ﴿بِهِۦ﴾ على أَنَّ كُلَّ واحدٍ من الأَعمالِ الخمسةِ لا يُكتَبُ لهم بنفسِه وإنما يكتَبُ لهم بدلُه ومُقابلُه؛ فالعملُ الصالحُ بَدَلٌ من الظمأ والنّصَب والمخمصةِ والوطءِ والنَّيْل.

ولم يُكتب العملُ نفسُه لهم ، وإنما كُتِبَ لهم بَدَلُه ، لأَنَّ معظمَ المذكوراتِ لا إراديّة ، وكلُّ واحدٍ منها يُصيبُ الإنسان بدون إرادَتِه ، فلم يُكتَبْ لأَنه لا إراديّ ، إنما كُتِبَ لهم العملُ الصالحُ بَدَلاً عنه. وهذه لفتةٌ لطيفة.

١٢ ـ جاءت الجملةُ الأَخيرةُ من الآيةِ الأُولى تعليلاً للأعمالِ الخمسةِ المذكورةِ قبلَها ، وكأنها جوابٌ على سؤالٍ قد يَتبادَرُ إلى ذهنِ القارئ : لماذا يَكتبُ اللهُ عَمَلاً صالحاً بكلِّ ظمأ أَو نَصَبٍ أَو مخمصةٍ أو وطء أَو نَيْل؟ يَكتبُ اللهُ لهم ذلك لأَنهم مجاهدونَ مُحسِنون ، واللهُ لا يُضيعُ أَجْرَ المحسنين .

ووَصْفُهم بأنهم مُحسنون مقصود . و«مُحْسِنون» جمعٌ ، مفردُه «مُحْسِن» ، وهو اسْم فاعل ، واسْمُ الفاعلِ مُلازمٌ لصاحبِه لا يُفارقُه ، وهو صفةٌ دالَّةٌ على الثباتِ والاستقرار .

وهم نالوا شهادَةً من الله بأَنهم مُحسنون ، بعدما قاموا بالأَعمالِ الجهادية الخمسة ، ودلَّ هذا على أَنَّ الجهادَ إِحْسان ، وأَنَّ كُلَّ عملٍ يصدرُ عن المجاهدِ إحسان ، سواء كانَ هذا العملُ إراديّاً كالوطء في بلادِ الكفارِ والنَّيْلِ منهم ، أَو كانَ لا إِراديّاً كالجوعِ والعطش والتعب .

وبما أَنَّ المجاهدَ مُحسنٌ في هذه الأَعمالِ فإِنَّ اللهَ يكافئُ إحسانَه بإحسان ، فيُكتبُ له بها عملٌ صالح ، لأَنه لا جزاءَ للإِحسانِ إلاّ الإِحسان .

١٣ ـ وردَ في الآيةِ خمسُ كلمات ، كلٌّ منها نكرةٌ مُنوَّنَة : ظمأٌ ، ونَصَبٌ ، ومخمصةٌ ، وموطئاً ، ونَيْلاً .

وهذا التنوينُ والتنكيرُ مقصود ، والنكراتُ الخمس في سياقِ النفي ، ومن المعلومِ أَنَّ النكرةَ في سياقِ النفي للعُمومِ والشمول . وهذا العمومُ ليَشملَ كُلَّ نِسَبٍ ودرجاتٍ ومستوياتِ الأَعمالِ الخمسة ، فأَقَلُّ نسبةٍ من الظمأ والتعبِ والجوعِ والوطءِ والنَّيْلِ يُكْتَبُ لهم بها عملٌ صالح ، حتى لو كانَتْ أَقَلَّ من واحدٍ بالمئة! .

١٤ ـ المجاهدونَ يجاهدونَ الكفارَ الأَعداء ، وقد نَوَّعَت الآيةُ في حديثِها عنهم ، وذلك في قولِها : ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا ﴾ ؛ ففي وَطْء البلادِ ذَكَرَتْ كلمةَ ﴿ ٱلۡكُفَّارَ ﴾ بصيغةِ الجَمْع ، وفي النَّيْلِ والإِصابةِ ذَكَرَتْ كلمةَ ﴿ عَدُوّٖ ﴾ بالمفرد . فما حكمةُ العدولِ عن الكفارِ إِلى العَدُوِّ؟ وما حكمةُ التعبيرِ عن الأُولى بالجمعِ وعن الثانيةِ بالمفردِ؟ .

وطءُ البلادِ يُناسبُهُ الإِخبارُ عنهم بالكُفار ، والإِخبارُ عنهم بالجَمْع : ﴿ وَلَا

يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ . إِنَّ الوطءَ هنا احتلال ، ولذلكَ عَبَّرَ عنه باسْمِ المكانِ ﴿مَوۡطِئٗا﴾ . والهدفُ من هذا الوطءِ والدَّوْسِ هو إغاظةُ الكفار ، وإيقاعُ الحسرةِ في قلوبِهم؛ فالوطءُ والإغاظَةُ حَرْبٌ نفسيَّة ، ولذلك ناسَبَ وَصْفُ الآخرينَ بالصفةِ الأساسية التي اختلفوا فيها عن المجاهدين ، وناسَبَ التعبيرُ عنهم بالجمع ، لتشملَ الإغاظَةُ أكبر عددٍ منهم ، فقالت الآيةُ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ .

أَما النَّيْلُ فهو الإصابَة ، وهو يَشملُ كُلَّ نَيْلٍ يَنالونَه منهم ، مهما كانَ نوعهُ ، سواء كانَ ماديّاً أَو معنويّاً ، نفسيّاً أَو عصبياً ، سياسيّاً أَو اقتصاديّاً أَو إعلاميّاً ، أَو داخليّاً أَو خارجيّاً أَو دولياً ، ولأَنَّ في النيلِ إصابةٌ ووقوعٌ ، ناسَبَ أَنْ يَصفَ الكفارَ بصفةٍ أُخرى تتوافَقُ مع النَّيْل ، فَوَصَفَهم بالعداوَة! ولأَنَّ النَّيْلَ عامٌّ شاملٌ ناسَبَ أَنْ يُعَبّرَ عنهم بالمفرد: ﴿مِّنۡ عَدُوّٖ﴾ ، ليشملَ النَّيْلُ كلَّ عَدُوٍّ منهم!! .

وفي العُدولِ عن وصْفِ الكفارِ إلى وصفِ الأَعداءِ جَمالٌ مقصود ، وفي مقابلةِ الجمعِ في ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ بالمفردِ في ﴿عَدُوّٖ﴾ جمالٌ آخر معجزٌ في البيانِ القرآني .

١٥ ـ سَجلت الآيةُ الثانيةُ عملَيْن إراديَّيْن يَصْدُرانِ عن المجاهدين : ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ .

وهذان العَملانِ لا يَنْتُجانِ إلاّ عن قَصْدٍ وتَعَمُّد ، ورغبةٍ ونيةٍ وإرادَة ، وهما عَمَلان مُتقابلان في الحركةِ الجهادية التي يَتحركُ بها المجاهدونَ في سبيلِ الله .

الأَول: الإِنفاقُ على الجهاد ، ودَعْمُه وتَمويلُه ، ورصْدُ الأَموالِ الطائلةِ له ، ومعلومٌ أَنَّ تجهيزَ المجاهدينِ يَحتاجُ إلى نفقاتٍ ، منها نَفقاتٌ صغيرةٌ قليلة ، ومنها نفقاتٌ كبيرةٌ كثيرةٌ ، وكلُّ هذه النفقاتِ مكتوبةٌ لأَصحابها ، وهم مأْجورونَ عليها .

الثاني: قطعُ الأَودية ، وهذا حركةٌ عملية ، ونشاطٌ ميداني ، يَنتجُ عن المجاهدين بأَنفسِهم ، الذينَ خَرجوا للجهاد .

وعَطْفُ العملِ الثاني على العملِ الأَوّلِ لطيف ؛ فالعملُ الأولُ أَعَمُّ ، لأَنَّ الإِنفاقَ على الجهادِ قد يكونُ من الخارجينَ للجهاد ، وقد يكونُ من غيرهم ، من المعذورين المرخَّصِ لهم بالقعود ، أَو من المتثاقلين عن الجهاد ، فكلُّ مسلمٍ أَو مسلمةٍ كُتِبَ عليه الخروجُ للجهادِ أَو لم يُكْتَبْ ، يُمكنُه أَنْ يُنفقَ على الجهادِ أَيةَ نفقة ، فلو أَنفقَ أَقَلَّ من درهمٍ على الجهاد؛ فإِنَّ اللهَ يتقبَّلُها منه ، وهذا هو الجهادُ بالمالِ في سبيلِ الله!.

أَما سَيْرُ المجاهدين وحركتُهم الجهادية وقطْعُهم الأَوديةَ؛ فهذا يَحتاجُ إِلى جُهدٍ وقُوةٍ بدنية ، وهذا هو الجهادُ بالنفسِ في سبيلِ الله.

لقد شملَ العَمَلانِ الجهاديّانِ كُلَّ أَنواعِ الجهادِ المالي والجهادِ البدني ، وعَطَفت الثاني من بابِ عطْفِ الخاصِّ على العام ، ومن بابِ عَطْفِ المرحلةِ الثانيةِ وهي قطْعُ الأَوديةِ على المرحلةِ الأُولى وهي الإِنفاقُ العامّ.

١٦ - عندما ذَكرت الآيةُ الثانيةُ قبولَ أَعمالِ المجاهدين بأَموالِهم وأَنفسِهم ، أَخبرتْ عن كتابةِ هذه الأَعمالِ بذواتِها ، وأُسقطَتْ باءَ البدلِ والعوضِ المذكورةِ في الآيةِ السابقة.

وفرقٌ بعيدٌ ولطيفٌ بين قولِه عنِ الأَعمالِ الخمسةِ في الآية السابقة: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ ، وبين قولِه عن العَمليْن الجهاديّيْن في هذه الآية: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾.

ولا نَنْسى أَنَّ نائبَ الفاعلِ في الآيةِ السابقة مذكور ، وهو البَدَلُ الذي كُتِبَ لهم مقابلَ أَعمالِهم ، وهو ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾. وأَنَّ نائبَ الفاعلِ هذا محذوفٌ في الآيةِ الثانية: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ، والتقديرُ: كُتِبَ لهم عملُهم في الإِنفاقِ وقَطْعِ الأَودية!!.

فرقٌ بين قوله: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ ، وبين قوله: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ، فالجملةُ الأُولى تدلُّ على أنه يُكْتَبُ لهم عملٌ صالح عوضاً وبَدَلاً عن ما صَدَرَ منهم.. أَما الجملةُ الثانيةُ فإِنها تدلُّ على أن عملَهم يُكتَبُ لهم نفسُه ، وليس شيئاً آخرَ بَدَلَه.

وهناك حكمةٌ عظيمةٌ مقصودةٌ في ذكْرِ نائبِ الفاعل وذكْرِ باءِ العِوَضِ في الجملةِ الأُولى ، وحَذْفِ ذلك من الجملةِ الثانية :

إنَّ معظمَ الأَعمالِ الأُولى أَعمالٌ لا إِراديـة ، فـلا تُكتَبُ نفسُها للمجاهدين ، إنما يُكتَبُ لهم عملٌ صالح عوضاً وبدلاً عنها ، كما سبقَ أَنْ بَيَّنّا .

أَما العَمَلان المذكوران في الآيةِ الثانية فهما عَمَلان إِرادِيّان ، يَصْدُران عن نِيَّةٍ ورغبة ، وقصْدٍ وإِرادة ، وهما مُباركانِ مَبروران بنفسَيْهما ، ولذلك يَكتُبُ اللهُ كُلاًّ منهما بنفسِه للمجاهدين ، ويأْجُرُه عليه بذاته ، ولا داعيَ لذكْر باءِ البدلِ والمعاوَضَة هنا .

وبهذا نعرفُ أَنّ إِدْخالَ باءِ العوضِ والبدلِ على الآيةِ السابقةِ مقصود ، وأَنَّ حذْفَها من الآيةِ الثانيةِ مقصود ، وأَنَّ ذكْرَ نائبِ الفاعلِ في الآيةِ السابقة مقصود ، وأَنَّ حذْفَه من هذه الآيةِ مقصود ، وسبحانَ مُنَزِّلِ هذا القرآنِ العظيمِ المعجز ! ! .

١٧ ـ اختلفَتْ خاتمةُ هذه الآيةِ عن خاتمةِ الآيةِ السابقة ، لاختلافِ مستوى أَعمالِ المجاهدين الممدوحينَ في الآيتَيْن .

اخْتُتِمَت الآيةُ السابقةُ بجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، فوَصَفَت المجاهدينَ بأَنهم محسنون ، وأَنَّ اللهَ لا يُضيعُ أَجْرَهم ، الذي منَحهم إِيّاه عوضاً عن ما أَصابَهم من شَدائدَ ومصائبَ لا إِراديّة ، وما قاموا به من إِغاظةٍ للعَدُوّ .

أَما هذه الآيةُ فقد اخْتُتِمَتْ بجملةِ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ، وجاءَتْ هذه الخاتمةُ تعليلاً للآية ، وكأَنها جوابٌ على تَساؤُلٍ في ذهنِ القارئ: لماذا يكتبُ اللهُ للمجاهدين أَجْرَ إِنفاقِهم وخُروجِهم للجهاد؟ فتقدِّمَ له الجملةُ الجوابَ والعِلَّة: يَكتبُ اللهُ لهم ذلك ليَجْزِيَهم أَحسنَ ما كانوا يعملون .

اللاّمُ لامُ التعليل ، و﴿يجزيهم﴾ منصوبٌ بـ«أَنْ» مضمرةً بعدَ لامِ التعليل ، ونَصَبَ الفعلُ مفعولَيْن : الأَوّلُ هو الضميرُ المتصل «هم» ، والثاني

هو أَفعَل التفضيلِ ﴿أَحْسَنَ﴾ . والمصدَرُ من ﴿مَاكَانُواْيَعْمَلُونَ﴾ في محلِّ جَر مُضافٍ إِليه ، أَيْ : ليجزيَهم اللهُ أَحسنَ أَعمالهم .

وعَبَّر عن أَعمالِهم الجهادية بالفعلِ الماضي «كان» للدلالةِ على الدوامِ والكينونة . . وجاءَ خبرُ﴿كَانُواْ﴾ جملةً فعليةً ﴿يَعْمَلُونَ﴾ للإشارةِ إِلى التجددِ والاستمرار . ويَعودُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على الإنفاقِ على الجهادِ وقطْعِ الأَودية .

وتُشيرُ الجملةُ إِلى أَنَّ الأَعمالَ الجهاديةَ الصادرةَ عن المجاهدينَ مستمرةٌ متتابعة ، لا تَنقطعُ ولا تتوقَّفُ ، وأَنها صارَتْ جُزْءاً من كيانِهم ، ومَعْلَماً من معالمِ حياتِهم .

ويُشيرُ أَفعلُ التفضيلِ ﴿أَحْسَنَ﴾ إِلى أَنَّ أَعمالَ المجاهدينَ الصالحةَ كثيرة ، وأَنها متفاوتة ، فمنها الحَسَنُ ومنها الأَحسن ، وأَن من أَحسنِ أَعمالِهم الإِنفاقُ على الجهاد ، والنفيرُ للجهاد ، وقطْعُ الأَوديةِ مجاهدين .

ويُكرمُ اللهُ المجاهدين ، ويتقبلُ جهادَهم ، ويَجزيهم على أَعمالِهم الأَحسن .

١٨ ـ من لطائفِ التعبيرِ في الآيتَيْن ، مما يتصلُ بالحروف :

أ ـ ذُكِرَتْ ﴿لَا﴾ النافيةُ عشرَ مرات ، وهذا رائعٌ ولطيف ، وكانَتْ بمعنَيَيْن :

الأول: حرفُ نفيٍ ، على ظاهِرِها ، وذلك في ثلاثِ مرات ، هي : ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ، و : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، و : ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ .

الثاني: حرف نفيٍ يُرادُ به الحصر ، لوقوع ﴿إِلَّا﴾ بعدَها ، وذلك في المراتِ السبع الباقية : ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ ، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ ، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ .

ب ـ ذُكِرَت الباءُ ثلاثَ مرات ، وكانت فيها كلِّها حَرْفَ جَرٍّ ، ولكنها لم تَرِدْ على معنى واحد ، ولا على حالةٍ واحدة:

المرةُ الأُولى: في قوله: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ ، وذكرنا أنها باءُ الملابسةِ والمصاحبة ، وأنَّها جَرَّت اسْماً ظاهراً.

المرةُ الثانية: في قوله: ﴿بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ﴾ ، وذكرنا أنها باءُ السببية ، وأَنها جَرَّتْ ضَميراً مُتَّصِلاً؛ أَيْ أَنَّ المجاهدينَ ينشطونَ للجهاد بسببِ كتابةِ الأَجْرِ لهم.

المرةُ الثالثة: في قوله: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ ، وذكرنا أَنها باءُ البدلِ والعِوَض ، وقد جَرَّتْ ضميراً متصلاً مفرداً.

وذِكْرُ الباءِ الجارَّةِ ثلاثَ مرات ، في كُلِّ مرةٍ لها معنى غير المرة الأُخرى ، جمالٌ في التعبير القرآني.

من أهم دلالات الآيتين:

ذكَرْنا بعضَ دلالاتِ الآياتِ أثناءَ حديثنا عن معانيها ، وتحليلِنا لجُمَلِها ، ووقوفِنا أَمامَ أَهَمِّ لطائفها ، ومن المناسبِ أَنْ نقفَ هنا لنستخلصَ أَهَمَّ تلك الدلالات:

١ ـ تنهى الآياتُ عن التخلفِ عن الخروج للجهاد ، من خلالِ نفي التخلُّفِ عن المجاهدين: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ ، وهذه الجملةُ خبرٌ في الظاهرِ لكنها نهيٌ في الحقيقة.

٢ ـ تدلُّ الآياتُ على وجوبِ الخروجِ للجهاد ، من خلالِ ثَنائِها على أَهلِ المدينة ومَنْ حولَهم من الأَعراب ، لعدمِ تخلُّفِهم ، ومدْحِهم لمسارعتِهم في الخروج.

٣ ـ ذِكْرُ رسولِ الله ﷺ في قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ لا يَعني تَخصيصَ الآياتِ به ، بمعنى أَنَّ الخروجَ للجهادِ واجبٌ، والتخلُّفَ عنه حرامٌ إذا كانَ الخارجُ هو رسولَ الله

ﷺ، إنما ذِكْرُه ﷺ لأَنَّ السياقَ الذي وَرَدَتْ فيه الآياتُ يتحدَّثُ عن حادثةٍ جهاديةٍ عملية، عندما خرجَ الرسولُ ﷺ إلى غزوة تبوك.

إنَّ حُكْمَ الآيات باقٍ حتى قيامِ الساعةِ، ومعناها مستمرٌّ حتى قيامِ الساعة، وحقائقَها ودلالاتِها تنطبقُ على المجاهدينَ الصادقينَ حتى قيامِ الساعة!.

٤ ـ أَثنت الآياتُ على مجموعتَيْن من المسلمين: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾.

وأَهلُ المدينةِ هم المهاجرونَ والأَنصار، ومَنْ حولَهم من الأَعرابِ هم قبائل حَسُنَ إِسلامُها، مثلُ: غفار وأَسْلَم وجُهَيْنة.

وهؤلاء هم أَفضلُ أَصنافِ المسلمين، وهم يُشَكِّلونَ «القاعدة الصلبة»، التي أَقامَها وأَنشأَها رسولُ اللهِ ﷺ، وربّاها على عينَيْه، ونَصَرَ اللهُ بها الإسلام... لقد تشكَّلت القاعدةُ الصلبةُ من المهاجرين، والأَنصار، والقبائلِ العربيةِ المحيطةِ بالمدينة. وهذه القاعدةُ الصلبةُ هي التي صَدَقَتْ وثَبَتَتْ على الحق، ولم تتأَثَّرْ بالهزاتِ والزلازل، التي أَصابت المسلمين في حياةِ رسولِ اللهِ ﷺ وبعدَ وفاتِه.

٥ ـ يَجبُ على المسلمين أَنْ يَتَأَسَّوا ويَقْتَدوا برسولِ اللهِ ﷺ، وأَنْ يُبرمجوا أَنفسَهم وحياتَهم على حياتِه وسيرتِه.. وهذا معناه أَنْ يَختاروا ما اختاره، وأَنْ يَفْعلوا ما فَعَلَه، وأَنْ يتركوا ما تركَه، وأَن يسيروا في الطريقِ الذي سارَ فيه.

ولا يَجوزُ للمسلمين أَنْ يختاروا خِلافَ ما اختاره، وأَنْ يتركوا ما أَحَبَّه.. وهذا معناه أَنه لا يَجوزُ لهم أَنْ يُؤْثِروا الراحةَ والقُعودَ والسلامة، على النفيرِ والخروجِ والجهاد، فإِنْ فعلوا ذلك رغِبوا بأَنفسهم عن نفسِه، ولا يَجوزُ لهم أَنْ يرغَبوا بأَنفسِهم عن نفسِهِ.

وخَيْرُ مَنْ طَبَّقَ هذه الجملةَ القرآنية: ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هو أَبو خيثمةَ الأَنصاريُّ رضي الله عنه؛ حيثُ ضعفَتْ نفسُه قليلاً، ورَغِبَ بنفسِه عن نفس رسول الله ﷺ قليلاً، ثم قَوّى إيمانَه، ولحقَ بالرسولِ ﷺ في تبوك.

لما خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى غزوةِ تبوك ضَعُفَتْ هِمَّةُ أَبي خيثمةَ الأَنصاريِّ قليلاً، وآثَرَ القُعودَ، ليصلحَ بُستانَه ويقطفَ ثمارَه.. وبعدَ أَنْ سارَ رسولُ اللهِ ﷺ أَياماً كانَ أَبو خيثمةَ يعملُ في بستانِه.. وكانَ له امرأَتان، وكلُّ واحدةٍ في عريشٍ لها في البستان.. فعملَ يوماً في بستانِه إلى الظهر، ولما اشتدَّ الحَرُّ ذهبَ إلى العريشِ ليستريح.. وجدَ كلَّ واحدةٍ من امرأَتَيْه قد جَهَّزَتْ عريشَها لاستقبالِه، حيثُ رَشَّتْه بالماء، وبَرَّدَتْ فيه ماءَ الشرب، وهيَّأَتْ فيه الطعام... ودَعَتْ كلُّ واحدةٍ أَبا خيثمةَ إلى عريشها.

وقفَ أَبو خيثمةَ بين العريشَيْن، وتذكَّر رسولَ اللهِ ﷺ، في سَيْرِه إلى تبوكَ في الحَرِّ والتَّعب.. وقارَنَ بينَ نفسِه وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ، ونظرَ إلى العريشَيْن والمرأَتَيْن والطعام والشراب.. ثم قالَ: رسولُ اللهِ ﷺ في الضَّحِّ والحَرِّ والريح، وأَبو خيثمةَ في ظِلٍّ بارد وَطعامٍ مُهَيَّأ وامرأَةٍ حسناء! ما هذا بالإنصاف!.

وقوّى إِيمانه وعزيمته، وقَرَّرَ الالتحاقَ بالرسولِ ﷺ، وقالَ لامرأَتَيْه: واللهِ لا أَدخلُ عريشَ واحدةٍ منكما، حتى أَلحقَ برسولِ اللهِ ﷺ.. هَيِّئا لي الزاد.. فَفَعَلتا.. ثم ركبَ دابتَه ولحقَ برسولِ اللهِ ﷺ، فأَدركَه وقد نزلَ ﷺ بتَبوك. ورأى الناسُ راكباً على الطريق، فقالوا: يا رسولَ الله! هذا راكبٌ على الطريقِ مقبل. فقالَ ﷺ: «**كنْ أَبا خيثمة**». ولما اقتربَ عرفوه، فقالوا: يا رسولَ الله! هو واللهِ أَبو خيثمة.. فأَقبلَ وسَلَّمَ على رسولِ اللهِ ﷺ، وقصَّ عليه قصَّتَه، فدعا له رسولُ اللهِ ﷺ بخَيْر.

٦ ـ تُشيرُ الآياتُ إلى فَضْلِ الخروجِ للجهادِ في سبيلِ الله، وهو أفضلُ من كثيرٍ من العبادات الفردية، والنوافلِ والفضائل، لأَنه به يُنْصَرُ دينُ الله، ويُواجَهُ أَعداءُ الله، ولذلك لا يتخلَّفُ عن الخروجِ مَنْ كانَ صادقَ الإِيمان، ولا يُؤْثِرُ الراحةَ والعافية، ولا يَقْعُدُ عن نصرةِ هذا الدين!!.

٧ ـ كثيراً ما يُصابُ المجاهدونَ أَثناءَ خروجِهم للجهادِ بكثيرٍ من الشدائدِ والمصائبِ والمشقات، لأَنَّ هذه هي سِماتُ طريقِ الجهاد، فهي ليستْ مُعَبَّدَةً بالراحةِ والسلامة، ولا بالوُرودِ والرياحين، ولا يَصلحُ لها إِيثارُ

الراحةِ والسلامة . . ولا بُدَّ أَنْ يتحمَّلَ المجاهدونَ كلَّ ما يُصيبُهم من الشدائدِ والمشقات ، لأَنَّ هذه من ضروراتِ الطريق .

وعلى المجاهدينَ أَنْ يواجِهوا المَشقّاتِ والشدائدَ بالصبرِ والعزيمة ، وقوةِ الإِرادة ورفْعِ مستوى التحمُّلِ والثبات .

٨ ـ المجاهدونَ مأجورونَ على كلِّ ما يصيبُهم في خروجهم للجهاد ، حتى الأُمور اللا إِراديّة التي تُصيبُهم ، بدونِ قصْدٍ وإِرادَةٍ منهم ؛ يُؤجَرونَ عليها ، كالعطشِ والجوعِ ، والتعبِ والأذى ، والحَرِّ والبرد ؛ أَيْ أَنَّ أَجْرَ المجاهدينَ متواصلٌ منذُ لحظةِ خروجِهم للجهادِ من بيوتِهم إلى عودتِهم إِليها ؛ لأَنه لا يخلو أَحَدُهم من جوعٍ أَو عطشٍ أَو تعب .

٩ ـ كلُّ أَعمالِ المجاهدِ عبادة ، يكتبُ اللهُ له عليها الأَجْرَ والثواب ، حتى الأُمور الفطرية والبيولوجية التي تصيبُه لأَنه إِنسان ؛ عبادَةٌ منه ، وله عليها الأَجْرُ والثواب .

ومن الأَدلةِ على فضلِ الجهادِ أَنَّ حركةَ المجاهدِ عبادة ، وسيرَه عبادَة ، ونومَه عبادة ، وأكلَه وشُرْبَه عبادَة ، وجوعَه وعَطَشه عبادَة ، وتَعَبَه وعَرَقَه عبادَة ، وراحَتَه وجلوسَه عبادة . . وله على كلِّ ذلك جزيلُ الأَجْرِ والثواب ؛ أَيْ أَنه في كلِّ لحظةٍ من يومِه عابدٌ مأجور ، فكم سيكونُ أَجْرُه إِذا استمرَّ في جِهادِه شهوراً وسنوات؟ .

١٠ ـ لا يَنالُ المجاهدُ الأَجْرَ المذكور ، ولا يكونُ عابداً في المجالاتِ المذكورة إلاّ إِذا استحضرَ نيَّتَه عند خروجِه للجهاد ، واستمرَّ على تلك النيةِ مُدَّةَ جهادِه . . لا بُدَّ أَنْ يكونَ خروجهُ للجهاد من أَجلِ نصرةِ دينِ اللهِ ، وأَنْ يكونَ خالِصاً لله ، يبتغي بذلك وَجْهَ الله ، بدونِ رياءٍ أَو تكبُّرٍ أَو مباهاة . . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ لقد قَيَّدت الآيةُ إِصابةَ الظمأ والتعبِ والجوعِ بأَنها في سبيلِ الله ، لينالَ المجاهدُ الأَجْرَ من الله .

وهذا ما وضَّحَه رسولُ اللهِ ﷺ ، فقد سُئِلَ عن الرجلِ يُقاتِلُ حَمِيَّة ،

ويقاتلُ رياءً ، ويُقاتِلُ شجاعة . . أَيُّ ذلك في سبيلِ الله؟ فقالَ ﷺ: «**مَنْ قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هِي العُلْيا فهو في سبيلِ الله**».

١١ ـ يَجبُ تَصنيفُ الآخَرينَ على أَساسِ الدّين ، وبَيانِ قُرْبِهم أَو بُعْدِهم من المسلمين على أَساسِ الدّين ، فالهوية «الدينيَّةُ» هي الأَساسُ في تصنيفِ الآخرين ، وفي تحديدِ طبيعةِ المواجهةِ بينَ المسلمين وأَعدائِهم . . إنَّ المسلمين يُجاهِدونَ الآخَرينَ لأَسبابٍ دينيّة ، وإنَّ معركتَهم مع الآخَرين معركةٌ دينيَّة ، وإنَّ الصفةَ الأَساسيةَ لهؤلاء الآخرين أَنَّهم «كفارٌ أَعداء» ، ويَنظرُ لهم المجاهدونَ بهذا المنظار ، ويَتَعاملونَ معهم على هذا الأَساس ، ويُجاهدونَهم لهذه الأَسباب . وهذا ما ذكَرَتْه الآياتُ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ .

١٢ ـ عند خروجِ المجاهدين للجهاد لا بُدَّ أَنْ يَحرصوا على وَطْءِ مواطئ الكفار ، وهذا ما أَرشدَتْهم إليه الآية: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ . ومَرَّ مَعَنَا في تحليلِ الآيتَيْن أَنْ ﴿مَوْطِئًا﴾ اسْمُ مكان ، ويُرادُ به الأَرضُ أَو البلدُ أَو البقعة ، وفي هذا إشارةٌ إلى «البعْدِ الجغرافيِّ» للجهاد ، بأَنْ يحتلَّ المجاهدون مواقع ميدانيةً من بلادِ الكافرين ، ويَطَؤوها ويَدوسُوها ويتحرَّكوا ويتجوَّلوا فيها . . وإذا لم يَهدف المجاهدون من خروجِهم ومعارِكِهم إلى وطءِ أَراضي الكفارِ واحتلالِ بلدانِهم ، لم يكنْ للخروجِ أَو المعارِكِ فائدة!! .

١٣ ـ تدلُّ الجملةُ الفعلية: ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ على دلالةٍ مهمة ، لا بُدَّ أَنْ ينتبهَ ويَلتفتَ لها المجاهدون ، وهي أَنَّهم لا بُدَّ أَنْ يَحرصوا في جهادِهم ومعارِكهم على «إغاظَةِ» الكفار ، وأَنْ يَستخدموا كلَّ وسيلةٍ يُغيظونَ بها الكفار ، وإغاظتُهم للكفارِ واجبة ، وهي عبادةٌ منهم لله!! .

والإغاظةُ تَعني استفزازَ الكفار ، والحرصَ على توترِ أَعصابِهم ، وملءَ نفوسِهم بالغضبِ والحنقِ والتوترُّ . . ومعنى هذا أَنه لا تَجوزُ مراعاةُ «مشاعرِ» الكفارِ المحاربين ، أَوِ الحرصُ على «هدوء أَعصابهم»!! .

على المجاهدين إبقاءُ نفسياتِ الكفارِ متوترَة ، وأَعصابِهم مشدودَة ، وأَنْ

يَمْلَؤوا قُلوبَهم غَيْظاً وغَضَباً ، حتى لا يَشْعُروا بالهدوءِ أَو الراحة .

ومعنى هذا أَنَّ من مظاهِرِ الحربِ بين المسلمين والكافرين «الحربَ النفسية» ، وهي تَسيرُ مع «الحربِ العسكرية» جَنْباً إِلى جَنْب . . ويَجبُ على المجاهدينَ الصادقين أَنْ يَشُنّوا على الكفارِ حَرْباً نفسيةً شديدة ، يهدفون فيها إِلى تحطيمِ معنوياتِهم ونفسياتِهم ، وقتْلِ هممِهم وعزائِمِهم . . ومن مظاهِرِ ذلك استخدامُهم كلَّ ما يُؤَدّي إِلى ملء قلوبِهم غيظاً ! ! .

١٤ ـ على المجاهدينَ أَنْ يُحْسِنوا التخطيطَ في جهادِهم الأَعداء ، بأَنْ يحرِصوا على أَنْ يَنالوا من هؤلاءِ الأَعداء : ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ .

والنَّيْلُ في الآيةِ عامّ ، لأَنَّ ﴿نَّيْلًا﴾ في الجملةِ نكرَة ، وتَنكيرُها لعمومِها وشمولِها ، يدخلُ فيها كُلُّ صُوَرِ ومظاهِرِ ومجالاتِ وحالاتِ النَّيْلِ الذي يَنالونَه من الأَعداء .

والمرادُ بهذا العمومِ هنا إِيقاعُ الأَذى والضَّررِ في الكفارِ الأَعداءِ المحاربين ، بمعنى أَنْ يَحرصَ المجاهدونَ على إِيصالِ الأَذى للأَعداء ، وإِصابتِهم بالضَّرَر ، وذلك لإِغاظتِهم وإِغضابِهم .

وكلُّ صُوَرِ ومظاهِرِ النَّيْلِ عبادة ، يتقرَّبُ بها المجاهدون إِلى الله ، ويَنالونَ بها الأَجْر ، وقد يكونُ هذا النَّيْلُ عسكريّاً باستخدامِ الأَسلحة ، وإِصابةِ أَفرادِهم وجنودِهم ، وقد يكونُ نَيْلاً اقتصاديّاً يُوَجَّهُ لاقتصادِهم ، وقد يكونُ نَيْلاً عمرانيّاً يُوَجَّهُ لمؤسساتِهم ومراكِزِهم ومصانِعِهم وشوارِعِهم وجسورِهم ومركباتِهم ، وقد يكونُ نَيْلاً نفسيّاً يُوَجَّهُ إِلى هممِهم وعزائِمِهم ، وقد يكونُ نَيْلاً إِعلاميّاً يُوَجَّهُ إِلى أَسماعِهم وأَبصارِهم وعُقولِهم ، وقد يكونُ نَيْلاً دوليّاً يفضَحُهم في المراكزِ والمؤسّساتِ والمحافلِ الدولية ، وقد يكونُ نَيْلاً استراتيجيّاً يوجَّهُ إِلى أَهدافِهم ومخططاتِهم ورُؤاهم المستقبلية ، وقد يكونُ نَيْلاً حضاريّاً يَهدفُ إِلى انتزاعِ القيادةِ والسيادةِ والحضارةِ منهم .

إِنَّ المجاهدينَ في حالةِ حربٍ مع الكافرين المعادين المحاربين ، وإِن حَرْبَهم لهؤلاءِ الأَعداءِ «مفتوحة» على كافَّةِ أَسلحتِها واتجاهاتِها ومظاهِرِها . وهم في كلِّ مظهرٍ ومجالٍ يَنالونَ من الأَعداء ، وهذا النَّيْلُ يُؤَدّي إِلى إِضعافِهم

وهزيمتِهم ، وهذه هي طبيعةُ المعركةِ والمواجهة. . والمجاهدونَ بكُلِّ نَيْلٍ عابِدونَ مأجورونَ عندَ الله!!.

١٥ ـ يَكتبُ اللهُ بكلِّ عملٍ يعملُه المجاهدونَ في حركتِهم الجهادية عَمَلاً صالحاً: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾؛ يُكتبُ لهم أَجْرُ عملٍ صالحٍ بكلِّ عطشٍ أَو جوعٍ أَو تعَب ، أَو مواجهةٍ أَو نَيْلٍ أَو قتال. وَوَصْفُ العملِ الذي يَكتبُه اللهُ لهم بأَنَه ﴿صَٰلِحٌ﴾ يدلُّ على أَنَّ اللهَ يحبُّ ذلك العملَ الجهادي ، ويُباركُهُ ويَحفظُه لأَصحابه ، ويأْجُرُهم عليه.

وَتَرُدُّ هذه الجملةُ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ على شبهاتِ واتهاماتِ الكافرين للمجاهدين. إِنهم يَهدفون إِلى تشكيك المجاهدينَ بالجهاد ، وتَشويهِ سمعَتِهم أَمامَ الشعوب ، ولذلك يَصفونَ أَعمالَهم الجهاديةَ بصِفاتٍ باطلة ، يَصفونَها بأَنها إِرهابٌ وتَخْريبٌ وتَدْمير ، وعنفٌ وإِفسادٌ وعدوان!! وهم كاذبونَ في هذه الاتهاماتِ والتوصيفات. . إِنَّ أَعمالَ المجاهدين مشكورَةٌ مبرورةٌ مباركةٌ عند الله ، وقد كَتَبَ لهم بها عملاً صالحاً!!.

١٦ ـ وَصَفَ اللهُ المجاهدين بأَنهم محسنون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. والمجاهدونَ الصادقونَ المخلصونَ محسنونَ في كلِّ شيء ، ومن ذلك حركَتُهم الجهادية ، وأَعمالُهم الصادرةُ عنهم أَثناءَ حركتِهم. والإِحسانُ هو إِتقانُ العملِ وإِجادَتُه ، وأَداؤُه على أَحسنِ وأَرفعِ وأَرقى صورِ الأَداء.

وهذا رَدٌّ آخرُ على شبهاتِ الأَعداءِ ضدّ المجاهدين ، فهم قد يصفونَهم بأَنهم إِرهابيّون ، أَو مُخرِّبون ، أَو مُفْسِدون ، أَو مُدَمِّرون ، أَو سفّاكوا الدماء ، أو قتلةُ الأَبرياء!! وهذه اتهاماتٌ باطلة ، سرعانَ ما تَتلاشىٰ أَمامَ وصْفِ اللهِ لهم بأَنهم محسنون.

١٧ ـ تُشيرُ الآياتُ إِلى نوعَي الجهاد المعروفَيْن: الجهادِ بالمال ، والجهادِ بالنَّفْس. الجهادُ بالمالِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾. والجهادُ بالنفسِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ ، إِضافة

إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾.

١٨ ـ أيُّ إنفاقٍ على الجهادِ عملٌ مبرور مُتَقَبّلٌ، يُؤجَرُ عليه المنفِق، حتى لو كانَ قليلاً أَقَلَّ من دينار؛ لأَنَّ المنفقينَ يُنفقونَ حسبَ سَعَتِهم وأَموالِهم، وهم يَتفاوتونَ في مستواهم المالي، فهناك الأَغنياءُ وهناك الفقراء، ولعلَّ درهَماً ينفقهُ فقيرٌ على الجهادِ يَسبقُ أَلْفَ درهمٍ من غني!!.

١٩ ـ المجاهدونَ قومٌ عمليّون، يَحرصونَ على استمرارِهم في أَداءِ أَعمالِهم الجهادية، المتمثلةِ في الإِنفاق، وفي قطعِ الأَودية، وفي وطءِ المواطئَ والمناطق.. وهذهِ كلُّها أَعمالٌ صالحةٌ تصدرُ عنهم، وهي عباداتٌ يتقرَّبون إلى اللهِ بها.

٢٠ ـ اعتبرت الآياتُ الجهادَ من أَحسنِ أَعمالِ المجاهدين، فقالت: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ فالمجاهدونَ مُحْسِنون، والجهادُ أَحسنُ أَعمالهم، وهو أَفضلُ من كثيرٍ من الأَعمالِ الفردية الشخصية. وهذا دليلٌ آخرُ على فَضْلِ الجهادِ والمجاهدين!!.



الفصل الخامس

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾

قال الله عز وجل: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومًا مَّدۡحُورًا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

هذه أَربعُ آياتٍ من سورةِ الإسراءِ المكية، تتحدَّثُ عن صنفَيْنِ من النّاس، وما يُريدُه كُلُّ صِنْف، وماذا يُعطي اللهُ كُلَّ صِنْف، والتَّفاضل والتَّمايز بينَ الصنفين.. صنفٌ قَصيرُ النظر، يُريدُ العاجلةَ، يُعطيه اللهُ منها ما قَدَّرَهُ له. وصِنفٌ نافِذُ النظر، يُريدُ الآخرةَ الباقية، ويَسعى لها سَعْيَها وهو مؤمن، يكرمُه اللهُ فيها. وشَتّانَ بينَ رغباتِ وإراداتِ وأَهدافِ الصنفين.

الذي يُريدُ الدنيا العاجلة، يُعَجلُ اللهُ له نصيبَه منها، ثم يُعَذِّبُه في جهنم في الآخرة: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومًا مَّدۡحُورًا﴾.

والذي يُريدُ الآخرةَ الباقية، لا بُدَّ أَنْ يَسعى لها سَعْيَها، وأَنْ يكون مؤمناً، ليقبَلَ اللهُ عمله، ويشكرَ له سعْيَه، ويُحققَ له هَدَفَه: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾.

ومن حكمةِ اللهِ أَنه لا يَحرمُ أَيَّ إِنسانٍ مما يُريدُه، وإِنما يُعطيه مما يُريد، ولذلك يُعطي مُريدَ الدنيا من عطائِه، ويَمُدُّ مُريدَ الآخرةِ من عطائِه: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾.

وبعدَ ذلك يأتي التفكيرُ في الصنفَيْن ، والتأمُّلُ في المُرادَيْن ، والنظرُ في النهايتين والمآلَيْن ، والاعتبارُ من ذلك ، ومُلاحظةُ الفروقِ والمراتبِ والدرجات: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

ونقِفُ وقفةً تحليليةً مع جُمَلِ الآيات ، للحديثِ عن حقائِقها .

١ ـ قوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ :

الذي يُريدُ الدنيا العاجلةَ ، ويَسْعى إِليها ، ويتوَجَّهُ بهمَّتِه وقدراتِه وأَعمالِه إِليها ، يُعجلُ اللهُ له فيها ما قَدَّرَهُ له ، ويُعطيهِ منها ما أَرادَهُ وشاءَه ، وما كتبه له وفقَ حكمتِه سبحانه .

﴿ مَّن ﴾ : اسْمُ شرط ، في محلِّ رفع مبتدأ . وجملةُ: ﴿ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ : فعلُ الشرط . وجملةُ: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ ﴾ : جوابُ الشرط ، وهو في محلِّ رفع خَبَر .

واسْمُ ﴿ كَانَ ﴾ : تقديرُه «هو» ، يَعودُ على اسْمِ الشَّرْط . وجملةُ ﴿ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ الفعليةُ: في محلِّ نصب خبرِ ﴿ كَانَ ﴾ . و﴿ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ : مفعولٌ به للفعلِ ﴿ يُرِيدُ ﴾ ؛ أَيْ: مَنْ كانَ مُريداً العاجلةَ .

و﴿ عَجَّلْنَا ﴾ : فعلٌ ماض ، وفاعلُه عائدٌ على الله ، والضميرُ المجرورُ في ﴿ لَهُۥ ﴾ يَعودُ على اسْمِ الشَّرْطِ ﴿ مَّن ﴾ . و﴿ مَا ﴾ : اسْمٌ موصول في محلِّ نَصْب مفعولٍ به . والفعلُ المضارعُ ﴿ نَشَآءُ ﴾ وفاعلُه المستتر ، صلة الموصول . و﴿من﴾ : اسْم موصول في محلِّ جَرّ . والفعلُ المضارعُ ﴿ نُّرِيدُ ﴾ وفاعلُه المستترُ صلةُ الموصول ، وشبهُ جملةِ ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ بَدَلٌ من شبهِ جملةِ ﴿ لَهُۥ ﴾ قبلَها .

ويَترَتَّبُ جَوابُ الشَّرْط ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ على فعل الشرط : ﴿ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ ، وهو وَعْدٌ من الله ، واللهُ يُنجزُ وَعْدَه ولا يُخلفه ، فَاللهُ يُعَجِّلُ لمريدِ الدنيا رِزْقَه ، ويُعطيه ما قَدَّرَهُ له منه .

والآيةُ عامَّةٌ في كُلِّ مَنْ يُريدُ العاجلة ، بدلالةِ اسْمِ الشرط ﴿ مَّن ﴾ ، ومعلومٌ أَنَّ أَسماءَ الشرطِ كأسماء الموصولِ من صِيَغِ العموم .

و﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾: صفةٌ لموصوفٍ مَحْذوف، تقديرُه: «الحياةَ». أَيْ: مَن كانَ يُرِيْد الحياة العاجلة؛ وهذه الحياةُ العاجلةُ هي الدنيا.

و﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾: اسْمُ فاعلٍ مُؤَنَّث، والعَجَلَةُ هي الإسراعُ، والعَجولُ هو المسرعُ. قالَ الإمامُ الراغب: «العَجَلةُ: طَلَبُ الشيء، وتَحَرّيه قبلَ أَوانِه، وهو من مُقْتَضى الشهوة، فلذلك صارَتْ مذمومةً في عامّةِ القرآن»(١).

وسُمِّيت الدنيا عاجلةً لِسرعةِ مُرورِها، وسُرعةِ انقضائِها، وسُرعةِ زَوالِ مُتَعِها ومَلَذّاتها، وسرعةِ طلبِ الإنسانِ لها، وتَلَهُّفِه عليها.

وحكمةُ التعبيرِ بالفعلِ الماضي الناقصِ ﴿كَانَ﴾ في ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ الإشارةُ إلى أَنَّ طَلَبَ هذا الإنسانِ للعاجلةِ ثابتٌ مستقرٌّ عِندَه، وأَمْرٌ «كائنٌ» مُلازمٌ له.

وحكمة التعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في خبرِ ﴿كَانَ﴾ الإشارةُ إلى تَجَدُّدِ واستمرارِ إرادَتِه لهذه الدنيا العاجلة.

هذا الإنسانُ العَجولُ، الذي يُريدُ مَتاعَ ولَذَّةَ وشهوةَ الحياةِ العاجلة، يُحقِّقُ اللهُ له ما يُريد، ويُعطيهِ من ذلك ما قَدَّرَهُ له.

وعَبَّرَ عن إعطائِه مُرادَه بلفظِ التعجيلِ: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾؛ أَي: بادَرْنا إلى إعطائِه ذلك، وأَسْرَعْنا في صرفِه له؛ لأَنه ليس له في الآخرةِ إلاّ النّار.

والتناسقُ والاتصالُ ملحوظٌ بينَ ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وبينَ فعْلِ ﴿عَجَّلْنَا﴾؛ فالتعجيلُ هو الإسراعُ بإعطاءِ المتعجِّلِ الذي يُريدُ العاجلةَ.

والتعجيلُ في الآيةِ خاصٌّ لمريدِ العاجلة، وهو صاحبُ الضميرِ المجرور، في ﴿لَهُۥ﴾.

والمعَجَّلُ للمتعَجِّلِ عامٌّ، بدلالةِ اسْمِ الموصولِ المفعولِ به ﴿مَا﴾ في ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾؛ لأَنَّ اسْمَ الموصول يَدُلُّ على العُموم. وهذا الأَمْرُ

(١) المفردات، ص: ٥٤٨.

المعَجَّلُ يَشملُ كُلَّ ما يعجِّلُه اللهُ للمتَعَجِّلِ، من طعامٍ وشرابٍ، ولباسٍ ومتاع، ومالٍ وشهوة، ومنصبٍ وجاه، وغير ذلك..

لكن: هل يُعطي اللهُ لهذا المتعَجِّلِ كُلَّ ما يُريدُه ويطلبُه ويَسعى إِليه؟.

كلا! إنَّ اللهَ لا يُعطيهِ إلاّ ما قَدَّره هو له بحكمتِه، ولذلك كانَ التعبيرُ في الآيةِ مُقَيَّداً بإرادةِ اللهِ ومشيئتِه: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾؛ فالفِعْلانِ المضارعانِ ﴿نَشَآءُ﴾ و﴿نُّرِيدُ﴾ يَدُلاّن على هذا التقييد.

ومفعولُ ﴿نَشَآءُ﴾ محذوف، دَلَّ عليه الموصولُ قبلَه ﴿مَا﴾. والتقديرُ: ما نَشاءُ تَعجِيلَه له.

ومفعولُ ﴿نُّرِيدُ﴾ محذوفٌ أَيْضاً؛ تقديرُه: لمن نريدُ تَعجيلَه له.

فاللهُ عندما يُعَجِّلُ للمُتَعَجِّلِ، يُعطيه ما شاءَ وأَرادَ هو إعطاءَه سبحانه، وليس ما أَرادَه المتعجِّلُ وطَلَبَه وسعى إليه، فالذي يُعطيهِ اللهُ له هو بعضُ ما يُريدُه!!.

وشبهُ الجملةِ ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بَدَلٌ من شبهِ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾. وبعبارةٍ أَدَقّ: الموصولُ المجرورُ في ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بَدَلٌ من الضميرِ المجرورِ في ﴿لَهُۥ﴾. وهذا البَدَلُ بهدفِ البيانِ والتَّفصيلِ؛ لأَنَّ الضميرَ في ﴿لَهُۥ﴾ مُبْهَم، فاقتضَى الأَمْرُ أَنْ يُؤتى بشبهِ جملةٍ بعدَه بَدَلاً منه لتكونَ تبييناً له.

وجمعت الجملةُ بينَ الإرادةِ والمشيئة: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، وهما مُتَقاربتانِ في المعنى، ولَيْسَتا مترَادفتَيْن، لأَنه لا ترادُفَ في القرآن. وذُكِرَت الإِرادةُ بعد المشيئةِ من بابِ التَّفَنُّنِ في التعبير، ومَنْعاً للتكرار.

والأفعالُ الثلاثةُ مسندَةٌ إلى الله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾؛ لأَنَّ الفاعلَ فيها ضميرُ «نا» الدالُّ على عظمةِ الله، والعائدُ إلى الله.

وهذا الإِسنادُ في الأَفعالِ حقيقي، يُشيرُ إِلى حقيقةٍ عقيدية، وهي أَنَّ الأَفْعالَ كلَّها بيدِ الله، فهو الفاعلُ لكلِّ شيء، والمعطي لكلِّ شيء، والمانعُ لما يَشاءُ مَنْعه...

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾:

هذه الجملةُ معطوفةٌ على جوابِ الشرط: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وتُخبرُ هذه الجملةُ عن ما ينتظرُ المتعجِّلَ في الآخِرَة، فهو قد أَخَذَ نَصيبَه من الرزقِ والمتاعِ في الدنيا، ولم يَبْقَ له شيءٌ من الخيرِ عندَ الله، لكُفْرِه وانحرافِه، فالذي ينتظرُه في الآخرةِ هو العَذاب.

وعُطفت الجملةُ الثانيةُ على الأُولى بحرفِ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأَنه يَدُلُّ على التَّراخي الرُّتَبيِّ والتَّراخي الزَّمني، فالآخرةُ الآجلةُ متراخيةٌ عن هذه الحياةِ الدنيا العاجلة.

جَعَلَ اللهُ لهذا المتعجِّلِ في الآخرةِ النّار. و﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى «صَيَّرْنا»، ولذلك يَنصبُ مفعولَيْن؛ المفعولُ الأَولُ مُؤَخَّر، هو ﴿جَهَنَّمَ﴾، والمفعولُ الثاني مقدم، هو شبهُ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾. والتقديرُ: جَعَلْنا وصَيَّرْنا جهنَّم مُعَدَّةً له.

و﴿يَصْلَىٰهَا﴾: فعلٌ وفاعلٌ ومفعولٌ به، في مَحَلِّ نصب حال، وصاحبُ الحال هو الضميرُ في ﴿لَهُۥ﴾؛ أَيْ: جعلْنا له جهنَّمَ صالياً لها.

ومعنى ﴿يَصْلَىٰهَا﴾: يُعَذَّبُ بها ويَحترقُ فيها.

و﴿مَذْمُومًا﴾: حال. و﴿مَّدْحُورًا﴾: حالٌ أخرى، وكلٌّ منهما اسْمُ مفعول.

والمذْمومُ: هو الذي يَستحقُّ التوبيخَ والإِذلال، والتعذيبَ والعِقابَ، لأَنه ارتكبَ ما استحقَّ به ذلك. والمدْحورُ هو المطرودُ من رحمةِ الله وفَضْلِه، والمَحْرومُ من جنَّتِه ونَعيمِه، وهو استحقَّ ذلك لأَنه تعجَّلَ وأَرادَ العاجلةَ.

وماذا استفادَ هذا المتعجِّلُ؟ لقد استنفدَ نَصيبَه في الدنيا، وذهبَتْ لَذَّته ومُتْعَتُه، وبَقيتْ مسؤوليتُه وتبعتُه! وها هي جهنمُ مُعَدَّة له!.

وبمعنى هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

﴿أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

٣ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾:

تتحدَّثُ الآيةُ عنِ الصنفِ الثاني من الناسِ، وهم المؤمنونَ البَصيرونَ، الذينَ أَرادوا الآخِرَة، وطَلَبوها بصالحِ الأعْمال، وتُخبرُ أَنَّ اللهَ يتقبَّلُ عَمَلَهم، ويشكُرُ سعيَهم.

وقد عُطِفَ هذا الصنفُ على الصنفِ السابقِ بحرفِ الواو. والعَطْفُ عَطْفُ آيةٍ على آيَة، وعَطْفُ صِنفٍ على صِنف، وعطْفُ جملةٍ شرطيةٍ على جملةٍ شرطية.

﴿مَنْ﴾: اسْمُ شرط. وجملةُ ﴿أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾: فعْلٌ وفاعلٌ ومفعولٌ به، وهي فعلُ الشرط. وجملةُ ﴿سَعَىٰ لها سعيها﴾، معطوفةٌ على فعلِ الشرط. وجملةُ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جملةٌ اسميةٌ في محلِّ نصبِ حال. وجملةُ ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ جوابُ الشرط. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: في محلِّ رفع مبتدأ. و﴿كَانَ﴾ واسْمُها وخَبَرُها في محلِّ رفع خبر.

واخْتَلَفَ التعبيرُ عن مريد العاجلةِ ومُريدِ الآخرة.. فقالَت الآيةُ عن الأَوَّل: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾، وذَكَرْنا حكمةَ التعبيرِ بفعلِ ﴿كَانَ﴾، وحكمةَ مجيء خبرها فعلاً مضارعاً ﴿يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾.. وقالَت الآيةُ عن الثاني: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾؛ فَحذفت ﴿كَانَ﴾، لأَنَّ لا داعي للإشارةَ إِلى «الكون» هنا.. وأَتَتْ بالفعلِ الماضي ﴿أرادَ﴾ لأَنه يدلُّ على الثَّباتِ والتمكُّنِ والاستقرار. فإرادةُ المؤمنِ لِلآخرةِ حقيقةٌ ثابتة، راسخةٌ في كيانه، لا تَنفصلُ عنه.

و﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾: اسْمٌ أُطلقَ في القرآنِ على الحياةِ الثانية، التي يَحْياها الناسُ بعدَ البعث؛ وهي في مقابلِ «الدنيا».

وبِما أَنَّنا اعتبَرْنا ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ صفةً لموصوفٍ محذوف: مَنْ كانَ يُريدُ الحياةَ العاجلة، فيمكنُ أَنْ نعتبرَ ﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ أيضاً: ومَنْ أَرادَ الدارَ الآخرة، أَو: الحياةَ الآخرة.

و﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾ مذكورةٌ في مقابلِ ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾؛ ففي العاجلةِ مَعْنى العجلةِ والسرعةِ والتعجيل، وفي الآخرةِ مَعْنى البطء والتَّأني والتأخير؛ وهي «آخِرَةٌ» لأَنه ليس بعدَها حياةٌ ولا دار!.

وتَمدحُ الآيةُ المؤمنَ مُريدَ الآخرة، وتُثْني عليه، ولذلك تتوسَّعُ في الحديثِ عنه، في الوقتِ الذي أَوْجزَت الكلامَ فيه عن مُريدِ الدنيا؛ فقالَتْ سابقاً: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، بينما قالَتْ هنا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾! وَفرْقٌ بينَ الحديثِ عن الصنفِ المذموم بجملةٍ واحدة، والحديثِ عن الصنفِ المحمودِ بثلاثِ جُمَل!!.

وجملةُ ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾: معطوفةٌ على جملةِ ﴿أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ﴾.. وعَبَّرَ عن السعي بالفعلِ الماضي، ليتناسَبَ مع التعبيرِ عن الإرادةِ بالفعلِ الماضي، أَي أَنَّ سعيَ هذا المؤمنِ للآخرةِ ثابتٌ مستقرٌّ، لا يتوقَّفُ عنه، مثلُ استمرارِ إرادَتِه للآخِرة.

والسعيُ حالَةٌ متوسطةٌ بينَ المشي البطيءِ والعَدْوِ السَّريع؛ يُقال: فُلانٌ يَمشي؛ فإنْ أَسرعَ قيل: فُلانٌ يَسْعى، فإنْ ضاعَفَ سُرْعَتَه قيل: فُلانٌ يَعْدو ويَجْري!.

وقد يكونُ السعيُ بواسطةِ الرِّجْلَيْن، وقد يكونُ سَعْياً معنوياً، بمعنى الاهتمامِ بالشيء والاستعدادِ له والإقبالِ عليه. وقد يكونُ بجمعِ الأَمْرَيْن: بأَنْ يَسعى إلى الشيء برجلَيْه، ويَهتمَّ به ويُقبلَ بقدراتِه عليه.

والمرادُ بالسعي هنا الجمعُ بين السعي الماديِّ والمعنوي، وذلكَ بأَنْ يُسْرِعَ بالأعمالِ الصالحة، ويُسابِقَ إليها، وأَنْ يستعدَّ لها، ويتوجَّهَ بكلِّ طاقاتِه إليها.

وتعدَّى فعلُ ﴿سعىٰ﴾ للضميرِ بحرفِ اللاّم: ﴿سعىٰ لها﴾ ، وليست بحرفِ «إلى». وفَرْقٌ بين قولك: «سعيتُ إلى الشيء»، وقولكَ: «سعيتُ للشيء» ؛ فإنَّ الجملةَ الثانية أَكثر توكيداً. . واللاّم في ﴿سعىٰ لها﴾ تُفيدُ معنى العِلَّة ، فكأَنَّ سَعْيَ هذا الساعي ، إنما هو لأَجلِ الآخرةِ ، أَيْ: كانَ عمله وجُهْدُه وكُلُّ نشاطِه لأَجْلِ الفوزِ في الآخرةِ.

وفعلُ ﴿سعىٰ﴾ لازِمٌ ، لا يَحتاجُ إِلى مفعولٍ به ، والمصدَرُ ﴿سَعْيَهَا﴾ مفعولٌ مُطْلَق.

ويُشيرُ عطْفُ جملةِ ﴿سَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ على جملةِ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ إِلى أَنَّ إِرَادَةَ الآخرةِ وَحْدَها من غير سعْيٍ وعملٍ وجدٍّ واجتهادٍ لا تكفي ، ولا توصل صاحبَها إِلى ما يُريد ، وأَنه لا بُدَّ أَنْ تُترجَمَ الإِرادَةُ إِلى عملٍ ، يتمثَّلُ بالسعيِ الصادِقِ الحثيثِ ، للوصولِ إِلى المراد.

وجملةُ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: جملةٌ اسمية ، مكوَّنَةٌ من مبتدأ وخبر ، وهذه الجملةُ في محلِّ نصب حال ، وصاحبُ الحالِ هو الضميرُ المستترُ ، الذي هو فاعلُ ﴿سعىٰ﴾ ، والعائدُ على ﴿مَنْ أرادَ الآخِرَةَ﴾. والتقديرُ: أَرادَ الآخرة ، وسعى لها سَعْيَها ، مؤمِناً بالله.

وعَبَّرَ عن الحالِ بالجملةِ الاسميةِ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لإِفادَةِ معنى الثباتِ والاستقرار ، والدَّوامِ والرسوخ ، لأَنَّ الجملةَ الاسميةَ تدلُّ على هذه المعاني.

وتدلُّ الجملةُ الحالية ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ على حقيقةٍ عقيديّة ، وهي أَنَّ الإِيمانَ المطلَقَ بتحقيقِ أَركانِه الستة ـ شَرْطٌ لِقَبولِ العملِ عند الله!!.

وجملةُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ جوابُ الشرط ؛ فالفاءُ فيها لربطِ جوابِ الشرطِ بفعْلِ الشرط.

واللطيفُ أَنَّ فعلَ الشرطِ جاءَ مُفْرَداً في اللفظ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ، بينما جاءَ جوابُ الشرطِ جَمْعاً في اللفظ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

و﴿أولئك﴾: اسْمُ إِشارةٍ لِلجَمْع ، والمُشارُ إِليه مجموعُ الذينَ يُريدونَ

الآخرة ، ويسعونَ لها سَعْيَها ، وهم مؤمنون ، وهو المجموعُ الناتجُ عن «تَجَمُّعِ» أَفرادٍ مؤمنين ، كلٌّ منهم يُريدُ الآخرة.

ويدلُّ اسْمُ الإشارةِ على أَنَّ ما قبلَه سببٌ في تحقُّقِ ما بعْدَه ، فلم يكنْ سَعْيُ هؤلاءِ المؤمنين مشكوراً ، إلاّ لأنهم أَرادوا الآخرة ، وسَعَوْا لها سَعْيَها.

وَوُصِفَ سعيُهم بأَنه مشكورٌ ، أَيْ أَنه مقبولٌ عند الله ، وهذا من بابِ المبالغةِ في مَدْحِهم والثناءِ عليهم ، لأَنَّ المشكورَ في الحقيقةِ ليس السعي ، وإنما هو صاحبُه ، تقول: عَمِلَ فلانٌ عَمَلاً ، وقُبِلَ عملُه ، وهو مشكورٌ عليه.

وعَبَّرَ عن قَبولِ العملِ وشكْرِ صاحبِه عليه بالفعلِ الماضي ﴿كَانَ﴾ ، للإِشارَةِ إِلى ثَباتِ وتحقُّق ذلك ، فكأَنه مَقبولٌ مشكورٌ منذ زمن ماضٍ بعيد.

وندعو إِلى المقارنةِ بين الجملتَيْن: الأُولى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ، الثانية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ ، وملاحظةِ الفرقِ البعيدِ بين دلالةِ ﴿كَانَ﴾ في الجملةِ الأُولى التي هي للذَّمِّ ، و﴿كَانَ﴾ في الجملةِ الثانيةِ التي هي للمدح.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾:

بعدَ الحديثِ عن الذين يُريدونَ العاجلة ، والذين يُريدونَ الآخِرة ، وبيانِ ماذا لكلٍّ منهم عندَ الله ، تتحدَّثُ هذه الآيةُ عمّا أَعَدَّ اللهُ لهم.

﴿كُلًّا﴾: مفعولٌ به منصوب ، مُقَدّمٌ على فعلِهِ ﴿نُّمِدُّ﴾ ، والتقدير: نُمِدُّ كُلًّا من هؤلاءِ وهؤلاء. والتنوينُ فيه يُسَمّى: تنوينَ عوَض ، وهو عوضٌ عن كلمةٍ مَحْذوفة ، هي مضافٌ إِليه. والتقدير: نُمِدُّ كلا الفريقَيْن ، مُريدي العاجلةِ ومُريدي الآخرة.

و﴿نُّمِدُّ﴾ فعلٌ مضارِع ، فاعِلُه تقديرُه «نحن» يَعودُ على الله. والماضي منه رباعي «أَمَدَّ». تقول: أَمَدَّ ، يُمِدُّ ، ونحنُ نُمِدُّ.. والمصدرُ: إِمْداد.

ويدلُّ الفعلُ على استمرارِ المَدَد ، والاسترسالِ في الإِعطاء ، والزيادةِ من الإِنعام ، وتَواصُلِ المَدَدِ والإِمداد ، وكأَنَّ الإِمدادَ خَطٌّ متواصِلٌ مستمرٌّ ، لا يتوقَّفُ ولا يَنقطع ، ويَتَّصلُ الجديدُ منه بالقديمِ السابق!.

و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: اسْمُ إشارةً للقريب، في محلِّ نَصْب، لأنَّه بَدَلٌ من المفعولِ به المقدَّم ﴿كُلًّا﴾. واسْمُ الإشارةِ الثاني ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ معطوفٌ على الأَوَّل. وهذا البَدَلُ مُفَصِّلٌ للمبْدَلِ منه، المجملِ قَبْلَه ﴿كُلًّا﴾، وهو مُفَصِّلٌ لأَنَّه أَشارَ لكلِّ صنفٍ من الصِّنْفَيْن باسمِ إِشارةٍ مستقِل، وعَطَفَ الثاني على الأَوَّل: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾.

والمرادُ باسمِ الإشارةِ الأَوَّل الصنفُ الأَوَّل، وهم الذينَ يُريدونَ العاجلة، والمرادُ باسمِ الإشارة الثاني الصنفُ الثاني الذينَ يُريدونَ الآخرة.
والمعنى: نُمِدُّ كُلَّ صنفٍ من الفريقَيْن من عَطائِنا: صنفِ مريدي العاجلة، وصنفِ مريدي الآخرة.

يُمدُّ اللهُ كُلَّ صنفٍ من عطائه: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾. والعَطاءُ مصدَرُ الثلاثي «عطىٰ» تقول: عطىٰ، يعطي، عَطاءً.

والعَطاءُ الصِّلَة؛ فاللهُ يُمِدُّ الصنفَيْنِ من عَطائِه، أَيْ: يوصِلُ لهم صِلَتَه، وهم يَتَناولونَها ويأْخذونَها.

و﴿مِنْ﴾: للتَّبعيض؛ فالذي يُمِدُّهُم اللهُ هو جزءٌ من عطائِه، وبعضٌ من نِعَمِه.

واختيارُ الرَّبِّ مقصود: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾؛ لأَنَّ الإمدادَ والإعطاءَ والإنعامَ من لوازِمِ الربوبيةِ، فالرَّبُّ هو الذي يُعطي ويمنحُ ويُمِدُّ.. والمقامُ مقامُ ربوبيةٍ وإِمداد، وليس مقامَ أُلوهيةٍ وعبادة.

والخطابُ في ﴿رَبِّكَ﴾ لرسولِ اللهِ ﷺ، لأَنَّ القرآنَ أُنزلَ عليه، والإضافةُ هنا للتكريمِ والتشريف، وليستْ للتخصيص، لأَنَّ اللهَ ليس ربّاً لرسولِ اللهِ ﷺ وحده، وإنما هو رَبٌّ للمخلوقاتِ كلِّها.

ويَشملُ الخطابُ: ﴿رَبِّكَ﴾ كُلَّ مسلمٍ بعدَ الرسولِ ﷺ، لأَنَّ خطابَ الرسولِ ﷺ خطابٌ لأُمَّتِه، ما لم يَقُمْ دليلٌ على التخصيص.

واللهُ يُمِدُّ الفريقَيْن ـ مريدي العاجلةِ ومريدي الآخرة ـ من عطائِه في الدنيا، ويُعطي كلَّ إِنسانٍ منهم ما قُدِّرَ له من رزقِ الدنيا ونعيمِها.

وهذا العَطاءُ مقيَّدٌ في الدنيا ، لأَنه شاملٌ للمؤمنين والكافرين ، والفريقانِ يَتَنَعَّمان بِنعَمِ اللهِ في الدنيا ، أَما الآخرةُ فإِنَّ نعيمَها خاصٌّ بالمؤمنين ، وليس للكافرينَ فيها إِلا النّار.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ :

هذه الجملةُ مستأنَفَة ، جاءَتْ تَعقيباً على الجملةِ السابقة ، لتقررَّ أَنَّ عطاءَ اللهِ وإِمدادَه مبذولٌ ميسور ، وليسَ محظوراً عن أَحَد.

وهذه هي المرةُ الثالثةُ التي يُذْكَرُ فيها الفعلُ الماضي ﴿كَانَ﴾ ، الدالُّ على الرسوخِ والدَّوام ، واستمرارِ الكونِ والوجود.

﴿كَانَ﴾ **الأُولى** في الإِخبارِ عن استمرارِ طلبِ الكفارِ للعاجلة : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ .

و﴿كَانَ﴾ **الثانيةُ** في الإِخبارِ عن استمرارِ قبولِ سَعْيِ المؤمنين: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ .

وهذه ﴿كَانَ﴾ **الثالثةُ** في الإِخبارِ عن استمرارِ إِعطاءِ اللهِ للناس : ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ .

و﴿مَحْظُورًا﴾ : خبرُ ﴿كَانَ﴾ مَنصوب، وهو اسْمُ مفعول ، فعلُه ثلاثي ، هو «حَظَرَ». والحَظْرُ هو المَنْعُ . والمحظورُ هو الممنوع.

إِنَّ الذي يَحظُرُ ويمنَعُ هو الله ، لأَنه هو الذي يُعطي ويَمنح ، فاللهُ يمنعُ الناسَ من فعلِ ما حَرَّمَ عليهم.

أَما عَطاؤُه وإِنْعامُه ورزقُه فهو محدودٌ مُقَدَّم ، واصلٌ متواصِل ، للناس جميعاً ، سواءٌ كانوا كافرينَ مريدينَ للعاجلة ، أَو كانوا مؤمنينَ مريدينَ للدارِ الآخرة.. إنه لم يَقطعْ إِمدادَه لهم ، ولم يَحظرْ رزقَه عنهم ، سواء آمَنوا به أَو كفروا ، وسواء أَطاعوهُ أَم عصوه! إِنه يُعطيهم لأَنه خلقَهم ، وتكَفَّلَ برزقِهم وإِعطائِهم.

ومعنى هذا أَنَّ نعيمَ الدنيا عامٌّ للمؤمنين والكافرين ، يُؤتيهم اللهُ منه

ما قَدَّرَهُ لهم وفق حكمتِه ، وأنَّ اللهَ يُعطي الدنيا مَنْ يُحبُّ ومَنْ لا يُحِبُّ ، ولكنَّه لا يُكرمُ في الآخرةِ إلاّ مَنْ أَحبَّه ، وهو المؤمنُ المستقيم.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ :

بعدَ تَقريرِ الحقائقِ في الآياتِ الثلاثِ السابقة ، وبيانِ اختلافِ مراداتِ الناسِ واختلافِ مصائرِهم ، واختلافِ مظاهرِ إمدادِ اللهِ لهم ، تأتي هذه الآيةُ ، لتدعَوا المسلمين إلى النظرِ والتدبرِ والتفكرِ والاعتبار.

وأَساسُ النظرِ توجيهُ العينِ إلى الشي المرادِ رؤيتُه والنظرُ إليه ؛ تَقولُ: نَظرتُ إلى الشمس ؛ أَي: رأَيْتُها. وقد يُستعملُ في التفكرِ والتدبُّرِ والاعتبار ، فيُرادُ به الاعتبارُ مما تراهُ العينُ وتُشاهِدُه ، وهذا هو المرادُ هنا. فالمعنى: تَفكَّرْ وتَدَبَّرْ ، ولاحِظْ وانتَبِهْ ، فها أَنتَ ترى الناسَ في الدنيا ، وقد فَضَّلَ اللهُ بعضَهم على بعض.

وفعْلُ الأَمْرِ ﴿ ٱنظُرْ ﴾ موجَّهٌ إلى الرسولِ ﷺ في المقامِ الأَوَّل ، لكنَّه ليس خاصّاً به ، فهو موجَّهٌ إلى كُلِّ مؤمنٍ بصير ، يُفكرُ في ما يُشاهدُه من تفاوتِ الناس!.

و﴿ كَيْفَ ﴾: اسْمُ استفهامٍ ، لتنبيهِ الناظرِ وإثارَتِه ولَفْتِ انتباهِه. وهو في محلِّ نصبِ حال مُقدَّم ، عامِلُه جملةُ ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾.

و﴿ فَضَّلْنَا ﴾: فعلٌ ماضٍ وفاعلُه. و﴿ بَعْضَهُمْ ﴾: مفعولٌ به ، والجملةُ الفعليةُ ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾: في محلِّ نصب مفعولٍ به للفعلِ ﴿ ٱنظُرْ ﴾. والتقدير: انظُرْ تفضيلنا بعضَهم على بعضٍ كيفَ يتحقَّقُ.

والتفضيلُ بمعنى التمييزِ والتفاوت ، في ما يعطيهم اللهُ من عطائِه وإنعامِه.

و﴿ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾: تَشمَلُ جميعَ الناسِ في هذه الدنيا ، مؤمنين وكافرين ، مريدي الدنيا ومريدي الآخرة.

إِنَّ ما يعطيهِ اللهُ للناس من عطائِه في الدنيا مُتَفاوت ، وليسَ على درجةٍ واحدة ، أَو بكميَّةٍ موحَّدة ، أَو في مظهرٍ واحد! واللهُ حكيمٌ في ما يعطيه ، ولمنْ يعطيه ، وبالمقدارِ الذي يعطيه ، والكيفيةِ التي يُعْطيها.. وهو بهذا

يجعلُ الناسَ متفاوتين ، فمنهم المفضول ، ومنهم الفاضل ، ومنهم الأَفضل .

والمرادُ بالتفضيلِ في الآيةِ صُوَرُ وجوانبُ ومظاهرُ التفضيلِ والتفاضل ، في العطاءِ الدنيوي ، الذي يُعطيهِ اللهُ للناس ، ويعمُّ به المؤمنين والكافرين ، لأَنَّ عَطاءَه في هذا الجانب عامٌّ لكلِّ الناس ، وليس محظوراً أَو ممنوعاً عن أَحدٍ منهم .

إِنَّ اللهَ في هذا العطاءِ الدنيويِّ قد يُفَضِّلُ المسلمَ على الكافر ، وقد يُفَضِّلُ الكافرَ على المسلمِ ، فيعطيه أَكثر ، وقد يُفَضِّلُ كافراً على كافر ، وقد يُفَضِّلُ مسلماً على مسلم ، وقد يتفاضَلُ أَصحابُ المهنةِ الواحدةِ ، أَو المستوى الواحد ، في ما يعطيهم الله . . المهمُّ أَنَّ العطاءَ الربانيَّ للناسِ في الدنيا ليس على أَساسِ الإِيمانِ والكفر ، أَو الطاعةِ والمعصية ، أَو التقوى والفُجور ، بدليلِ أَنَّ اللهَ قد يُفَضِّلُ الكافرين على المؤمِنين ، وقد يُفَضِّلُ الفاجرين على المتقين .

وهذا العطاءُ الربانيُّ متعلِّقٌ بالدنيا ومتاعها وملَذّاتها وشهواتِها . . وقد حَبَّبَ اللهُ هذه الشهواتِ للنّاسِ جَميعاً ، مسلمين وكافرينَ ؛ قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤] .

وهذا التفاضُلُ في العَطاء ، والتفضيلُ في إِعطائِه وإِيتائه ليس مرتبطاً بالفضلِ والمنزلةِ عند الله ، فاللهُ قد يَزيدُ الكافرَ منه على المؤمن ؛ ولذلك يُخطئُ مَنْ يَجعلُ كرامته عند الله مرتبطةً بكثرةِ هذا العطاء ، فإذا قلَّ ونَقَصَ اعتبرَ نفسَه مُهاناً عنده ؛ قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧] .

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ :

تتحدَّثُ هذه الجملةُ عن التفضيلِ الكبيرِ في الآخرة ، وعن درجاتِه

ومنازِله ، وعن أَساسِه ومناطِه ومِقياسِه؛ وذلك في مقابلِ الحديثِ عن التفضيلِ ومظاهرِه في الدنيا في الجملةِ السابقة.

الواو: حرفُ استئناف ، والجملةُ استئنافية ، واللامُ في ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ لامُ الابتداءِ للتوكيد. و﴿الآخرة﴾: مبتدأ. ﴿أكبرُ﴾: خبر. و﴿دَرَجَٰتٍ﴾: تمييزٌ منصوبٌ بالكسرةِ ، لأنه جمعُ مؤنثٍ سالم.

﴿الآخرة﴾: صفةٌ لموصوف محذوف. والتقدير: الدارُ الآخرةُ.

والدَّرَجاتُ: هي المنازلُ التي يَضعُ اللهُ الصالحين المفضَّلين فيها ، والمراتبُ التي يرفَعُهم اللهُ إِليها ، وهي درجاتٌ شريفةٌ عالية ، وما بينَ الدرجةِ والدرجةِ كما بينَ السماءِ والأَرض.

ووُصفت الدارُ الآخرةُ بأَنها هي الأَكبرُ في الدرجاتِ ، والأَكبرُ في التفضيل ، والكِبَرُ في مقابلِ الصِّغر ، فالدُّنيا العاجلةُ هي الأَصغَرُ والأَضيقُ في الدَّرَجات ، والأَقلُّ والأَنقصُ في التفضيل.. وأَينَ كِبَرُ وسَعَةُ الآخرةِ من صِغرِ وضيقِ الدنيا؟!.

إِنَّ سببَ التفضيلِ في الآخرةِ هو الإِيمانُ والعملُ الصالح ، وإِنَّ الفضْلَ والعطاءَ والنعيمَ فيه مستمرٌّ متواصل ، لا يقطعُه انتهاءٌ أَو موت.

والمفَضَّلُ عليه هو العطاءُ في الدنيا. والمعنى: الآخرةُ أَكبرُ درجاتٍ من الدنيا ، وهي أَكبرُ تَفضيلاً من مظاهرِ التفضيلِ في الدنيا.

من لطائف الآيات:

١ ـ عَرَضت الآياتُ كُلَّ صنفٍ بجملةٍ شرطية ، مكوَّنَةٍ من اسمِ شرطٍ وفعلِ شرطٍ وجواب شرط ، ومبتدأ أو خَبَر ، فكانَ التقابُلُ بين الصنفَيْن كاملاً: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ...﴾ ، و﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾.

٢ ـ عندما تَحدثت الآيةُ عن مريدِ الدُّنْيا قالَتْ في فعلِ الشرط: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾؛ فأَتَتْ بالفعلِ الماضي ﴿كَانَ﴾ ، الدالِّ على استقرارِ الكونِ ودوامِه ، ثم أَتَتْ بالفعلِ المضارعِ خبراً لكان ، وهو دالٌّ على الاستمرارِ

والتجدُّدِ في الإرادة.. والجمعُ بين الماضي والمضارع، والتوفيقُ بين الاستقرارِ والاستمرارِ جمالٌ بيانيٌّ ملحوظ.

٣ ـ في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ صِيغَتان من العجلة:

الأولى: اسمُ الفاعلِ المؤنَّثُ ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وهو مشتَقٌّ من الثلاثيِّ «عَجِلَ». تقول: عَجِلَ، فهو: عاجل، وهي عاجلةٌ. وقد أُسندت العجلةُ للدُّنيا، فكأنها هي التي تَعْجَلُ وتأْتي عَجِلَةً، وتَذهبُ وتُفارقُ عَجِلَة، فهي عاجلةٌ في قدومِها، وعاجلةٌ في ذَهابِها.. ومع ذلك يُريدُها ويَطلبُها ويَرغبُ فيها المتَعجِّلون!.

الثانية: الفعلُ الماضي الرباعيُّ المسنَدُ إلى الله: ﴿عَجَّلْنَا﴾ الذي يدلُّ على التعجيل، فاللهُ هو الذي يُعَجِّلُ للمتعَجل، ويُعطيه ما كَتَبَ له.

واللطيفُ أَنَّ الصيغةَ الأُولى من الثلاثي جاءَتْ في فعلِ الشرط، وأَنَّ الصيغةَ الثانيةَ من الرباعي جاءَتْ في جوابِ الشرط. وكأَنَّ الرباعيَّ مبنيٌّ على الثلاثي، ونتيجةٌ له، وخطوةٌ تاليةٌ عليه.

٤ ـ في الآيةِ تَقابُلٌ بين فعل ﴿يُرِيدُ﴾، العائدُ على مَنْ يَطلبُ العاجلة، وبينَ فعل ﴿نَشَآءُ﴾، العائدُ على الله؛ فالإنسانُ هو الذي يُريدُ العاجلة، ويُريدُ كلَّ الأَشياءِ المتعجَّلَةِ التي فيها، لكن لا يعطيه الله كل ما يريد، إنما يُعطيهِ ما يشاءُ هو سبحانَه إعطاءَه؛ فهو يُريدُ، ولكنَّ اللهَ لا يُعطيه إلاّ ما يشاء!!.

٥ ـ شبهُ الجملةِ: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدلٌ من شبهِ الجملةِ السابقة: ﴿لَهُۥ﴾، وهذا البَدَلُ بَدَلُ بعضٍ من كُلّ، وهو يؤكدُ معنى البعض وليس الكل، لأَنَّ الهاءَ في ﴿لَهُۥ﴾ تعودُ على اسمِ الشَّرْطِ ﴿مَّن﴾ الدالِّ على العُموم. ولو قالَت الآية: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ لبيَّنَتْ أَنَّ اللهَ يُعطي كلَّ مُتعَجِّلٍ ما يشاءُ إِعطاءَه مما أَرادَه، ولا يمنَعهُ أَيَّ شيء أَرادَه.

فجاءت الآيةُ ببدلِ البعضِ ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ من الكُلِّ ﴿لَهُۥ﴾ لتُفصِّلَ وتُخَصِّصَ، وتُبَيِّنَ أَنَّ الذي سيعطيه اللهُ هو مَنْ أَرادَ إِعطاءَه، ما شاءَ إِعطاءَه.

٦ ـ في قوله: ﴿مَانَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾: اسمانِ للموصولِ متجاورانِ:

الأوَّلُ: ﴿مَا﴾، والمرادُ به الشيءُ المعَجَّلُ المعْطى، والذي هو مفعولٌ به للفعلِ ﴿عَجَّلْنَا﴾، والدالُّ على غيرِ العاقل.

الثاني: ﴿مَّن﴾، والمرادُ به الشخصُ الذي يُعطى ويُعَجَّلُ له، والذي هو في محلِّ جَرٍّ باللاّم.

وتجاورُ الموصولَيْن جَميل، وكونُ الأَولِ في مَحَلِّ نَصْب والثاني في مَحَلِّ جَرٍّ جميل، وكون أَحَدِهما للعاقل، والآخرِ لغيرِ العاقلِ جَميل، وكونُ الأَولِ هو الشيء المعطى، والثاني هو الشخصُ المعطى له، جميل! وسبحان منزل القرآن الجميل المعجز.

٧ ـ في قوله: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ فِعْلان مضارعان، كلٌّ منهما مُسْنَدٌ إلى الله، فاللهُ الذي يُعطي ما يَشاء، واللهُ هو الذي يُعطي مَنْ يريد، الفاعلُ فيهما ضميرٌ مستتر، تقديرُه «نحن».

واللطيفُ أَنَّ كُلَّ واحدٍ من الفعلَيْن صلةٌ لموصولٍ قبلَه، والأَلطفُ أَن كلَّ واحدٍ منهما حُذِفَ مفعولُه، وأَنَّ المفعولَ به فيهما واحد، والتقدير: عَجَّلْنا ما نشاءُ تعجيلَه، لمن نريدُ تعجيلَه له.

٨ ـ ذُكِرَ الاسْمُ ﴿مَّن﴾ في الآيةِ مرتين، واللطيفُ أَنه جاءَ في كُلِّ مرةٍ بمعنًى:

﴿مَّن﴾ **الأول**: اسْمُ شرط: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾.

و﴿مَّن﴾ **الثاني**: اسْمُ موصول: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾.

٩ ـ اللطيفُ ذكْرُ شبهِ الجملة ﴿لَهُۥ﴾ في الآية مرتين: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ و﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾؛ ﴿لَهُۥ﴾ في المرةِ الأُولى في جملةٍ تتحدَّثُ عن الدنيا. و﴿لَهُۥ﴾ الثانيةُ في جملةٍ تتحدَّثُ عن الآخرة.

و﴿لَهُۥ﴾ الأُولى في سياقِ الحديثِ عن الإعطاءِ والإنعامِ والمَنِّ، و﴿لَهُۥ﴾ الثانيةُ في سياقِ الحديثِ عن الحسابِ والجزاءِ والعقاب.

أَيْ أَنَّ ﴿ لَهُۥ﴾ الأُولى تتحدَّثُ عن الإنسانِ المنعَّم ، و﴿ لَهُۥ﴾ الثانيةُ تتحدَّثُ عن هذا الإِنسانِ نفسِه عندما يكفُرُ بالنِّعَم ، فيعاقَبُ في جهنم.

١٠ ـ نوَّعَت الآيةُ في الحديثِ عن الإِرادةِ والمشيئة ، فقالت : ﴿ مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ ، وهذا من التَّفَنُّنِ في التعبيرِ القرآني. ومن المعلوم أَنه لا ترادُفَ بين كلماتِ القرآنِ المتقاربةِ في المعنى ، فلا ترادُفَ بين الفِعلَيْن ﴿ نَشَآءُ﴾ و﴿ نُّرِيدُ﴾ .

واللطيفُ في التفريق بين الفعلَيْنِ أَنَّ فعْلَ ﴿ نَشَآءُ﴾ جاءَ صلةً للموصولِ ﴿ مَا﴾ ، المرادُ به الشيءُ المعطى المعَجَّلُ. أَمَّا فعلُ ﴿ نُّرِيدُ﴾ فقد جاءَ صلةً للموصول ﴿ مَّن﴾ المرادُ به الإِنسانُ المعطى له.

وفعلُ ﴿ نُّرِيدُ﴾ يتناسَقُ مع الفعلِ المضارع قبلَه ﴿ يُرِيدُ﴾ ؛ أَيْ أَنَّ اللهَ يُعطي ما ﴿ يُرِيدُ﴾ سبحانَه لمن ﴿ يُرِيدُ﴾ العَطاءَ ، فبينَ الفعلَيْنِ ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ و﴿ لِمَن نُّرِيدُ﴾ اتصالٌ وثيقٌ في أُسلوبٍ بيانيٍّ رفيع!.

١١ ـ في الآيةِ الأُولى نوعانِ من الحال :

النوعُ الأَول : جملةٌ فعلية : ﴿ يَصْلَىٰهَا﴾ التي هي مكوَّنَةٌ من فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ به.

والنوعُ الثاني : حالٌ مفرد ، اسْمُ مفعول : ﴿ مَذْمُومًا﴾ ، وبجانبه حالٌ آخر ﴿ مَّدْحُورًا﴾ . وَوُصِفَ الكافرُ المعذَّبُ في النارِ بثلاثةِ أَحوال : ﴿ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ . والتقدير : ثم جعلْنا له جهنم صالياً لها مذموماً مدحوراً.

واللطيفُ أَنَّ الجملةَ الفعليةَ حالٌ بمعنى اسمِ الفاعل ، أَمّا الحالُ المفردُ فهو اسْمُ مفعول.

١٢ ـ يوجد تناسُقٌ لطيفٌ بين العَجَلَةِ في فعلِ الشرطِ وجوابِه : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ ، وبينَ التَّراخي في الجملةِ الثانية بَعْدَها ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ . . .﴾ ، هذا التراخي قَرَّرَهُ حرفُ ﴿ ثُمَّ﴾ . . فالجملةُ الأُولى متعَجِّلَةٌ سريعة ، والجملةُ الثانيةُ المعطوفةُ عليها بَطيئةٌ متراخية.

١٣ ـ في حديثِ الآيةِ عن مُريدِ الآخرةِ اختارَتْ له عبارةً غيرَ عبارةِ مُريدِ الدنيا؛ فقالت: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾. وفَرْقٌ بين جملةِ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، وجملةِ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

١٤ ـ وَصَفت الآيةُ الثانيةُ مُريدَ الآخرةِ بثلاثِ صفات، وبينَها فروقٌ بيانيةٌ لطيفة:

الأولى: ﴿أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾: اختارَتْ فعْلاً ماضياً رباعياً، متعدياً إلى مفعولٍ به.

الثانية: ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾: اختارَتْ فعْلاً ماضياً ثلاثيّاً لازماً ﴿ وَسَعَىٰ﴾، واستعاضَتْ عن المفعولِ به بالمفعولِ المطْلَق ﴿ سَعْيَهَا﴾. وأَتَتْ بحرفِ الجَرّ «اللام»، الدّالّ على الأجلِ والتعليل، وكأَنَّ شبهَ الجملة ﴿ لَهَا﴾ مفعولٌ لأَجْلِه.

الثالثة: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جملةٌ اسميَّة، مكوَّنَةٌ من مبتدأ و خبر، وهي في محلِّ نصب حال.

وفي هذه الجُمَلِ واوان اثنتان: واوُ العطف في ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾.. وواوُ الحالِ في ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

١٥ ـ في الآيةِ الثانيةِ انتقالٌ لطيفٌ من المفردِ في فعلِ الشرط: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إلى الجمعِ في جوابِ الشرط: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾، والتقابُلُ جميلٌ بين المفردِ والجمعِ في الجملةِ الشرطية.

١٦ ـ أَسندت الآيةُ الشكرَ إلى السعي، وليس إلى أصحابه، مع أَنهم هم المشكورون: ﴿ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾؛ وهذا أَبلغُ في الثناءِ على أَصحابه، فإذا كانَ سعْيُهم مشكوراً، وهو ليسَ إنساناً يُشْكَرُ، فما بالُكَ بهم؟! وما هي منزلتهم عند الله؟! وما مستوى رضا اللهِ عنهم، وتكريمه لهم؟!.

١٧ـ استعملت الآياتُ اسْمَ الإِشارةِ للبَعيد ﴿أولئك﴾ عند الحديثِ عن تكريمِ المؤمنينَ في الآخرة: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾. وحكمةُ

اختيارِ البعيدِ هي الإشارةُ إلى بُعْدِ منزلتِهم ، وعُلُوِّ مكانتِهم ، وهذا لمزيدِ تكريمِهم وتَشريفِهم ، فمنزلتُهم ليستْ دانيةً قريبة ، ولا يمكنُ لأيِّ إنسانٍ أَنْ يَصِلَ إليها ، إنها تحتاجُ إلى شخصياتٍ عالية ، بهممٍ وعزائمَ خاصة .

١٨ ـ بينَ اسْمَي الإشارة ﴿أولئك﴾ و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تَقابلٌ بيانيٌّ ، وتكامُلٌ معنويّ؛ فعندما تحدَّثَت الآياتُ عن المؤمنينَ في الآخرةِ اختارت البَعيد ﴿أولئك﴾ ، لأننا ما زلنا في الدنيا ، والآخرةُ بعيدة .

وعندما تحدَّثَتْ عن عطاءِ اللهِ المقدَّمِ للمؤمنين في الدنيا ، اخْتارت اسْمَ الإشارةِ القريب : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ ، وهذا يتناسَبُ مع قربِ الحياةِ التي نَعيشُها . فالتعبيرُ في البيانِ القرآنيِّ يحكُمُه ميزانٌ بيانيٌّ دقيقٌ حَسّاس .

١٩ ـ تكرارُ اسمِ الإشارةِ للقريبِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ ملحوظٌ مَقْصود ، لأَنَّ كُلَّ واحدٍ يُشيرُ إلى صنفٍ مذكورٍ قبلَه .

المرادُ باسمِ الإشارةِ الأَوّل ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مَنْ أَرادَ الدنيا في الآيةِ الأُولى : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ . والمعنى : نُمِدُّ هؤلاء الذينَ يُريدونَ الدنيا العاجلةَ من عَطاءِ رَبِّك .

والمرادُ باسمِ الإشارةِ الثاني : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مَنْ أَرادَ الآخرة .

٢٠ ـ اللطيفُ أَنَّ المشارَ إليه في المرتَيْن مُفْرَد : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ، ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ، ومع ذلك جاءَ اسْمُ الإشارةِ جَمْعاً ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ، مع أَنَّ المتوقَّعَ أَنْ يكونَ مُفْرَداً ، وأَن يَقول : كُلاًّ نُمِدُّ هذا وهذا من عطاءِ ربك .

وحكمةُ الإشارةِ إلى المفردِ بالجمع هي أَنَّ المفرَد في الموضعَيْن اسْمُ شرطٍ ﴿مَنْ﴾ ، واسْمُ الشرطِ مثلُ اسم الموصول يَنطبقُ على المفردِ والجمع ، وهو في الآياتِ مُفرَد بمعنى الجمع ، بدليلِ أَنه أَشارَ له بالجمع : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ .

٢١ ـ في قوله : ﴿نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ التفاتٌ بيانيٌّ ، وهذا الالتفاتُ من المتكلّمِ في : ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ . . لأَنَّ اللهَ يتكلَّمُ عن إمدادِه وإعطائِه ـ إلى المخاطبِ في ﴿عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ ؛ حيثُ أُضيفَ الرَّبُّ إلى

المخاطب، ولو بقيَ على نفس الحالةِ لقال: كُلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطائنا.

٢٢ ـ يوجد تناسُقٌ بيانيٌّ بينَ الاختصارِ والتطويل في قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾؛ الاختصارُ في تنوينِ العِوضِ في ﴿كُلًّا﴾، الذي هو عِوَضٌ عن مُضافٍ إليه محذوفٍ «كُلُّ صنف». والتطويلُ في تكرارِ اسم الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾. والتطويلُ أَيْضاً في وضعِ الظاهرِ موضعَ الضميرِ في ﴿عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ ولو اخْتَصَرَ لقالَ: من عطائِنا.

٢٣ ـ تناسَبَ تِكرارُ ﴿عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ مرتين، مع تِكرارِ اسمِ الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ مع تِكرارِ اسمِ الشَّرْط: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ و﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾. فالثنائيةُ ملحوظةٌ في هذه المواضعِ والكلمات.

٢٤ ـ في عمليةِ التفضيلِ طَرَفان: المفَضَّلُ والمفَضَّلُ عليه، وهما مذكوران في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ والطرفُ الأَولُ أَفضلُ من الطرفِ الثاني في كلِّ شيء، حتى في التعبير والصياغة، حيث جاءَ المفَضَّلُ مَفْعولاً منصوباً، وجاءَ المفضلُ عليه مجروراً بحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾، الدالِّ على الاستعلاء، أَي استعلاءُ المفضَّلِ على المفضَّلِ عليه: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٢٥ ـ في الآياتِ نوعانِ من تَنوينِ العوض:

الأَول: عِوَضٌ عن كلمةٍ: ﴿كُلًّا﴾؛ أَيْ: كُلُّ فريق.

والثاني: عِوَضٌ عن ضميرٍ مُتَّصل، في ﴿بَعْضٍ﴾. والتقدير: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٢٦ ـ أُدخلتْ لامُ الابتداءِ التوكيديةُ على الجملةِ الاسمية: ﴿وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾، لأَنَّ السياقَ يَقْتَضي التوكيد، فالحديثُ على التفضيلِ الدنيويِّ بين الناسِ في الدنيا، وقد يَنْشَغِلُ الناسُ به عن التفضيلِ في الآخرة، فناسَبَ أَنْ يلفتَ أَنظارَهم إِلى الآخرة وما فيها من تفضيل، ولذلك جاءَ بلام الابتداءِ للتوكيد.

٢٧ ـ كانَ التركيزُ في الدنيا على المفَضَّل والمفضَّلِ عليه ، ولذلك لم يَذكر المفَضَّلَ به: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ، والمفَضَّلُ به هو الإعطاءُ والإمداد ، ولم يَرِدْ له ذكْرٌ في الجملة. أمّا التركيزُ في الآخرة فهو على المفَضَّلِ به: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ، ومعلومٌ أَنَّ التفضيلَ في الجنةِ إنما هو بينَ المؤمنين ، على حَسبِ أعمالِهم في الدنيا ، ويكونُ في المنازلِ والدرجات ، ولذلك ركَّزَ التفضيل على الدرجات.

من أهم دلالات الآيات:

١ ـ الإنسانُ في الدنيا مخيَّرٌ وليس مُسَيَّراً مُجْبَراً ، وقد جَعَلَ اللهُ له قدرةً على الإرادة ، فهو إمّا أَنْ يُريدَ العاجلة ، وإمّا أَنْ يُريدَ الآخرة ، وهو حُرٌّ في ما يختار ، لكنْ عليه أَنْ يتحمَّلَ نتيجة اختياره. وهذا بدلالةِ إسنادِ الإرادةِ له في الآياتِ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ ، و﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾.

٢ ـ الناسُ في اختيارِهم أَحَدُ صنفَيْن ، لا ثالثَ لهما: صنفٌ يريدونَ العاجلةَ ، وصنفٌ يُريدونَ الآجلة. والصنفُ الأَوَّل أَساؤوا الاختيار ، لأنهم اختاروا العاجلةَ على الآجلة ، والفانيةَ على الباقية. والصنفُ الثاني أَلهمهم اللهُ إلى حسنِ الاختيار.

٣ ـ الهمةُ والعزيمةُ مرتبطةٌ بالإرادة ، وعلى مقدارِ الإرادةِ تكونُ الهِمَّة ، فمنْ كانتْ إرادَتُه متوجِّهَةً إلى أَمْرٍ صغير كانتْ هِمَّتُه صغيرة ، وكلَّما كَبُرَ المرادُ كبرت الهِمَّةَ لتحقيقه.

ومَعْنى هذا أَنَّ مَنْ كان يُريدُ العاجلةَ كانتْ هِمَّتُه صغيرة ، تتفقُ مع صِغَرِ العاجلة ، ومَنْ كانَ يُريدُ الآخرةَ كَبُرَتْ هِمَّتُه وعَزيمتُه!.

٤ ـ لا يَغتَرُّ بالدنيا العاجلةِ إلاّ مَنْ كانَ صغيرَ العقل ، ضَيِّقَ الأُفُق ، قَصيرَ النظر ، أَما الآخرةُ فإنها تَحتاجُ إلى إنسانٍ ذي مواصَفاتٍ خاصَّة ، في عقْلِه وفكرِه ، ونَظَرِه وتَصَوُّرِه ، وهدفِه واهتمامِه.. وشتّانَ بين عاجلةٍ قصيرةٍ فانية ، وبينَ آخرةٍ باقيةٍ دائمة! وشَتّانَ بين إنسانٍ مغرورٍ بالعاجلة ، وبين مؤمنٍ بَصيرٍ غير مغرورٍ بها ، متوجِّهٍ نحو الآخرة.

٥ ـ الإنسانُ يُريدُ الحصولَ على أَشياء كثيرة ، لكنَّ ذلك لا يتحققُ له ، لأَنه عاجزٌ ضعيف ، محدودُ القدرات والطاقات ؛ فالإنسانُ واسعُ الإراداتِ والرغباتِ والآمالِ والتطلعات ، لكنه محدودُ المكاسبِ والنتائج ! .

٦ ـ قَدَرُ اللهِ واقعٌ بالإنسان ، ولا ينالُ إلاّ ما قَدَّره اللهُ وأَرادَه له ، وإذا لم يَشأ اللهُ إعطاءَه الشيءَ لا يُمكنُ أَن ينالَه ، وإنْ إرادَه وسعى إليه . . ولا يكونُ إلاَّ ما أَرادَه الله : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ؛ وإرادةُ اللهِ طليقة ، ومشيئَتُه نافذة ، لا يَحُدُّها قيد ، ولا يُبطلُها شيء .

٧ ـ حياةُ الكافرِ تافهةٌ حَقيرة ، وخاسرةٌ هالكة ، فهو في الدنيا ضَعيفٌ عاجز ، محكومٌ بقدَرِ اللهِ وإرادَتِه ، وهو في الآخرةِ ذاهبٌ إلى عذابِ النار ، وجهنَّمُ بانتظارِه ، ليَصْلاها مذموماً مدحوراً ، وبئْست الحياةُ حياةً مليئةً بالهَمِّ والغَمِّ والضعفِ والعجز ، ومنتهية بالخلودِ في عذابِ النار : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ .

٨ ـ لا تكفي إرادة الآخرة وحدها للفوز بالجنة ، ولا بد من أن تنتج الإرادةُ الصحيحةُ السعيَ المتواصلَ ، ولا بد أن يكون العمل الصالح ثمرة للهدف والقصد ، وأي إرادة بدون عمل وسعي آمال وأحلام ، لا تتحقق في عالم الواقع : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ .

٩ ـ الإيمانُ شرطٌ في قبولِ العملِ والسعي ، وأَيُّ عَمَلٍ لم ينبثقْ عن الإيمانِ فهو مردودٌ على صاحبه ، غيرُ مقبولٍ منه : ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ .

ولقد كانَ القرآنُ صريحاً في عَدَمِ قَبولِ أَعمالِ الكفار ؛ قال تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٧]. وقال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

١٠ ـ عَطاءُ اللهِ مُتَواصِل ، لا يتوقَّفُ ولا ينقطع ، يُمِدُّ به الناسَ في الدنيا ، سواءٌ كانوا مسلمين أَو كافرين ، وكلُّ إنسانٍ يتقلَّبُ بعَطاءِ اللهِ وإنعامِه طولَ عمره ، ولو أَوقفَ اللهُ عنه ذلك لهلك ! وهذا العطاءُ شاملٌ لكلِّ شيء ،

ماديٍّ ومعنوي ، داخليٍّ وخارجي ، نفسيٍّ وفكريّ ، فرديٍّ وجماعي ، ولا يمكنُ استقصاءُ ذلك العطاء وحصْرُه.

١١ ـ ليست الدنيا مناطَ التكريم ، ولا الإمدادُ بالعَطاءِ الدنيوي دليلَ التفضيلِ عند الله ، لأنَّ اللهَ يُعطي كلَّ إنسانٍ من ذلك ، حتى لو كان كافراً ، بل إنَّ اللهَ يُعطي الكافرَ غالباً أكثرَ مما يعطي المؤمنَ من ذلك ، وكم يَخسرُ ويُخطئُ الذينَ يَعتبرونَ الحصولَ على المتاعِ الدنيوي أَساسَ التكريمِ والتفضيل!.

١٢ ـ إذا أَعطى اللهُ المؤمنَ الصالحَ من عَطاءِ الدنيا فليشكُر اللهَ على ذلك ، وليس معنى الإيمانِ الحرمانَ من الدنيا ، وليس معنى الزهدِ في الدنيا عدمَ الاستمتاعِ المباحِ بنعيمها.

١٣ ـ التفاضُلُ بين الناس سُنَّةٌ ربانيةٌ مطردة ، فقد خَلَقَ اللهُ الناسَ على مستوياتٍ مختلفةٍ متفاوتة ، وهذا التفاوتُ في كلِّ شيء في الأُمورِ الدنيويةِ المادية ، والمؤمنُ يَلحظُ هذه السُّنَّة ، ويفكرُ فيها ناظراً متدبّراً معتَبراً.

فَضَّلَ اللهُ بعضَ الناسِ على بعضٍ في الأُمورِ الدنيوية ؛ قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، ويؤكدُ هذه الحقيقةَ قولُه تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ [النحل : ٧١] ، وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣٢].

١٤ ـ التفضيلُ الكبيرُ هو الذي يكونُ في الآخرة ، والدرجاتُ الكبيرةُ التي يَتفاضَلُ فيها المؤمنون هي درجاتُهم في الجنة ، والمؤمنُ البصير الموفَّقُ هو الذي يُنافِسُ على درجاتِ الآخرة ، ويُسابقُ غيرَه إليها : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾.



الفصل السادس

﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

هذه هي الآية الأُولىٰ من سورة المُمْتَحَنَة، وسورةُ الممتحنةِ كلُّها مدنية، منها ما نزلَ بعدَ صلح الحديبية، في السنةِ السابعةِ من الهجرة، ومنها ما نزَلَ في فتحِ مكة، في السنةِ الثامنةِ من الهجرة.

واسْمُها التوقيفيُّ سورةُ «المُمْتَحَنَة»، والراجحُ أنَّ الكلمةَ تُنطقُ بفتْحِ الحاء، على أنها اسْمُ مفعولٍ مُؤَنَّث، يُرادُ به المرأةُ المُمتَحَنَةُ؛ وسُميتْ بهذا الاسمِ لأنها تحدَّثَتْ عن امتحانِ المؤمناتِ المهاجرات، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ووقْفَتُنا مع الآية الأُولى من آياتِ هذه السورة.

يَنهى اللهُ في هذه الآيةِ المؤمنينَ عن اتخاذِ الكافرينَ الأَعداءِ أَولياء، ويُقَبِّحُ هذا التصرفَ القبيح، ويَدْعوهم إلى مُفاصلتِهم والبراءةِ منهم.

وقبلَ إمعانِ النظر في جُملِ وكلماتِ هذه الآية نَعيشُ في «جَوِّ» نُزولِها، والحادثةِ التي نزلَتْ بشأنِها، والمشكلةِ التي عالَجَتْها، لِنحسنَ فَهْمَ مَقَاصِدها.

لقد نَزَلَت الآية في قصةِ الصحابيِّ حاطبِ بنِ أَبي بَلْتَعَة رضي الله عنه، وقد وَرَدَتْ هذه القصةُ في كُلِّ كتبِ الحديثِ والسيرةِ والتفسيرِ بالمأثور.

وخلاصَتُها: أنَّ رسولَ الله ﷺ لما أرادَ فتح مكة بسببِ نَقْض قريشٍ عَهْدَهم معه أَحَبَّ أَنْ يُفاجئَ قريشاً بذلك، حتى لا يَقَعَ قتالٌ، ولا تُسْفَكَ دماء. فأَخفى سِر التوجهِ إلى مكةَ عن كثيرٍ من الصحابة، ولم يُخبر به إلاَّ المقدَّمين من الصحابة، وكان حاطبُ بنُ أبي بلتعة من أولئك الذين أَخبرهم.

وكانَ لِحاطبٍ أَهلٌ وأقارب في مكة، وخشيَ عليهم الهلاكَ والقَتْل، وأَرادَ أَنْ يُخبرهم لينجوا بأنفسهم، فكتَبَ لهم كتاباً، يُخبرُهم فيه بتَوَجُّهِ النبيِّ ﷺ إلى مَكة، ويطلبُ منهم النجاة!! وسَلَّمَ الكتابَ إلى امرأةٍ من أَهلِ مكة، قَدِمَت المدينة في حاجةٍ لها، وطلبَ منها توصيله إلى أَهله، فحملت الكتاب، ووضعَتْه في شَعْرِها، وتوجَّهَتْ إلى مكة.

وأَخبرَ اللهُ رسولَه ﷺ بالأَمْرِ.

فاسْتَدعى رسولُ اللهِ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب، والزبيرَ بنَ العوام، والمقدادَ بن الأسود، رضي الله عنهم، وأخبرهم أنَّ الكتابَ مع المرأة، وأَنَّ المرأةَ موجودةٌ في مكانٍ على الطريق اسْمُه «رَوْضَةُ خاخ»، وطلبَ منهم إِحضارَ الكتابِ منها.

وسارَ الفرسانُ الثلاثةُ إلى رَوْضَةِ خاخ، وَوَجَدوا المرأةَ هناك، وطَلَبوا منها إِعطاءَهم الكتاب، فنَفَتْ أَنْ يكونَ معها كتاب، فَهَدَّدوها قائلين: لقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أَنَّ معكِ كتاباً، وهو صادِقٌ، وأنتِ كاذبة، ووالله لتخْرِجِنَّ الكتابَ أَو لَنُلْقِيَنَّ الثِّياب!!.

فلما رأَت الجدَّ عندهم أخرجت الكتابَ من شَعْرِها، وناوَلَتْهم إِيّاه، فعادُوا به إلى رسولِ الله ﷺ.

فاستَدْعى الرسولُ ﷺ حاطِباً، وقالَ له: **«ما هذا يا حاطِب؟!»**.

فقالَ حاطب: لا تَعْجَلْ عليَّ يا رسولَ الله، إِني كنتُ امرأً من قريش. ولم أَكُن من أَنْفسِهم، وكانَ مَنْ مَعَكَ من المهاجرين لهم قراباتٌ يَحمون بها أَهليهم وأموالهم، فأَحببتُ أَن أصطنعَ إليهم يداً.. وما فعلْتُ ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني.

واعترفَ حاطبٌ رضي الله عنه بخطئِه، واستغْفَرَ الله.

وغضبَ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه من فعلةِ حاطب ، فطلَبَ من الرسولِ ﷺ أَن يَأْذَنَ له بضربِ عُنُقِه!! .

فقالَ رسولُ الله ﷺ: **«لقد شَهِدَ بَدْراً ، وما يُدريكَ لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْر ، فقال: اعْمَلوا ما شئْتُم فقد غَفَرْتُ لكم!»**.

ونَزَلت الآيةُ بشأنِ هذه الحادثة.

ونُبادرُ إلى القولِ: لقد كانَ حاطبٌ رضي الله عنه بَدْرياً من خيارِ الصحابة ، ولم يكنْ في فعلتِه مُوالياً للكفارِ ، إنما أَرادَ أَنْ يُدَبِّرَ أَقَاربُه في مكة أُمورَهم لينجوا من الموت ، واجتهدَ في ما فَعَل ، لكنه أَخطأَ في اجتهادِه وفعْلِه . . ويدلُّ هذا على أَنَّ الصحابةَ ليسوا معصومين ، فهم عرضةٌ للخطأ .

ولكنَّ الآيةَ جَعَلَتْ فعلةَ حاطب رضي الله عنه فُرصةً مناسبةً للنهي عن اتخاذِ الكفارِ أَولياءَ ، وتهديدِ مَنْ يفعلونَ ذلك .

وفيما يلي وقفَتُنا التحليليةُ مع جُملِ الآيةِ وكلماتِها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾:

ابتدأت الآيةُ بهذا النداءِ من اللهِ للمؤمنين ، ليكونَ هذا النداءُ تمهيداً للتكاليفِ والتوجيهات ، المذكورةِ في جُمَلِ الآيةِ اللاحقة .

«يا»: حرف نداء . و«أَيُّ»: منادى مبني على الضَّمّ . و«ها»: حرفٌ للتنبيه . و﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسْم موصول ، بَدَلٌ من المنادىٰ «أَيُّ»: و﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعلٌ ماضٍ وفاعِلُه ، والجملةُ صلةُ الموصول ، والتقدير: يا أَيُّها المؤمنون .

لقد نادى اللهُ المؤمنين بأَحَبِّ الصفاتِ إليهم ، وهي صفةُ الإيمان ، وذلك لتهيئةِ نفوسِهم وكيانِهم لتلقّي ما بعدَ النداء ، ولإيقاظِ وتنبيهِ المشاعِرِ الإيمانيةِ الحيةِ في كيانهم ، ومعلومٌ أَنَّ إيجادَ وتَجهيزَ وتهيئَةَ الجَوِّ الإيمانيِّ يَسبقُ التكليفَ الجازم ، وذلك لضَمانِ الالتزامِ بالتكليف .

وهذا النداءُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ليس خاصّاً بحاطبٍ رضي الله عنه ، ولا بأصحابِ رسولِ الله ﷺ ، وإنما هو عامٌّ يَشملُ كُلَّ المسلمين ، على

اختلافِ الزمانِ والمكانِ بدلالةِ اسم الموصول: ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ ، ومعلومٌ أَنَّ اسْم الموصول من أَلفاظِ العموم.

وَنَصَحَنا الصحابيُّ الجليلُ عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه بالانتباه للتكليفِ الذي يَتْبعُ النداء ، فقالَ: إِذا سمعْتَ الله يقولُ في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فأرْعِها سَمْعَكَ ، فبَعْدَها أَمْرٌ تلتزمُ به ، أو نهيٌ تتوقَّفُ عنه!!.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ :

هذه الجملةُ وما بعدَها جوابُ النداء ، وهي جملةٌ طلبيّة ، ينهىٰ اللهُ فيها المؤمنين عن اتخاذِ الأَعداءِ أَولياء.

﴿ لَا ﴾ : حرفُ نهيٍ. و﴿ تَتَّخِذُوا۟ ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ بـ﴿ لَا ﴾ الناهية ، وعلامةُ جَزْمِه حَذْفُ النّونِ لأَنه من الأَفعالِ الخمسة ، والواوُ في مَحَلِّ رفْع فاعل. و﴿ عَدُوِّى ﴾ : مفعولٌ به أَوّل ، والياءُ في محلِّ جَر مُضافٍ إِليه ، ﴿ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ : معطوفٌ على ﴿ عَدُوِّى ﴾. و﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ : مفعولٌ به ثانٍ منصوب.

ويمكن استخراجُ الإِشاراتِ واللطائفِ التالية من هذه الجملة:

أ ـ دَخلَتْ ﴿ لَا ﴾ الناهيةُ على الجملةِ الفعليّة ، ونَهَت الجملةُ المؤمنين عن اتخاذِ الأَعداء أَولياء.. والأَصْلُ في النهيِ أَنْ يَدُلَّ على التحريم ، ولا يُصرفُ عن التحريم إِلى الكراهةِ أَو التنزيهِ إِلاّ عند وُجودِ القرينةِ وتحقُّقِ الضرورة ؛ وهذا غير متحقِّقٍ هنا.

ولذلك يجبُ أَخْذُ النهي هنا على أَصْلِه ، والقولُ بأَنه يَحرمُ اتخاذُ الأَعداءِ أَولياء ، وأَنَّ الذين يَتخذون الأَعداءَ أَولياءَ إِنما يرتكبون بذلك حراماً، نهاهُم اللهُ عن فِعْلِه، وهم بهذا يُعَرِّضونَ أَنفسَهم للعذابِ في الآخرة.

ب ـ نَصَبَ فعلُ ﴿ تَتَّخِذُوا۟ ﴾ هنا مفعولَيْن ، ومعلومٌ أَنه إِذا نَصَبَ هذا الفعلُ مفعولَيْن فإِنه يكونُ بمعنى التَّصيير والتَّحويل.. ولمعرفةِ مَعْنى التصيير وإِجرائِه على الفعل ومفعولَيْه ، لا بُدَّ من ملاحظةِ الحالةِ الأُولى المتمثلة بالمفعول الأَوَّل ، والحالةِ الثانية التي تتمثلُ بالمفعولِ الثاني.

يدلُّ المفعولُ الأَوَّل ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ على أَنَّ العاقِلَ هو الذي يَتَّخذُ العَدُوَّ عَدُوّاً، ويَحْذَرُهُ لعداوَتِه له.

وغيرُ العاقل هو الذي يتخذُ العَدُوَّ وليّاً، أَي: هو الذي يَنْقُلُه ويُصَيِّرُه، ويُحَوِّلُه من كونِه عدوّاً ليكون وليّاً وحليفاً وصديقاً! وهذه هي البلاهَةُ والسذاجة.

جـ - حكمةُ إِضافةِ العَدُوِّ إِلى الله في ﴿عَدُوِّى﴾: تَقبيحُ موقفِ هؤلاءِ الكفارِ الأَعداء، وبيانُ سوءِ موقفهم، فلا يُعادي اللهَ إِنسانٌ عنده خير، إِذْ كيفَ يُعادىٰ الله، وهو الخالقُ الرازقُ المنعمُ المتفضل.

و«عَدُوُّ الله» هو الكافر، وكلُّ كافرٍ عَدُوٌّ لله، لكُفْرِه بالله وشركه به، ومَنْ عاداهُ اللهُ لكفرِه فإِنَّه يحاربُه ويَنتقمُ منه.

وإِذا كانَ كُلُّ مؤمنٍ صالحٍ وليّاً لله، فإِنَّ كُلَّ كافرٍ عَدُوٌّ لله، وإِذا كانَ اللهُ يحبُّ أَولياءَه الصالحين فإِنَّه يكرهُ أعداءه الكافرين! وإِذا كانَ هناك أحبابٌ لله، فإِنَّ هناك أَعداءً لله.

د - عَدُوُّ الله وعَدُوُّ المؤمنين واحد، فالذي أُضيفَ إِلى الله: ﴿عَدُوِّى﴾ هو نفسُه الذي أُضيفَ إِلى المؤمنين ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾، وحكمةُ عطْفِ ﴿عَدُوَّكُمْ﴾ على ﴿عَدُوِّى﴾ هي دعوةُ المؤمنين إِلىٰ (برمجةِ) عَدُوِّهم، وإِحسانِ تقويمِه والنظرِ إِليه، وأَنْ ينطلقوا في ذلك من منطلقٍ ديني!!.

إِنَّ عَدُوَّ اللهِ عَدُوٌّ لهم، والذي جعلَه اللهُ عَدُوّاً له لكُفْرِه، يجبُ أَنْ يتخذَه المؤمنون عَدُوّاً لهم لكُفْرِه، وإِذا كانَ الكافرُ عَدُوّاً لله، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ هذا الكافرُ عدوّاً للمسلمين! ومِن غير المقْبولِ والمعْقَولِ أَنْ يُعاديَ اللهُ كافراً، ثم يأتي مسلمٌ يَتخذه وليّاً أو صديقاً أو حبيباً!.

هـ - اللافتُ للنظرِ في مفعولَي الفعل: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أَنَّ المفعول الأَول جاءَ مفرداً، والمفعول الثاني جاءَ جَمْعاً، وهذا مقصودٌ ومراد!.

إِن مجيء المفعول الثاني جَمعاً ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وفقَ القاعدة، ولا يَحتاجُ إِلى

توجيه أو تعليل ، والتعليلُ موجَّهٌ لمجيء المفعول الأوَّلِ مفرداً ﴿ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

هناك حكمتان من مجيء المفعولِ الأوَّل مفرداً :

الأُولى : هي بيانُ طبيعةِ عَداوةِ الأَعداء : إِنهم كثيرو العَدَد ، لكنَّ طبيعةَ عداوتهم واحدة ، إِنهم يُعادونَ اللهَ لكُفْرِهم به ، ويُعادونَ المؤمنين لحقْدِهم عليهم؛ فالعداوة دينيةٌ في الطبيعةِ والباعثِ والسببِ والهدفِ ، ولهذا قال : ﴿ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

الثانية : تَهوينُ أَمْرِ الأَعداءِ وتحقيرُهم : صَحيحٌ أَنَّ عددَ الأَعداءِ كثير ، وأَسلحتُهم فتاكة ، لكنَّهم لا وُجودَ لهم أَمامَ عظمةِ اللهِ ، وقُوَّتُهم تَتَلاشى وتتبدَّد أَمامَ قوةِ الله ، ويتحوَّلونَ إِلى أَصْفارٍ أَمامَ أَمْرِ الله ، فكأَنَّ هؤلاءِ جَميعاً ـ الذين يُعَدّونَ بالملايين ـ تَحَوَّلوا إِلى مجردِ عَدُوٍّ واحد ، ضعيفٍ ضَئيلٍ هزيل ! ! .

و ـ ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ : جمعٌ ، مفردُه «وَليٌّ» صفةٌ مشبهةٌ على وَزْن «فَعيل» ، مشتقَّةٌ من الفعلِ الماضي الثلاثي : «وَلِيَ» .

وتقومُ المادَّةُ على معنى القُرب؛ يُقالُ : وَلِيَه؛ أَي : اقتربَ منه . و : وَالاهُ : قَرَّبَهُ .

قالَ الإمامُ الراغب : «الوَلاءُ والتوالي : أَنْ يحصلَ شَيْئان فَصاعِداً ، حُصولاً ليس بينَهما ما ليسَ منهما ، ويُستعارُ ذلك للقُربِ من حيثُ المكان ، ومن حيثُ النّسبة ، ومن حيثُ الدين ، ومن حيثُ الصّداقةُ والنصرةُ والاعتقاد . والولايةُ : النصرةُ ، والولايةُ تَوَلّي الأمْر»[١] .

والولايةُ : هي القربُ والتقريب ، والتحالفُ والتناصر ، والتأْييدُ والمساعَدَة .

والوليُّ : هو المقرَّبُ والحليفُ والمساعدُ والنصير .

والأَصْلُ في الوليِّ أَنْ يكونَ حَريصاً على مَنْ تَوَلّاه ، وعلى تَقديم الخير

---

(١) المفردات ، ص ٨٨٥ .

له ، وتَحقيقِ مصلحتِه ، ولا بُدَّ أَنْ يكونَ قادراً على نُصرةِ مَنْ تولاهُ ، ودفعِ الأذىٰ عنه ، فإِنْ لم يكنْ كذلك فإنه لا يَصلحُ أَنْ يكونَ وليّاً.

ولا تتوفَّرُ في الكفارِ شُروطُ وصفاتُ الولي ، ولا مَعنى الولاية ، ولذلك لا يَجوزُ اتخاذُهم أَولياء ، وكم يُخطئُ الذين يتخذونَهم أَولياء؟!.

ز ـ كثيرةٌ هي الآيات القرآنيةُ التي حَرَّمَتْ على المسلمينَ اتخاذَ الكافرين أَولياء ، ورَبطَت الولاءَ بالعقيدة ، وبَيَّنَتْ أخطارَ موالاةِ الكفارِ العقيديةَ والفقهيةَ والسياسيةَ والحركيةَ والدولية.

ـ منها قولُه تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ـ ومنها قولُه تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩].

ـ ومنها قوله تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

٣ـ قوله تعالىٰ: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾:

هذه الجملةُ الفعليةُ خطابٌ آخر من الله للمؤمنين ، بهدفِ تَنفيرِهم من موالاةِ الأعداء ، وتَهييجِهم على مفاصلتِهم والبراءَةِ منهم.

﴿تُلْقُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ مرفوع وفاعلُه ، و﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ جار ومجرور متعلقان بالفعل ، و«المودَّة» مجرورةٌ لَفظاً ، لكنها منصوبَةٌ مَحَلاً ، لأنها مفعولٌ به: تُلقونَ المودَّةَ إليهم. وجملةُ ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ في محلِّ نَصْب حال ، وصاحبُ الحالِ فاعلُ ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ العائدُ على المؤمنين؛ أَيْ: لا تَتَّخذوا أَعداءَكم أَولياءَ ، مُلْقينَ إِليهم بالمودةِ.

والإلقاءُ هو الطَّرْحُ والرَّمْيُ ، وهو هنا بمعنى التَّقْديم. وإذا تَعدَّى الفعلُ إلى المفعول به مباشرةً يكونُ بمعنى الرمي؛ نقولُ: أَلقيتُ الحَجَرَ؛ أَيْ: رميْتُه. وإِذا تَعَدَّى إلى ما بعدَه بحرفِ «إلى» كان بمعنى التَّقديمِ والتَّوصيلِ والإِعطاء؛ تقول: أَلقيتُ إِليه بهديَّتي؛ أَيْ: أوصلْتُها إِليه.

و«المودَّة» مصدر، فعلُه الماضي «وَدَّ». نقول: وَدَّ، وُدّاً وَمَوَدَّةً. والمودَّةُ هي المحبةُ الخالصةُ الأَكيدة.

وفي جملةِ ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ الإشاراتُ واللطائفُ التالية:

أ ـ التعبيرُ بالجملةِ الفعليةِ للإشارةِ إلى معنى التجدُّد، ومع أنَّ الجملة واردةٌ في سياقِ التَّعَجُّب، فإِنَّ الجملةَ الفعلية تَزيدُ من معنى التعجُّب والإنكار.

ب ـ مجيء الجملة الفعليةِ حالاً من المؤمنين، لمزيدٍ من التعجبِ والاستغراب، إذْ كيفَ يكونُ حالكم أَيها المسلمون إلقَاءَ المودَّةِ وتقديمَ المحبَّةِ لأعدائِكم الكافرين؟!.

جـ ـ تُقَدِّمُ الجملةُ صورةً قرآنيةً عجيبة، على أَساسِ «التصوير» المؤَثِّرِ، الذي عرضَ به القرآنُ مختلفَ موضوعاتِه.

المودَّةُ أَمْرٌ معنويٌّ مجرَّد، وليس مادّياً ملموساً، لكنَّ هذهِ المودَّةَ في الآيةِ صورةٌ ماديةٌ مجسَّمة، مرئيةٌ محسوسة، ولها حركةٌ فنيةٌ متخيَّلة.. أنتَ ترىٰ هذه «المودَّةَ» موضوعةً في يَدِ الإنسان، تملأُ كَفَّه، كما توضَعُ فيه أَيُّ مادَّة، كالحجرِ أَو الفاكهة.. وترىٰ يَد الإِنسانِ تتحرَّكُ بهذه المودة، وتنقلُها إِلى الطرفِ الآخر، وهم الكفارُ الأَعداء.. وأنتَ ترى الكفارَ يتناولون هذه المودَّةَ التي أُلقيتْ إِليهم.

وتحويلُ المودَّةِ من مجردِ مشاعر وعواطف وأَحاسيس وانفعالات، متعلقةٍ بالوُدِّ والحبِّ والرغبة، إِلى شيء ماديٍّ مجسَّمٍ متخيَّلٍ مَحسوس، يتمُّ إِلقاؤه وتوصيلُه إِلى الكفار، جمالٌ بيانيٌّ رائع.

د ـ الأصلُ أَنَّ «المودَّة» في الجملةِ مفعولٌ به، ولكنَّها جُرَّتْ بالباءِ ﴿ بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ لمزيدٍ من توكيد اتصالِ الفعل بالمفعولِ به!.

وهذه الباءُ باءُ المُلابَسَة والمصاحَبَة، أَيْ: أَنَّ الإِلقاءَ والتوصيلَ مُلابِسٌ ومُلازِمٌ للمودَّة. ويزيدُ إِدْخالُ الباءِ على «المودَّة» من التنفير من موالاةِ الكفار.

٤ ـ **قوله تعالىٰ:** ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ :

يستمرُّ السياقُ في تهييجِ المسلمين على عدمِ موالاةِ الأعداءِ الكافرين ، فتذكُرُ هذه الجملةُ كفْرَ الأعداءِ بالحقِّ الذي أكرمَ اللهُ به المؤمنين .

﴿قَدْ﴾ : حرفٌ للتحقيق . و﴿كَفَرُواْ﴾ : فعلٌ ماضٍ وفاعلُه . و﴿بما﴾ : الباء حرف جر ، «ما» : اسْم موصول ، في محلِّ جَرٍّ بالباء . و﴿جاءكم﴾ : «جاءَ» : فعلٌ ماض . والضميرُ المتصلُ «كُم» في محلِّ نصب مفعولٍ بهِ مقدَّم . و﴿ٱلْحَقِّ﴾ : مجرورٌ لفظاً ، مرفوعٌ مُحَلاًّ ، لأَنه فاعل «جاءَ» ؛ أَيْ : جاءَ الحَقُّ المسلمين .

والمعنى : كَفَرَ أعداؤكم بالحَقِّ الذي جاءَكم .

والحَقُّ هو الصوابُ والصحيح الذي يَبْقى حَقّاً ، ولا يَتَحَوَّلُ إلى باطل ، فلا يمكنُ أَنْ يكونَ حقّاً صحيحاً اليوم ، ثم يكونَ غداً باطلاً وضلالاً ؛ ففي الحقّ معنى الثباتِ واللزومِ والاستقرار .

والمرادُ بالحَقِّ هنا : القرآن ، لأَنه هو الذي جاءَ المؤمنين من عند الله ، والقرآنُ كلُّه حَقٌّ وصوابٌ في جانبَيْن :

الجانب اللفظي : المتمثلُ في سور القرآنِ وآياتِه ، وفي جُمَله وعباراتِه ، وفي حروفِه وكلماتِه ، وكلُّ مسلمٍ يوقنُ أَنْ كُلَّ كلمةٍ في القرآنِ من عندِ الله .

الجانب المعنوي : المتمثلُ في معاني القرآنِ وموضوعاتِه ، وأَحكامِهِ وتشريعاتِهِ ، وحقائِقِه ومضامينِه ، فهي كلُّها صوابٌ لا خطأَ فيه .

والكفارُ كَذَّبوا هذا الحَقَّ وكَفروا به ، ونَفَوْا أَنْ يكونَ من عندِ الله ، وشَنّوا عليه حرباً عنيفة ، وبذلك أَهْلَكوا أنفسَهم .

وفي هذه الجملة ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ الإشاراتُ واللطائفُ التالية :

أ ـ جاءتْ هذه الجملةُ حاليةً ؛ والواوُ فيها واوُ الحال . و﴿قد﴾ داخلةٌ على الفعل الماضي للتوكيد ، وهي دليلٌ على أَنَّ الجملةَ حالية ، وصاحبُ الحالِ

المفعولُ الأوّلُ ﴿ عَدُوِّى ﴾ . والتقديرُ: لا تتَّخذوا عَدُوّي وعَدُوَّكم ـ الكافرينَ بالحَقِّ الذي معكم ـ أولياءَ .

واللطيفُ مجيءُ جملتَيْن متجاورتيْن حالاً ، والجملتان هما ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ . الحالُ الأولُ يعودُ على المؤمنين المخالفين ، في سياقِ الإنكارِ عليهم ، والحالُ الثاني يعودُ على الكافرين ، في سياقِ تقدير حقيقةِ كفرِهم بالحَقِّ . والتقدير : لا تتخذوا أعداءَكم أولياء : أنتم مُلقونَ إليهم بالمودَّة ، وهم كافرون بالحَقِّ الذي معكم!! .

ب ـ اختلفَ التعبيرُ عن حالِ المسلمين وحالِ الكافرين ؛ فجاء حالُ المسلمينَ بالفعلِ المضارع ، الدالِّ على التجددِ والاستمرار ، لأنَّ الهدفَ منه التنفيرُ من موالاة الكفار ، وتقبيحُ صدورِه عن مسلمين . . . أمّا حالُ الكافرين فقد جاءَ بالفعْلِ الماضي ، الدالِّ على التحققِ والاستقرارِ والثباتِ والدوام ، لتأكيدِ أَن كُفْرهم بالحقِّ ثابتٌ مستقر ، وليس عرضياً طارئاً .

جـ ـ تَهدفُ الجملةُ إلى تهييج المسلمين على عدمِ موالاةِ الكافرين ، إنهم على الحق ، الذي أكرمَهم الله به ، وإنَّ أَعداءَهم على باطل . وهؤلاءِ الأَعداءُ كفروا بالحَقِّ الذي مع المسلمين وحارَبوه ، أَلا يدعوهم هذا إلى عدمِ موالاةِ الكفار؟ إذ كيف يتخذونهم أَولياءَ وهم على هذه الحال؟! .

٥ـ قوله تعالىٰ: ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ :

تُسجلُ هذه الجملةُ جريمةً أُخرىٰ للأعداء ، بهدفِ الاستمرار في تهييجِ المسلمين على عدمِ موالاتِهم ؛ وهذه الجريمةُ ناتجةٌ عن الجريمة السابقة ، فبعدَ أَنْ أخبرَت الجملةُ السَّابقةُ عن كفرِهم بالحقِّ الذي مع المسلمين ، أَخبرتْ هذه الجملة عن إخراجِهم الرسولَ ﷺ والمؤمنين ، بسبب إيمانهم بالله .

﴿ يُخْرِجُونَ ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ وفاعلُه . و﴿ ٱلرَّسُولَ ﴾ : مفعولٌ به . ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ : الواوُ حرفُ عطفٍ . و«إيّا» ضميرٌ منفصلٌ في محلِّ نصب ، لأنه معطوفٌ على المفعول به . و«كم» : حرفُ خطابٍ لا محلَّ له من الإعراب . والمصدرُ من ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ في محلِّ نصب مفعولٍ لأَجْلِه . أَيْ : إيمانكم .

والتقدير: هؤلاء الكفارُ يُخرجونَ الرسولِ والمؤمنين لإيمانهم بالله.

ويُمكنُ استخراجُ اللطائفِ والدلالاتِ التالية من هذه الجملة:

أ ـ هذه الجملةُ في محلِّ نصب حال، وصاحبُ الحالِ هو المفعولُ به ﴿عَدُوِّى﴾. ومعنى هذا أَنَّ الآيةَ ذَكَرَتْ حالَيْن للأعداء: الحالُ الأولُ في الجملة السابقة، والحالُ الثاني في هذه الجملة. والتقديرُ: لا تَتَّخِذوا عَدُوّي وعدوّكم أَولياءَ، وهم كافرونَ بالحَقِّ الذي معكم، وهم مُخرجونَ لكم من دياركم.

ب ـ جريمةُ الكفارِ الجديدةُ التي سَجَّلَتْها هذه الجملةُ مرتبطةٌ مع جريمتهم في الجملة السابقة، وثمرةٌ لها، ونتيجةٌ عنها، أَيْ أَنَّ كُفْرَهم بالحَقِّ الذي مع المؤمنين دفَعَهم إلى ارتكابِ جريمةِ إِخراجِهم من بلادِهم؛ فالجريمةُ الأولىٰ نظرية، والجريمةُ الثانية عملية، لأَنَّ الفكْرَ والنظر هو الذي يوجِّهُ السلوكَ والعمل.

جـ ـ عَبَّرَت الجملةُ عن جريمةِ الكفارِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾، وذلك لاستحضارِ مشهدِ الإخراجِ والطردِ والإبعاد، وتصويرِ حالةِ الجريمة، من بابِ المبالغةِ في تهييجِ المؤمنين على عدم موالاةِ الكفارِ الأعداء.

واللَّطيفُ أَنَّ الحالَ الأَولَ للكفارِ جاءَ بصيغة الفعل الماضي: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ للإشارةِ إلى أَنَّ الكفر حالةٌ دائمةٌ مقرَّرَةٌ مسبقَة، بينما جاءَ الحالُ الثاني لهم بصيغةِ الفعلِ المضارع: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ لتصوير الجريمةِ والتنفيرِ منها... ومجيءُ حالَين متواليَيْن، كلٌّ منهما جملةٌ فعلية، لكنَّ الأَولَ فعلُه ماضٍ، والثاني فعلُهُ مضارع، جمالٌ بيانيٌ قرآني معجز.

د ـ «إيّا»: ضميرٌ منفصل، في محلِّ نصب، لأَنه معطوفٌ على المفعول به ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ والمقصودُ به المؤمنون. و«كُمْ»: حرفُ خِطاب، وهو خطابٌ من اللهِ للمؤمنين. ومن المعلومِ أَنَّ «إيّا» ضميرٌ منفصلٌ لا يأتي في القرآنِ إلاّ في مَحَلِّ نَصْب.

وبما أَنَّ ﴿إياكم﴾ معطوفٌ على ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ فيجبُ وصلُه بما قبله في التلاوة: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ ولا يجوزُ الوقفُ على ما قبلَه والبدءُ به في

التلاوة ؛ أي لا يجوزُ أَنْ يقرأَ: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ ثم يستأنفَ: ﴿وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾!.

بمعنى أَنَّ الواوَ في ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ لا تكونُ إلاَّ حرفَ عطف، ولا يمكنُ أَنْ تكونَ حرفَ استئناف، ومَن اعتبَرَها حرفَ استئناف فإنَّه يَكفر!! لأنها لو كانَتْ حرفَ استئنافٍ لكانت الجملةُ تحذيراً من الإيمانِ بالله!! ﴿وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾؛ أَيْ: أُحذرُكم من الإيمان بالله، إياكم أَنْ تؤمنوا.. وهذا كُفْر!!.

هـ ـ الجملةُ الفعليةُ ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ في محلِّ نَصْب مفعولٍ لأَجْلِهِ، فهي جملةٌ تعليلية، تُعللُ ما قبلَها، وتُجيبُ على تَساؤُلٍ قد يتبادَرُ للذِّهن: لماذا يُخْرِجُ الكفارُ الرسولَ والمؤمنين من ديارِهم، وما الذي ارتكبوهُ حتى يُعاقَبوا بالإخراج؟ فتقدّمُ هذه الجملةُ الجوابَ: السببُ هو إِيمانُ المؤمنين بالله! فهذا الإِيمانُ جريمَةٌ عظمى استحقَّ أَصحابُه الإخراج! والهدفُ من المفعولِ لأَجْلِه ذَمُّ الكفار وتقبيحُ موقفِهم، والاستمرارُ في تهييجِ المسلمين على عَدَمِ موالاتهم؛ فمتى كانَ الإِيمانُ جريمةً يُعاقَبُ صاحبُه!!.

و ـ جاءَ المفعولُ لأَجْلِهِ في الجملةِ بصيغةِ الفعل المضارع: ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، وذلكَ للإشارةِ إلى أَنَّ إيمانَ المؤمنين بالله مُستمرٌّ متواصل، لا يتوقَّفُ ولا ينقطِع، وفيه ثناءٌ على المؤمنين، لاستمرارِ ثباتهم على الإِيمانِ بالله، فما يُلاقونَه من أَذى ومحنةٍ وإِخراجٍ وعقوبة لم يُؤَثِّرْ على إِيمانِهم بالله.

ز ـ ذكرت الجملة الألوهية والربوبية: ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.. والهدف من ذلك الثناء على المؤمنين لجمعهم في الإيمان بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وأنهما لابد منهما ليكون الإيمان بالله صحيحاً ومقبولاً. والهدف من ذلك أيضاً المبالغة في ذم الكفار على سوء جرائمهم، والاستمرار في تهييج المسلمين على مفاصلتهم.

٦ ـ قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾:

هذه الجملةُ استمرارٌ لما قبلَها في تحذيرِ المؤمنينَ من موالاةِ الكافرين،

وجاءَ التهييجُ والتحذيرُ في الجملة بأُسلوبِ الشَّرْط.

﴿إِن﴾: حرفُ شَرْطٍ. و﴿كُنتُمْ﴾: فعلُ الشرط. وجملة: ﴿خَرَجْتُمْ﴾: فعلٌ وفاعل، في محلِّ نصب خبر ﴿كُنتُمْ﴾؛ أَيْ: إِنْ كنتم خارجين. و﴿جِهَٰدًا﴾: مفعولٌ لأجله. ﴿وَٱبْتِغَآءَ﴾: معطوفٌ عليه منصوب. وجَوابُ الشرط محذوف، دَلَّ عليه ما قبلَه، والتقدير: إِن كنتم خرجْتُم جهاداً في سبيلي فلا تَتَّخِذوا عَدُوّي وعدوكم أولياء.

ويمكنُ تسجيلُ اللطائِفِ والإِرشاداتِ التالية:

أ ـ تُلغي الجملةُ الشرطية: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا﴾ ظلَّ التهديد والتحذير، لأَنَّ المقامَ يستَدْعي ذلك، فإِن استمرّوا على اتخاذِ الأَعداءِ أَولياءَ فإِنَّ هَدَفَهم من الخروجِ لن يتحقَّق، ولَنْ ينالوا أَجْرَ الجهاد، ولَنْ يُحَقِّقوا مَرْضاةَ الله!!.

ب ـ تدلُّ الجملةُ الشرطيةُ: «إِن خرجتم جهاداً في سبيلي فلا تتخذوهم أولياء» على أَنَّ موالاة الكفارِ الأَعداء مُحْبطة لأَجْرِ العاملين، فلا يَنالون أَجْرَ الجهاد، ولا يُحققونَ مرضاةَ الله. هذا دليلٌ آخرُ على خطورةِ اتخاذِ الأَعْداءِ أَولياء! ولا بُدَّ أَنْ ينتبهَ لها المسلمونَ، وأَنْ لا يَتَهاوَنوا فيها، كما هو الحاصلُ في هذهِ الأيام.

جـ ـ هناك تقابلٌ بينَ الإِخراج في الجملة السابقة والخروج في هذه الجملة. فلما سجلت الجملةُ السابقة جريمةَ الكفارِ قَالَتْ للمؤمنين: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، ولما حَذَّرَتْ هذه الجملةُ المؤمنين من موالاةِ الكافرينَ قالَتْ لهم: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا...﴾.

﴿يُخْرِجُونَ﴾: مضارع، ماضيه رُباعي: أَخرجَ. و﴿خَرَجْتُمْ﴾: ماضٍ ثلاثي. والفرقُ بينهما أَنَّ الثلاثيَّ يدلُّ على الخروجِ الإِراديِّ القائم على الرغبة والاختيار، والفعلُ لازمٌ لا يحتاجُ إِلى مفعولٍ به. أَمّا الرباعيُّ فإِنه يدلُّ على الإِخراجِ اللاّ إِرادي، وإِنما هو إِخراجٌ بالإِكراهُ والإِجبار، وهو يتعدّى إِلى مفعولٍ به.

ولما تكلمت الجملةُ السابقةُ على جرائمِ الكفار استَخْدَمت الفعلَ الرباعيَّ

لتقبيح فعلِهم، والمنصوبُ بالفعل مفعولٌ به: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ...﴾، ولما تكلمتْ هذه الجملةُ على خُروجِ المؤمنينَ الاختياري الإراديّ، استخدمت الفعلَ الثلاثيَّ اللازم، والمنصوبُ بعدَه مفعولٌ لأَجْلِه: ﴿خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا...﴾.

وهذا من لطائفِ التقابل بين الجملتَيْن الفعليّتين المتجاورتَيْن.

د ـ مجيءُ كلمة ﴿جِهَٰدًا﴾ مفعولاً لأَجْلِه، يدلُّ على أَنَّ الأَصْلَ في المؤمنينَ أَنْ يكونَ خروجُهم هادفاً، والجهادُ من أَعظمِ الأَهداف التي يجبُ على المسلمينَ الخارجينَ أَنْ يَلْحَظوها، وأَنْ يَسْعَوا إِلى تحقيقها.

هـ ـ حتى يكونَ الجهادُ مَبْروراً متقبَّلاً، لا بُدَّ أَنْ يكونَ خالِصاً لله، ولذلك قَيَّدَت الجملةُ الجهادَ بهذا القَيْد، فقالت: ﴿خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾ الجهادُ في سبيلِ اللهِ يَعْني أَنْ يَسْتَحْضِر المجاهدُ الخارجُ نيتَه، وأَنْ يَستبعدَ أيَّ هَدَفٍ دنيويٍّ لئلاَّ يبطلَ عملُه!.

وقد سُئل رسولُ الله ﷺ عن الرجل يقاتلُ شجاعَةً ويقاتِلُ حميةً ويقاتلُ رياءً؛ أَيُّ ذلك في سبيلِ الله؟ فقال ﷺ: **«مَنْ قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُلْيا فَهو في سبيلِ الله»**!!.

و ـ عُطِفَ ﴿ابتغاءَ مَرْضَاتي﴾ على ﴿جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾، ويدلُّ هذا على الهدفِ الثاني الذي يخرجُ له المجاهدون؛ إِنهم يَطلبونَ مرضاةَ الله. ويدلُّ هذا العطفُ على التَّلازمِ بينَ الجهاد وبينَ مرضاةِ الله، كما يدلُّ على أَنَّ الجهادَ الصادقَ الخالصَ لله من أَهَمِّ الوسائِلِ والأَساليبِ لِنَيْلِ مَرْضاةِ الله.

و﴿ابتغاءَ﴾ مصدرُ الخماسي «ابتغىٰ» الذي هو على وزن «افْتَعَل». والابتغاءُ هو الطلبُ المحمودُ، والسعيُ المشكور!!

و(مرضاة) مصدرٌ ميمي، على وزن «مَفْعَلَة». ويقال: رَضِيَ، رِضاً، ومَرْضاة. وهي بمعنى الرضوان.

٧ ـ **قوله تعالىٰ:** ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾:

هذه الجملةُ استمرارٌ للجملِ السابقة، في تحذيرِ المسلمين من موالاةِ الكافرين.

والراجحُ أَنها بدلٌ من جملةٍ سابقة ، فيها تَهييجُ المسلمين على البراءةِ من الكافرين ، وهي : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ . فجاءَتْ جملة ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ بدل اشتمالٍ من جملةِ ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ .

و﴿ تُسِرُّونَ ﴾ : فعلٌ مضارع مرفوعٌ بثبوت النون ، والماضي منهُ رُباعي ، تقول: أَسَرَّ ، يُسِرُّ. والإِسرارُ هو الإِخفاءُ والكتمان ، والحرصُ على عَدَمِ إِظهار وإِفشاءِ الشيء! و«المودة»: مجرورةٌ لفظاً بالباءِ ، لكنها منصوبة معنى ، لأَنها مفعولٌ به للفعل ، والتقدير: تُسِرّونَ وتُخفونَ المودَّةَ إِليهم.

والجملةُ الفعلية: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ في محلِّ نصب حال ، وصاحبُ الحالِ الضميرُ العائدُ على المؤمنين في قوله: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا . . . ﴾ أَي: لا تَتَّخِذوا أَعداءَكم أَولياء ، وأَنتم مُلقونَ إِليهم بالمودةِ ، ومُسِرّونَ إِليهم بالمودة.

والواوُ في ﴿ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ ﴾ واوُ الحال ، و﴿ أَنَا۠ ﴾ ضميرٌ منفصلٌ يَعودُ على اللهِ العظيم ، في محلّ رفع مبتدأ. وأَفعلُ التفضيل ﴿ أَعْلَمُ ﴾ : خبر. و﴿ مَا ﴾ : اسْمُ موصول مَجرورٌ بالباء ، و﴿ أَخْفَيْتُمْ ﴾ : فعلٌ ماضٍ وفاعلُه ، والجملةُ صلةُ الموصول. والتقدير: وأَنا أَعلم بالمُخفى والمُعلَن من أعمالكم.

والجملةُ الاسمية: ﴿ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ في محلِّ نصْب حال. والمعنى: أنتم تُسِرّونَ إِلى الأَعداءِ بالموَدَّةِ في حال علمي بإِسراركم وإِعلانِكم!!.

ويُمكنُ الوقوف على اللطائفِ والإِشارات والدلالاتِ التالية في الجملة:

أ ـ ترتبطُ هذه الجملةُ الحاليةُ مع الجملة الحاليةِ السابقة ، وتلتقي معها على التحذيرِ من موالاةِ الكفار ، فكلُّ جملةٍ منهما تُعالجُ حالةً مفترَضة من تلك الموالاة.

إِنَّ موالاةِ الكفارِ على حالتين:

الحالة الأُولىٰ: موالاةٌ علنيةٌ جهريةٌ مردودة ، قَبَّحَتْها الجملةُ الحاليةُ السابقة: ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ .

الحالة الثانية: موالاةٌ سرِّيةٌ خفيَّة، قَبَّحَتْها هذه الجملةُ: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

وتلتقي الجملتان الحاليَّتان على النهي عن كلِّ حالاتِ موالاةِ الكفار. سواء كانتْ علنيةً جَهرية، أو كانتْ سِرِّيَّةً خفية.

ب ـ الباءُ في ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ باءُ الملابسةِ والإِلْصاق، مثْلُ الباءِ في الجملة السابقة. والجملةُ معروضَةٌ على أَساسِ (التَّصويرِ الفني في القرآن) مثْلَ الجملة السابقة، والفرقُ في الصورةِ في الجملتَيْن أَنَّ الصورة المجسَّمة السابقةَ مكشوفةٌ ظاهرةٌ علنية، لكنَّ هذه الصورة صورةٌ خفيةٌ سرية، لا تَكادُ تُرىٰ في الخيال.

وتَخَيَّل بخيالِك «الموَدَّةَ» شيئاً مادّياً مجسَّماً يُلَفُّ ويُغَطّى، ويُمرَّرُ للأَعداء، ويُقالُ لهم: خذوا هذه الموَدَّةَ دَليلاً ماديّاً على مَحَبَّتِنا لكم!!.

جـ ـ تتكوَّن الجملةُ من جملتَيْن منفصلَتين، كلٌّ منهما جملة حالِيَّة، وهما جملَتانِ جميلَتانِ متقابلتانِ، ويبدو التقابُلُ اللطيفُ فيهما في ما يلي:

ـ الجملةُ الأُولىٰ جملةٌ فعليةٌ في محلِّ نصب حال، والثانيةُ جملةٌ اسميةٌ في محلِّ نصب حال، ومجيءُ جملتَيْن متجاورتَيْن حالاً جميل، وفي تنوُّعِ الجملَتَيْن ما بينَ فعليةٍ واسميةٍ جمالٌ بيانيٌّ لطيف.

ـ ناسبَ التعبيرُ عن الجملةِ الأُولى بالفعلِ المضارع، لأَنَّ صاحبَ الحالِ هم المسلمون، والحالُ في سياق الإِنكارِ والتحذيرِ والتعجب، وهذا يناسبُه الفعلُ المضارع الدالُّ على التجددِ والاستمرارِ؛ أَي: لا يتكررُ ولا يتجددُ منكم إِسرارٌ لهم بالمودة.

ـ وناسبَ التعبيرُ عن الجملةِ الحاليةِ الثانية بأفعل التفضيل، ومجيئُها جملةً اسمية، لأَنَّ صاحبَ الحالِ فيها هو الله، والجملة في سياقِ التذكيرِ بشمولِ علم اللهِ لكلِّ ما يفعلُه المسلمون، وهذا الشمولُ يناسبُه الجملةُ الاسميةُ الدالَّةُ علىٰ الثباتِ والاستقرارِ.

د ـ المفضَّلُ عليه في جملة ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾ محذوف؛ والتقدير: وأنا أعلم منكم ومنهم بكلِّ ما أَخفيتُم وما أَعلنْتُم.

هـ ـ ذَكرت الجملةُ دائرتَيْنِ من دوائِرِ أَعمالِ الناس ، وقَرَّرَتْ أَنَّ اللهَ أَعلمُ من المسلمين بهاتَيْن الدائرتين :

الدائرة الأُولىٰ: ﴿ما أَخْفَيْتُمْ﴾ : والمرادُ بها ما يُخفونَه من الأَعمالِ والأَقوالِ ، ومن ذلك الإِسرارُ إلى الكفارِ بالمودة .

الدائرةُ الثانية: ﴿وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ والمرادُ بها ما يعلِنُه ويُظهرُه المسلمونَ من الأَعمالِ والأَقوالِ ، ومن ذلك إِعلانُ وإِظهارُ المودة للكفار .

وهاتانِ الدائرتانِ شاملتانِ لكلِّ أَعمالِ الإنسانِ ، لأَنَّ أَعمالَ الإنسانِ إمّا أَنْ تكونَ سريّةً خفية ، وإِمّا أَنْ تكونَ علنيةً جهريّة ، واللهُ هو الأَعلمُ بما في هاتَيْن الدائرتَيْن ، من أصحابهما الذينَ يَعملونَ أَعمالَهم فيهما ! .

و ـ اللطيفُ أَنَّ ذِكْرَ الدائرتَيْن يتناسَبُ مع ما قبلَهما . فقدَّمَ الإِخفاءَ على الإِعلان : ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ ، وحكمةُ تقديم الإِخفاءِ هي التناسقُ مع أَولِ الجملةِ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ ؛ فالإِسرارُ بالمودةِ وإِخفاؤُها يناسبُه تقديمُ إِخفاءِ الأَعمال على إِعلانِها .

٨ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ :

هذه الجملةُ خاتمةُ الآية ، التي هَيَّجَت المؤمنين على معاداةِ الكافرين ، وحَذَّرتْهم من موالاتِهم ، وكانت الخاتمةُ تهديداً كبيراً لمن يستمرّون على موالاةِ الكافرين ، رغمَ كُلِّ أساليبِ التهييجِ والتهديدِ والتحذير والتذكيرِ ، في جملِ وكلماتِ الآية .

وجاءَ هذا التهديدُ الصريحُ بأُسلوبِ الجملةِ الشرطية .

﴿وَمَن﴾ : الواوُ : حرفُ استئناف ، والجملةُ استئنافية . و«مَنْ» : اسْمُ شرطٍ في محلِّ رَفْع مبتدأ . و﴿يَفۡعَلۡهُ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ لأَنه فعلُ الشرط . والفاعلُ يعودُ على اسمِ الشرط «مَنْ» . والهاءُ في محلِّ نصْب مفعولٍ به ، ويَعودُ على الاتخاذِ المفهوم مِنْ النهي في قولِه : ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ ؛ أَيْ : مَنْ يفعلْ ذلك الاتخاذ ، ويُوالِ الأعداء ، فقد ضَلَّ سواء السبيل .

والفاءُ في ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشرط. وجملةُ «قد ضل سواء السبيل» مكوَّنةٌ من فعلٍ وفاعلٍ ومفعول به، وهي في محلِّ جزم جوابِ الشرط، وهي أيضاً في محلّ رفع خبر المبتدأ «مَنْ». والتقديرُ: الموالونَ للأعداءِ ضالّون.

و ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: وسْطُ الطريق، والضَّلالُ الابتعاد؛ أَي الابتعادُ عن الخير والرُّشدِ والهُدى، والذهابُ إلى الباطلِ والخسران.

ويمكنُ تسجيلُ اللطائفِ والإرشاداتِ التالية:

أ ـ اسْمُ الشرط ﴿مَنْ﴾ من صيغ العُموم، وهو يشملُ المفردَ والجمعَ والمذكَّرَ والمؤنَّث، واختيارُ اسمِ الشرط لِتقرير معنى العموم، وليكونَ التهديدُ موجَّهاً لكلِّ مَنْ يوالونَ الأَعداءَ، في أَيِّ زمان أَو مكان.

ب ـ جاءَ التعبيرُ عن اتخاذِ الكفارِ أَولياءَ ـ بعدَ كُلِّ ما وردَ في الآيةِ من تحذيرٍ وتَهييج ـ بصيغةِ الغائبِ: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ﴾، وذلك للتنفير من ذلك، ودعوةِ المؤمنين إلى عدمِ فعْلِه، ولا يفعَلُ المنهيَّ عنه بعدَ علْمِه بالنهي إلاَّ مسلمٌ ضَعيفُ الإِيمان.

جـ ـ يؤخَذُ من هذهِ الجملةِ الشرطيةِ قاعدةٌ قرآنيةٌ مطَّردة: كُلُّ مَنْ والى الكفارَ فهو ضالٌّ منحرف، بَعيدٌ عن الحق، متلبسٌ بالباطل. إنَّ جَوابَ الشرط ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ مبنيٌّ على فعلِ الشرط، وثمرةٌ له، وهو مرتبطٌ معه ارتباطاً وثيقاً، وكلَّما وُجِدَ فعلُ الشرط يوجَدُ جوابُ الشرطِ لا مَحالَةَ!! ومعنى هذا: أَيُّ مسلمٍ يُوالي الكفارَ الأَعداء فإنه يَكونُ ضالاًّ!!.

د ـ المرادُ بالضلالِ في الجملةِ الانحرافِ والضياع والخسارة؛ وهذه النتيجةُ الحتميةُ لموالاةِ الأَعداءِ ضريبةٌ باهظةٌ، يدفعُها الذين يُخالفونَ توجيهات القرآنِ، ويُوالونَ الكافرين... وهذه النتيجةُ أَوضحُ ما تكونُ ظهوراً في العصرِ الحديث، الذي أَصَرَّ فيه المسؤولون في بلاد المسلمين على موالاةِ الأَعداءِ الكافرين!!.

أساليب التهييج على عدم موالاة الأعداء:

لاحظْنا من خِلالِ تحليلِ كلماتِ وجملِ الآيةِ حرصَها على (تهييجِ) المسلمين على عدمِ موالاةِ الكفار ، وعلى تحذيرِهم من ذلك ، وتهديدِهم بالعقاب ، وتذكيرِهم بما يُعينُهم في مفاصلتِهِم والبراءةِ منهم.

ومن أهم أساليبِ التهييج في الآية ما يَلي:

١ ـ نداءُ المؤمنين بصفة الإيمان ؛ لتهيئَتِهم لتَلقّي التوجيه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢ ـ تحريمُ موالاتِهم الكفارَ بصيغةِ النهي ، لأَنَّ الأَصْلَ في النهي أَنْ يَدُلَّ على التحريم.

٣ ـ اختيارُ فعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾ الدال على التحويل ، الناصب لمفعولَيْن ، أَيْ: لا تُصَيِّروا العَدُوَّ وليّاً ، ولا تحوِّلوهُ من العداوةِ إِلى المحبةِ والولاية.

٤ ـ وصْفُ الكافرِ بأَنه عَدَوٌّ لله ؛ وكيفَ يُوالي المسلمُ كافراً عاداهُ الله؟ وهل يُوَفَّقُ مَنْ عاداهُ الله؟ فضلاً عن أَنْ ينفعَ غيرَه!.

٥ ـ وصْفُ الكافرِ بأَنهُ عدوٌّ للمسلمين ، وهذا يستلزمُ أَنْ يُعاديَه المسلمون ، فكيفَ يُوالونَه ويُحبّونَه وهو بهذه العداوةِ لهم.

٦ ـ التنفيرُ من موالاةِ الأَعداءِ ، بتصويرِ هذهِ الموالاةِ في صورةِ «مَوَدَّةٍ» ومحبة ، مجسَّمةٍ مَحْسوسة ، يُمكنُ أَنْ تُحملَ وتُنقلَ ، وتُلقى وتُقَدَّم للكفارِ الأَعداء.

٧ ـ ذكْرُ المودةِ والمحبةِ في مقابلِ الكفرِ والعداوةِ ، فهم كفارٌ أَعداء ، وأَنتم تَحبونَهم وتَوَدّونهم! وهل يُوادُّ ويُحِبُّ عاقلٌ مسلمٌ كافراً معادياً له.

٨ ـ تذكيرُ المسلمينَ بأَنَّ ما معهم فهو الحق والهُدى والنور ، وتذكيرهم بأَنَّ أَعداءهم كفروا بهذا الحَقِّ الذي معهم ، فكيفَ يُوالي ويحبُّ المسلمونَ أَعداءَهم الكافرينَ بالحقِّ الذي معهم؟!.

٩ ـ تَذكيرُ المسلمين بجريمةِ الأعداء في حَقِّهم ، وهي إِخراجُ حبيبهم

رسول الله ﷺ من بلده ، وإخراجُهم من بلادِهم أيضاً ، فكيفَ يوالون أعداءً فعلوا هذه الجريمة؟!.

١٠ ـ تقريرُ ظلمِ وعدوانِ هؤلاء الأعداء ، وعُدوانِهم عليهم ، فهم لم يرتكبوا جريمة يستحقونَ بها الإخراجَ من أوطانِهم ، إلاَّ إيمانهم باللهِ ربِّهم! وهل الإيمانُ جريمة يعاقَبُ عليها صاحِبُها؟!.

١١ ـ تذكير المسلمين بأن خروجهم للجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله يتناقض مع موالاة الأعداء ؛ فكيف يقعون في هذا التناقض؟!.

١٢ ـ تهديدُهم بأَنَّ موالاة الأعداءِ تَحرمُهم من أَجْر الجهادِ في سبيلِ الله ، كما تَحرمُهم من نَيْلِ مرضاةِ الله ، وبما أنهم حريصونَ على الأجرِ والمرضاةِ فلْيتوقَّفوا عن موالاةِ الكفار.

١٣ ـ تقبيحُ الإسرارِ بالموَدَّةِ للكفار ، بعدَ تقبيحِ الجهرِ والإعلانِ بها ، والنَّصُّ على النهي عن نوعي الموالاة: السّرّي والعَلَنيّ ، والخفيّ والجَهريّ.

١٤ ـ تذكيرُ المسلمينَ بشمولِ علْم الله بهم وبأَقوالِهم وأعمالِهم ، سواءً كانت خفيةً أو علنية ، ومنها موالاةُ الكفارِ الجهرية والسرية!!.

١٥ ـ تَقريرُ حقيقة ضَلالِ وخسارةِ كُلِّ مَنْ يُوالونَ الأَعداء.

١٦ ـ تَهديدُ المسلمين بالعقابِ إن أَصرّوا على موالاةِ الكفار ، بعد كُلِّ هذه التوجيهات!!.

من لطائف الآية:

أَشَرْنا إلىٰ بعضِ لطائفِ الآية البيانية عندَ وقفتِنا التحليليةِ لكلماتِها وجُمَلها ، ونُشيرُ هنا إلى بعضِ اللطائف البيانية العامَّةِ للآية:

١ ـ في الآيةِ خمسُ جملٍ حالية ، أَيْ فيها خمسةُ أَحوال: حالانِ للمسلمين ، وحالانِ للكافرين ، والحالُ الخامسُ لله رَبِّ العالمين.

الحالُ الأَولُ للمؤمنين: في قوله: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

الحالُ الثاني للكافرين: في قوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾.

الحالُ الثالث للكافرين: في قوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.

الحالُ الرابع للمؤمنين: في قوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

الحالُ الخامسِ لربِّ العالمين: في قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾.

واللطيفُ أَنَّ الحالَيْنِ للمؤمنين يَتناقَضان مع الحالَيْن للكافرين، وهذا من المبالغةِ في تهييجِ المسلمين على مفاصلةِ الكافرين:

المسلمون يُلْقونَ إِليهم بالمودةِ، في الوقت الذي كَفروا هم بالحَقِّ الذي مع المسلمين.

والمسلمونَ يُسِرّونَ إِليهم بالمودة، في الوقْتِ الذي أَخرجوا به المسلمين من ديارِهم.

فالمفارقةُ بين حالَي المسلمين وحالَي الكافرين واضحة، وكلَّما تَقَدَّمَ لهم المسلمون بموَدَّة، قابلوهم بمزيدٍ من العداوةِ!!.

والحالُ الخامسُ يُقَرِّرُ شُمولَ علْمِ اللهِ بأحوالِ المسلمين والكافرين.

بقيَ أَنْ نُشيرَ إِلى الجمالِ في الآية التي اجتمعتْ فيها خمسُ جُمَلٍ حالية، وبصورَةٍ بليغةٍ معجزة، وبدون أَيِّ ضَعْفٍ أَوْ خلخلة.

وحكمةُ ورودِ خَمْسِ جُمَلٍ حاليَّةٍ في آيةٍ تتحدَّثُ عن خطورَةِ موالاةِ الكفار هي أَنَّ اتخاذَ الكفارِ أَولياءَ يُفسِدُ أحوالَ المسلمين، السياسيةَ والاجتماعيةَ والأَخلاقيةَ والعلميةَ والدينية، وأَنْ أَحوالهم لا تَصلحُ إِلاّ بمفاصلَةِ الكفار.

واللَّطيفُ أَنَّ الأَحوالَ الأَربعةَ للمسلمين والكافرين جاءَتْ بالجملةِ الفعلية، بينما الحالُ الخامسُ الذي يتحدَّثُ عن الله جاءَ بالجملةِ الاسمية، وذلك للإشارةِ إِلى شمولِ علمِ اللهِ بالأُسلوبِ الدالِّ على الثباتِ والاستقرار، لأَنه حقيقةٌ مؤكَّدَةٌ مقررةٌ ثابتة.

٢ ـ في الآية ثلاثَةُ مفاعيل لأَجله:

الأَول: جملةٌ مصدرية، وهي: ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، أَيْ: أَخرجوكم لإِيمانكم.

الثاني: مفردٌ صريحٌ منصوب: ﴿خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾.

الثالث: مفردٌ صريحٌ معطوفٌ عليه: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾.

وتأتي المفاعيلُ الثلاثةُ للثَّناءِ على المؤمنين ومَدْحِهم؛ فهم مؤمنونَ ثابتونَ على الحق، ولذلك عاداهم الكفارُ وأَخْرَجوهم.. وهم خَرَجوا لأَجلِ الجهادِ الخالصِ لله، كما خرجوا طلباً لمرضاةِ الله.

٣ ـ في الآية جملتان شرطيَّتان، الخطابُ فيهما للمسلمين، بهدفِ تحذيرِهم من موالاةِ الكافرين، وتهييجهم على مفاصلتِهم.

الجملةُ الأُولى: حُذِفَ منها جوابُ الشرطِ للعلم به، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي﴾.

والجملة الثانية: قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٤ ـ في الآية سَبْعُ واوات؛ أربعُ واواتٍ للعطف، واثنتانِ للحال، والسابعةُ للاستئناف:

عُطِفَ المنصوبُ على المنصوب في ثلاثٍ منها، وهي: ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ﴾، و﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾، و﴿خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾. وعُطِفَ في الرابعةِ موصولٌ مجرورٌ على موصولٍ مجرور: ﴿أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾.

وواوُ الحال الأُولى تُخبرُ عن حالِ الكفار؛ وهي في قوله تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾.

وواوُ الحالِ الثانية تُخبرُ عن شمولِ علْمِ الله: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾.

والواوُ السابعةُ واوُ الاستئناف، وهي في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٥ ـ في الآيةِ خمسُ باءات، جاءَتْ حروف جر، وهي: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾، و﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾، و﴿أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾، و﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾.

واللطيفُ أَنَّ الباءَ في هذه الجمل الخمسة كلها بمعنى المصاحبةِ والملابسة.

٦ ـ في الآيةِ تَقابُلٌ لطيفٌ بين الحرفَيْنِ «أَنْ» بفتحِ الهمزة، و«إِنْ» بكسرِ الهمزة، وجاءَ الحرفانِ في جملتَيْن متجاورتين.

الجملة الأولى: فيها «أَنْ» بفتْحِ الهمزة، وهي «أَنْ المصدرية»: ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

الجملة الثانية: فيها «إِنْ» بكسْرِ الهمزة، وهي «إِنْ الشرطية»: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾.

٧ ـ في الآية حالاتٌ متقابلةٌ لطيفة، مثل: التقابلِ بين العداوةِ والولاية في جملة: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾. والتقابل بين الإخفاءِ والإعلان، في جملة: ﴿ما أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾.



الفصل السابع

السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة

نُقَدِّمُ في هذا الفصْلِ نموذجاً للحديث عن «المتشابِهِ اللفظي» في القرآنِ، وهو موضوعٌ يتعلَّقُ بالتعبير القرآني وأَساليبِ البيانِ المعجزة فيه.

والمتشابهُ اللفظيُّ في القرآنِ هو اختلافُ حديثِ القرآنِ عن القصةِ الواحدة، أَو الموضوعِ الواحد، بحيثُ تختلفُ الآياتُ المتحدثَةُ عن الموضوع الواحد، بالزِّيادةِ والحذف، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والتوكيد والتَّرْك.. وهذا العلمُ من أنفسِ وأَلطفِ علومِ القرآن، التي تبحثُ في بيانِه وتَعبيرِه.

وقد أُلِّفَتْ كتبٌ كثيرةٌ في توجيهِ المتشابِهِ اللفظي في القرآن في القديم والحديث، لعلَّ من أَجودِها كتابُ (مَلاكُ التأويل، القاطعُ لذوي الإلْحادِ والتعطيل، في توجيه متشابه التنزيل)، للقاضي أبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي، المتوفَّى في مطلع القرن الثامن، وقد طُبِعَ الكتابُ بتحقيق الدكتور محمود كامل أَحمد.

ويُمكنُ الحديثُ عن آلافِ الآياتِ التي بينَها تَشابُـهٌ لفظيٌّ وموضوعي، ويُمكنُ توجيه ذلك في دراسةٍ بيانيةٍ وقرآنيةٍ ممتعة، مكوَّنَةٍ من عدة مجلدات.

آيتا المسابقة والمسارعة:

ونُقدمُ هذا النموذجَ في توجيهِ وتحليلِ التشابهِ اللفظي بين آيتَيْن، في سورتَيْن مختلفَتيْن؛ تتحدَّثانِ عن نفسِ الموضوع.

آيتان في سورتَيْن مدنيتين تتحدَّثان عن نعيم الجنة؛ تَدعو الأولى إِلى المسابقةِ إِلى الجنة، وتدعو الثانيةُ إِلى المسارعةِ إِلى الجنة.

قال اللهُ عز وجل: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال الله عز وجل: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

مظاهرُ الاتفاقِ بينَ الآيَتيْن:

تَلتقي الآيتانِ على الموضوعِ العام:

في آية سورة الحديد يأمُرُ اللهُ المؤمنين بالمسابقةِ إلى مغفرتِه وجنَّته، هذه الجنةُ عَرْضُها كَعَرْضِ السماءِ والأَرض، وهذه الجنةُ أُعِدَّتْ للمؤمنين باللهِ ورسلِه، وإِدخالُ المؤمنين هذه الجنة هو فضلُ الله آتاهم إِيّاه، وهو سبحانَه ذو الفضْلِ العظيم.

وفي آية سورةِ آلِ عمران يأمُر اللهُ المتقين بالمسارعة إلىٰ مغفرتِه وجنَّتِه، هذه الجنَّةُ عرضُها كَعرضِ السمواتِ والأَرضِ، وقد أُعِدَّتْ للمُتَّقين.

والاتفاقُ بين الآيَتَيْن في المظاهر التالية:

١ـ في كلٍّ منهما أَمْرٌ من الله لِعبادِه.

٢ـ في كلٍّ منهما دَعوةٌ إِلى نَيْلِ: ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٣ـ في كلٍّ منهما عَطْفُ الجَنةِ على المغفرة: ﴿مَغْفِرَةٍ.... وَجَنَّةٍ﴾.

٤ـ في كلٍّ منهما ذِكْرُ عرضِ الجنة.

٥ـ في كلٍّ منهما ذكْرُ السماءِ والأرض.

٦ـ في كلٍّ منهما ذِكْرُ إِعدادِ الجنةِ وتهيئَتِها.

سبعة فروق بين الآيتين:

يوجَدُ بين الآيَتَيْن الفروق التالية:

١ ـ لم تُذكر الواوُ في مطلعِ آيةِ سورة الحديد: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن

رَبِّكُمْ﴾ ، بينما ذُكِرتْ في مطلع آيةِ سورةِ آل عمران : ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ .

٢ ـ أَمَرَ اللهُ في الآيةِ الأُولى بالمسابقة : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ ، بينما أَمَرَ في الآيةِ الثانية بالمسارعة : ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ .

٣ ـ أخبرت الآيةُ الأُولىٰ أَنَّ عَرْضَ الجنةِ كعرضِ السماءِ والأَرض ، فأَدْخلَتْ كافَ التشبيه على «عَرْض» ، قالت : ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ، بينما أَسقطت الآيةُ الثانيةُ هذهِ الكاف ، وقالت : ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ .

٤ ـ ذكرت الآيةُ الأُولى ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ بلفظِ المفرد؛ فقالت : ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ، وذَكرت الآيةُ الثانية ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بلفظ الجمع؛ فقالت : ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ .

٥ ـ ذَكرت الآيةُ الأولى أَنَّ الجنةَ أُعدت للذين آمنوا ، فقالت : ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ ، وذَكرت الآيةُ الثانيةُ أَنَّ الجنةَ للمتقين ؛ فقالت : ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ .

٦ ـ عقَّبَت الآيةُ الأولى على نعيم الجنةِ وخيرها بأَنه فَضْلٌ من الله ، فقالت : ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ، بينما سَكتت الآيةُ الثانيةُ عن ذلك .

٧ ـ لم تتحدّثْ سورةُ الحديد عن صفاتِ أَصحاب الجنة ، وإنما انتقلَتْ إلى موضوع آخر يتحدَّثُ عن القدر ؛ قال تعالىٰ : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد : ٢٢] .

بينما عرَضَتْ سورةُ آلِ عمران بعدَ ذلك أَهَمَّ صفاتِ المتقين ؛ قال تعالىٰ : ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ

يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

إنَّ وجودَ هذه الفروقِ السبعةِ بين آيَتَيْنِ تتحدَّثانِ عن موضوعٍ واحدٍ دليلٌ على روعةِ وعظمةِ البيان القرآني، وعلى دقة القرآن المعجزةِ في اختيار جُمَلِه وآياتِه، وكلماتِه وحروفِه، وعظمةِ الصياغةِ القرآنيةِ التي تضعُ كُلَّ كلمةٍ موضعها المناسب، وكلَّ حرفٍ موضعَه اللائق.

وإنَّ هذا دليلٌ على أنه لا يُمكنُ أَنْ تُستَبدَلُ الكلمةُ القرآنيةُ بكلمةٍ أُخرى، ولا يمكنُ أَنْ يَسُدَّ مكانَ الحرفِ القرآنيِّ حرفٌ آخر.

وهذا دليلٌ على رفضِ بعض الأفكار الخاطئة، المتعلقة بالتعبير القرآني، مثلُ الزيادةِ والترادف والتكرار.. فما زَعَموه (زائداً) في القرآن؛ له مهمةٌ بلاغيةٌ وتفسيريةٌ وتأويليةٌ معجزة.. وما ظَنّوه (مُترادفاً) في القرآنِ؛ ليس كذلك، وإنما هو من باب المتقارب.. وما جَعَلوه (مُكَرَّراً) في القرآنِ؛ ليس من هذا الباب، وإنَّما من باب التنويع.. وهكذا.

اختلاف السياق في الحديد وآل عمران:

ومن المعلومِ بداهةً أَنَّ (السياقَ) العامَّ الذي وردَتْ فيه الكلمةُ أو الآيةُ هو الحَكَمُ في اختلافِ التعبير، وفي دقَّةِ اختيارِ كلماتِ الآيةِ وحُروفِها.

ولذلك لا بُدَّ من معرفةِ سياقِ الآيَتَيْن: آيةِ سورةِ الحديد، وآيةِ سورة آلِ عمران. ثم لا بُدَّ من تَدَبُّر هذا السياق للوقوفِ على حكمةِ وُجودِ هذه الفروق السبعةِ بينهما، واختصاص كُلِّ آيةٍ بالألفاظِ المذكورةِ فيها.

سياقُ آيةِ سورة الحديد في المقارنةِ بين الدنيا والآخرة، وزوالِ الدنيا، وبَقاءِ الآخِرَة، ونعيمِ الدنيا مقابلَ نعيمِ الآخِرة، ودعوةِ المؤمنين إلى عدمِ الانشغالِ بنعيم الدنيا وتركِ نعيمِ الآخرة، ولذلك تَدْعوهم الآيةُ إلى المسابقةِ إلى نعيمِ الآخرةِ، قال اللهُ قبلَ تلكَ الآية: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ولذلك دَعت الآيةُ المؤمنينَ إلى المسابقةِ إلى الجنةِ ، التي هي كعرضِ السماءِ والأَرض ، ورغَّبَتْهم في هذه المسابقة ، وأخبرَتْهم أَنَّ الفوزَ فيه فَضْلٌ من الله ، يُؤتيه مَنْ يشاءُ من عبادِه . . ولا يمكن لمؤمنٍ باللهِ ورسلِهِ أَنْ يَخسرَ في هذه المسابقة ، وأَنْ يَحرمَ نفسه من هذا الفوز العظيم ، وأَنْ يُفَضِّلَ عليه متاعَ الدنيا القصيرَ سريعَ الزوال ! .

أَمَّا سياقُ آيةِ سورةِ آلِ عمران فإنه ليسَ عن المؤمنين المسابقين إلى المغفرةِ والجنةِ ، وإنما هو عن المتقين الذين اتَّصفوا بأكرمِ الصفات ، وقاموا بأفضلِ الأَعمال ، إنَّهم سابَقوا سِباقاً خاصّاً ، ثم سارَعوا مُسارَعَةً . . . وبذلك فازُوا فَوْزاً خاصّاً ؛ قال اللهُ عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٠ ـ ١٣٦] .

وبإِمعانِ النظرِ في هذينِ السياقَيْن نجدُ أَنهما لا يتحدَّثانِ عن شيء واحد ، ولا عن أُناسٍ مُعَيَّنين .

إنَّ السياقَيْن يتحدَّثانِ عن صنْفَيْن من أَهلِ الجنة ، ولِذلك اختارَتْ كُلُّ آيةٍ الحروف والكلماتِ التي تتحدَّثُ عن ذلك الصنف ، وعن صفاتِه وأعمالِه .

آيةُ سورة الحديدِ تتحدَّثُ عن المؤمنين المسابقينَ المتسابقين إلى الجنة ، ولذلك جاءَتْ حروفُها وكلماتُها متناسبةً مع هؤلاء المؤمنين .

أما آية سورة آل عمران ؛ فإنها تتحدَّث عن صنف أرفع وأعزّ وأكرم من ذلك الصنف ؛ إن حديثها عن المتقين المسارعين المتسارعين في سَيْرهم إلى الجنة، ولذلك جاءت حروفها وكلماتها متناسبة مع هؤلاء المتقين .

ولهذا وقَعَت الفروقُ السبعةُ بين الآيَتَيْن. . ولنحاول الآنَ توجيهَ اختلافِ التعبير بينهما بفروقِه السبعة.

١ ـ حرفُ العطف بين الحذف والذكر:

آيةُ سورةِ الحديدِ مستأنفة ، غيرُ معطوفةٍ على ما قَبْلَها ، ولذلك بَدَأَتْ بدونِ حرفِ عطف ، وأَمَرَتْ مباشرةً بالمسابقة: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وحكمةُ إسقاط حرفِ العطفِ منها اعتبارُها نتيجةً وثمرةً للآيةِ التي قبلَها. وقد أَمَرَ اللهُ في الآيةِ السابقةِ المسلمين بالعِلْم بسرعةِ زَوالِ الدنيا ، وتفاهتها بالنسبةِ للآخرة ، فقالَ في أَوْلها: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ. . .﴾ ، وبما أَنَّ المؤمنين مأمورونَ بالعلم ناسَبَ أَنْ تَذْكُرَ هذه الآية ما يَجِبُ أَنْ يترتبَ على العلم بالحقيقة السابقة ، وهو المسابقةُ إلى ذلك النعيم الدائم ، فأمَرَهم بالمسابقةِ قائلاً: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ فلا وَجْهَ لعطفِ النتيجة على المقدمة!.

أَما الآياتُ في سورةِ آل عمران فإنها تتكلمُ عن مجموعةٍ من الأَوامِر ، يَنتجُ عنها مجموعةٌ من الأَفعال ، وهذه الأوامر معطوفٌ بَعضُها على بعضٍ بالواو ، فناسَب أَنْ تبدأَ الآيةُ بالواو لتعطفَ الأَمْرَ الذي فيها على الأَوامر في الآيات التي قبلَها: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾. . . ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾. . . ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾. . . ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ. . .﴾.

وبهذا نعرفُ الدقة العجيبة في حَذْفِ حَرْفِ العطفِ في آية ، وذِكْرِه في آيةٍ أُخرى ، وأَنَّ السياقَ هو الحكمُ في الحذفِ والذكر.

٢ ـ الفرق بين المسابقة والمسارعة:

أَمَرَ اللهُ في آيةِ سورة الحديدِ بالمسابقةِ إلى المغفرةِ والجنة ، بينما أَمَرَ في آيةِ سورةِ آلِ عمران بالمسارعةِ إليهما ، وقد يظنُّ بعضُ قصيري النظرِ أَنَّ الأَمْرَ في الآيتَيْن واحدٌ ، ولا يُحسنونَ التفريقَ بين المسابقةِ والمسارعةِ.

تتحدَّثُ الآيتانِ عن السِّباقِ إلى الجنة ، لكنَّ حديثَهما عنه ليس واحداً ، إذْ كُلُّ آيةٍ تتحدَّثُ عن مرحلةٍ من مراحلِ هذا السِّباق.

إنَّ أيَّ سباقٍ لا بُدَّ أَنْ يتمَّ على مرحلتَيْن:

المرحلةُ الأولى: الانطلاق.

والمرحلةُ الثانية: الإسراع.

نأخذُ السباقَ في الجَرْي مثلاً ؛ عندما تُنَظَّمُ المسابقةُ في الجري ، يصطَفُّ المتسابقون متساوين ، وعندما تُطْلَقُ إشارَةُ البدء يَتسابقون ويَجْرون، وبعد فترةٍ من الجري يُسارعون ، وينطلقونَ بأقصى سرعتِهم ، ليفوزَ الفائزون.

تتحدَّثُ آيةُ سورةِ الحديدِ عن المرحلةِ الأُولى في السعي إلى الجَنَّة ، وهي الانطلاقُ والمسابقة ، وتأْمُرُ المؤمنين بذلك قائلة: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ. . .﴾ ، وينطلقُ المتسابقونَ إليها ، ويقطعونَ بعضَ المسافة.

وبعدَ ذلك تبدأُ مرحلةُ المسارعة ، فيضاعِفُ المسارعونَ سرعتَهم ، ويَبذلونَ أَقصىٰ طاقتِهم ليفوزوا بالسَّبق ، ويكونوا من الفائزينَ السابقين ، الذين قال اللهُ عنهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٢].

ولا نَنْسى أَنَّ بعضَ المسابقينَ قد يَضعفُ ويعجَزُ ويَخرجُ من السباق ، ولا يَصِلُ إلى مرحلةِ المسارعةِ إلاّ المتقونَ أصحابُ الطاقاتِ والهممِ والعزائم.

على ضوءِ هذا البيانِ نَدعو إلى ملاحظةِ اختلافِ الفاعلِ للفعلَيْن: سابِقوا ، وسارِعوا: واوُ الجماعةِ في فعْلَي الأَمْرِ في محلِّ رفع فاعل ، ولكنَّ المأمورين مختلفون.

واوُ الجماعةِ في فعْلِ «سابقوا» تَعودُ على المؤمنين المتَسابقين. أَمّا واوُ الجماعةِ في فعْلِ «سارِعوا» فإنها تعودُ على الصنفِ الآخر ، وهم المتَّقونَ المتسارعون. واختلافُ الفاعِلَيْن في الفعلَيْن مرتبطٌ مع اختلافِ الفعلَيْن: سابِقوا ، وسارِعوا!!.

٣ ـ كاف التشبيه بين الذكر والحذف:

أُدخلتْ كافُ التشبيهِ على المشبَّهِ به في الآية الأُولى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وحُذِفَتْ هذه الكافُ في الآيةِ الثانية: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

والعَرْضُ هو المقابلُ للطول، وتُعْرَفُ مساحةُ المكانِ بتحديدِ طولِهِ وعَرْضِه، ويُرادُ به الاتِّساع؛ يُقال: هذا عَريضٌ؛ أَيْ: هذا واسِعٌ.

وبما أَنَّ الحديث في الآيتَيْن عن الجَنَّة التي يُسابقُ إِليها المسابقون، ويُسارعُ إِليها المسارعون. فما حكمةُ ذِكْرِ الكافِ في الآيةِ الأُولىٰ، وحذْفها من الآيةِ الثانية؟.

إنَّ ذكْرَ الكافِ وحَذْفَها مرتبطٌ بالحديثِ عن المسابقينَ إِلى الجَنَّة.

المسابقونَ إِلى الجنةِ في الآيةِ الأُولىٰ هم المؤمنون باللهِ ورسلِه، وهؤلاء أَكْثَرُ عَدَداً، فكثرةُ عَدَدِهم يُناسبُها تَطويلُ الجملة بذكْرِ الكافِ، (وتوسيعِ) طريقهم!!.

أَمّا المسارعونَ إِلى الجنةِ في الآيةِ الثانية فهم المتقون، وهؤلاء أَقلُّ عَدداً من المؤمنين، وقلَّةُ عَدَدِهم يُناسبُها تقصيرُ الجملة، بحذْفِ الكافِ، وتقليلُ حروفها وكلماتِها.

فالتناسُبُ والتوافقُ ملحوظ، إذا كَثُرَ العددُ كَثُرَتْ حروفُ الجملة، وزيدَ في توسيع الطريق، وإِذا قَلَّ عددُ السائرين قُلِّلَتْ حروفُ الكلمة، وضُيِّقَ في مساحةِ الطريق!!.

٤ ـ التفاوت بين المفرد والجمع: السماء والسموات:

الجنةُ التي يُسابقُ إِليها المؤمنون في سورةِ الحديد: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والجنةُ التي يُسارعُ إِليها المتقونَ في سورةِ آلِ عمران: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

فما حكمةُ الإِخبارِ عن الأُولى بالمفردِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، وعن الثانيةِ بالجمع: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟ وما الفرقُ بين السماءِ والسموات؟.

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: اسْمُ جنس ، وهذا يَنطبقُ على المفردِ والمثنّى والجمع والمذكَّرِ والمؤنَّث. . واسْمُ الجنسِ أَعَمُّ من الجَمْع ، لأَنه يَنطبقُ على أَفرادٍ كثيرين.

على هذا نُدركُ أَنَّ التعبيرَ باسْمِ الجنسِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في سورة الحديدِ أَعَمُّ من الجمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في سورةِ آلِ عمران ، وأَنه يُلْتَفَتُ فيه إِلى ساحةٍ أَوسَعَ وأَشملَ من ساحةِ الجَمْع.

إِنَّ الإِخبارَ عن الجنةِ في سورةِ الحديدِ يُناسبُه اختيارُ الكلمةِ الأَعَمِّ والأَوسع والأَشمل ، فذكْرُ كلمةِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ ، لأَنَّ الذينَ يُسابقونَ إِلى هذه الجنةِ هم القومُ المؤمنون ، وهؤلاءِ أَكثرُ عَدَداً من الصنفِ الثاني: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾!!.

أَما الإِخبارُ عن الجنةِ في سورةِ آلِ عمران فيناسبُه اختيارُ الكلمةِ الأَقَلِّ عموماً وسَعَةً وشُمولاً ، وذِكْرُ كلمةِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ دليلٌ على ذلك ؛ لأَنَّ الذينَ يُسارِعونَ إِليها هم القومُ المتَّقون ، وهم أَقَلُّ عَدَداً من المؤمنين.

والدليلُ على أَنَّ المفردَ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ أعَمُّ وأَشملُ من الجمع: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قولُه تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

استوى اللهُ إِلى السماء فسَوّاها وجَعَلَها سبعَ سموات. . فالسماءُ أَعَمُّ من السموات.

والدليلُ على أَنَّ اسْمَ الجنسِ أَعَمُّ من الجمع أَنك تقول: عندي أَرْضٌ. . وإِذا قَسَّمْتَ بعضها إِلى عدةِ قطعٍ صغيرةٍ تقول: عندي أَراضٍ. . فالأَرضُ هنا أوسعُ من الأَراضي.

وهكذا نرى أَنه لما كَثُرَ عددُ المسابقين اختارَ القرآنُ اسْمَ الجنسِ الدّالَّ على السَّعَة ، والمتناسبَ مع الكثرةِ ، ولما قَلَّ عددُ المسارعين اختارَ القرآنُ الجمعَ الدالَّ على الأَقَل. . والقرآنُ يوازنُ موازنةً دقيقةً معجزةً في اختيارِ الكلمةِ المتناسقةِ مع السياق!!.

٥ ـ بين كثرة المؤمنين وقلة المتقين:

أَخبرتْ آيةُ سورة حديد أَنَّ الجنة : ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ .
وأَخبرَتْ آيةُ سورةِ آلِ عمرانِ أَن الجنة : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

والمرادُ بالمؤمنين كُلُّ المؤمنينَ الذين حَقَّقوا أَركان الإِيمان الستة ـ الإِيمانُ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليوم الآخرِ والقَدَر ـ وأَدّوا أركان الإِسلامِ الخمسة المعروفة .

وعَدَدُ هؤلاء كثير ، ضمن أَجيالٍ وقُرونٍ وعُقود الأمّة المسلمة ، منذُ رسولِ الله ﷺ وحتى قيام الساعة . وبسببِ كثرةِ عددِ هؤلاءِ جاءَ الحديثُ عن جَنَّةٍ أكثرَ سَعَةً وعُموماً .

أَمّا المتقونَ الذينَ أَخبرَتْ عنهم آيةُ سورةِ آلِ عمرانِ فإِنهم صنفٌ خاصٌّ من المؤمنين ، وهم الذين اتَّصفوا بصِفَةِ التقوى ، وجاهَدوا أنفسهم حتى استقامَتْ على منهجِ الله ، وتضاعَفَتْ أَعمالُهم الصالحة ، وارتقوا في عالمِ التزكيةِ والتربيةِ والإِحسان .

وكُلُّ المتَّقينَ مؤمنون ، لأَنَّ التقوىٰ بعدَ الإِيمان ، ولا تتحققُ إِلاّ بعدَ الإِيمان ، ولكن ليسَ كُلُّ المؤمنين مُتَّقين ، لأَنها منزلةٌ عاليةٌ تحتاجُ إِلى عزائمَ وهممٍ ، ومعنى هذا أَنَّ عددَ المؤمنين أَضعافُ عددِ المتقين .

ولذلكَ كانَ الحديثُ عنهم في سورةِ آلِ عمران بكلماتٍ وحروفٍ أَقَلّ ، وهذا توازُنٌ آخرُ في كلماتِ وحروفِ القرآنِ ، يتناسَقُ فيه المذكورُ في الآيةِ مع الموضوعِ الذي يتحدَّثُ عنه كثرةً وقِلَّة ! ! .

٦ ـ حكمة التعقيب في سورة الحديد:

عَقَّبَتْ آيةُ سورةِ الحديدِ بالترغيبِ في التسابقِ إِلى الجنة ، وتَقريرِ أَنه فضْلٌ من الله : ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

والمشارُ إِليه هو التوفيقُ إِلى التسابق ، والرغبةُ فيه ، والحرصُ عليه ، فهذا فضْلُ اللهِ يتفضَّلُ به على مَنْ يَشاءُ من عبادِه ، ويُحَبِّبُه إلى مَنْ يَشاءُ من عِبادِه ، ويُؤتيهِ مَنْ يشاء من عباده ، واللهُ ذو الفضْلِ العظيم ، والعطاء الكثير .

وأَسقطَتْ سورةُ آلِ عمران هذا التعقيب ، ولم تُرغِّبْ هذا التَّرغيب ، واكتفَتْ بقولها: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

ولعلَّ حكمةَ ذِكْرِ التعقيبِ والترغيبِ تناسُبُ ذلك مع الحديثِ عن المؤمنين الذين يُسابقونَ إلى الجنة. إنَّ سَيْرهم إلى الجنةِ ما زالَ في بداياته ، ولذلك كانوا بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الترغيبِ والتشجيع والحَثّ ، ليستمرُّوا في السِّباق ، ويَزيدوا من سرعَتِهم فيه؛ ولذلك رغَّبَتْهم الآيةُ في السباقِ بإخبارِهم أَنَّ هذا السِّباقَ والسعيَ فضْلٌ من الله ، يَمُنُّ اللهُ به على مَنْ يشاءُ من عبادِه ، وعلى مَنْ تَفَضَّلَ اللهُ به عليه أَنْ يشكُرَه عليه ، وأَنْ يَسيرَ في الطريقِ مستَعيناً بالله.

ولم تذكرْ آيةُ سورةِ آل عمرانِ ذلك ، لأَنَّ المسارعينَ إلى الجنةِ هم المتقون ، وهؤلاء ليسوا بحاجةٍ إلى تشجيع ، لأَنهم ارتقوا إلى درجةِ التَّقوى ، ووصلوا مرتبةً من المجاهدةِ والتزكية ، استشرفوا فيها الجنة ، وكأَنهم يَرونها بعيونِهم ، فسارَعوا إِليها.

٧ ـ دعوة للاتِّصاف بصفات المتقين:

تَرَكَ سياقُ سورةِ الحديد المؤمنين يَتسابَقون إلى الجنة ، وانتقل للحديثِ عن القَدَر ، وأَنَّ كُلَّ ما يَجري في هذا الوجودِ فهو بقَدَرٍ من الله؛ قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ...﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

أَمّا سياقُ سورةِ آلِ عمرانِ فإِنه استمرَّ في الحديثِ عن المتقين بذكْرِ أَهَمِّ صفاتِهم العملية ، وجاءت الآياتُ اللاحقةُ تَوْضيحاً وتَفصيلاً للمتَّقين ، من باب دعوةِ القارئينَ والمستمعين والمتدبِّرين للاقتداءِ بهم؛ قال تعالىٰ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

ومن اتصالِ الآياتِ الوثيقِ بالآيةِ الأُولىٰ، أَنها كأَنها آيةٌ واحدة، وجاءَ مطلعُ الآيةِ الثانية (بَدَلاً) من الآيةِ الأُولى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾. والتقدير: أُعِدَّتْ للمتقين المنفقينَ في السراءِ والضراء.

والآنَ وبعدَ بيانِ حكمةِ الاختلافِ بين الآيتَيْن، وتوجيهِ التشابهِ اللفظيِّ بينهما، نقررُ أَنَّ بينَ الآيتَيْن عموماً وخصوصاً ومرحليةً وتدرُّجاً.

إِنَّ آية سورة الحديدِ أعَمُّ من آيةِ سورةِ آلِ عمران، لأَنَّ الحديثَ فيها عن المؤمنين الذينَ آمَنوا بالله ورسله، فجاءَ التعبيرُ فيها متناسباً مع هذا العموم، وتوافَقَتْ كلماتُ وحروفُ الآيةِ مع هذا العموم.

أمّا آيةُ سورة آلِ عمران فإنها أَخصُّ؛ لأَنَّ الحديثَ فيها عن صنفِ المتقين، الذي هو أَخَصُّ من صنفِ المؤمِنين، وجاءَ التعبيرُ فيها متناسِباً مع هذا الخُصوص.

وأَشارَتْ آيةُ سورةِ الحديد إلى المرحلة الأُولى، وهي تَسابُقُ المؤمنين إلى الجنة، وأَشارَتْ آيةُ سورةِ آلِ عمران إلى المرحلة الثانية، وهي تسارُعُ المتقين إلى الجنة. ولكلِّ مرحلةٍ ما يناسِبُها من الكلماتِ والحروف.. وحَقَّقَ التعبيرُ القرآنيُّ هذا كلَّه بدقةٍ معجزةٍ، وتوازُنٍ رفيع... وسبحانَ مُنَزِّلِ هذا القرآنِ الدقيقِ المعجز!!.

من لطائف التعبير في الآيتين:

مَرّتْ بنا لطائفُ عديدةٌ من الآيتيْن في تحليلِنا لمظاهرِ التشابُهِ والاختلافِ بينهما، لكننا نقفُ هنا لنلخصَ القولَ في هذه اللطائف، ونذكُرُ بعضَ ما لم نذكُرْه من قبل:

١ ـ فاعلُ ﴿سارعوا﴾ غيرُ فاعِل ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ ويُعْرَفُ ذلك من خلالِ سياقِ الآيتيْن.

الحديث في سورةِ الحديدِ عن المؤمنين ، فهم المأْمورونَ بالسباقِ إلى الجنة . . والحديثُ في سورةِ آلِ عمران عن المتقين ، فهم المأمورون بالمسارعة ، وهم أَخَصُّ من المؤمنين.

٢ ـ فِعْلا الأَمْرِ في الآيتَيْن على وَزْن (فاعِلوا)، والماضي منهما رباعي على وزن (فاعَلوا)، والألِف في ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ و﴿سارعوا﴾ تُسمّى أَلَفَ المفاعلةِ والمشاركةِ ، وتدلُّ على وُجودِ طرفَيْن ، بينهما مسارعةٌ ومسابقة.

ومعنى هذا أَنه يَجِبُ أَنْ (يُسابِقَ) المؤمنون بعضُهم بعضاً إلى الجنة ، وأَنْ (يُسارِعَ) المتقون بعضُهم بَعضاً إلى الجنة ، وأَنْ يَحرصَ كلٌّ منهم على أَنْ يفوزَ على غيرِه في المسابقةِ والمسارعةِ.

٣ ـ يدلُّ فعلا الأَمْرِ ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ و﴿سارعوا﴾ على وجوبِ السعي إلى الجنة ، وعلى أَهميةِ الاستعدادِ لها ، والسيرِ في طريقِها ، وعَلى جدّيّةِ الأَمْرِ ، فلا بُدَّ للمؤمنِ المتقي أَنْ يكون جدّيّاً جادّاً في مسابقتِه ومسارعتِه إليها ، وأَلاّ يصرفَه عن ذلك شيءٌ من الصوارفِ والمعوِّقات. وأَنْ يوظِّفَ ما وهبه اللهُ من طاقاتٍ وقدراتٍ ، وهمةٍ وعزيمةٍ وإِرادة.

٤ ـ لا يُحملُ فعلا الأَمْرِ على ظاهرِهما المادّيّ القائمِ على الجَري والركضِ والعَدْوِ. . فهذا تصوُّرٌ مضحك ، أَنْ ترى مجموعةً من الرجالِ يركُضونَ ويَتَسابَقونَ ويُسرعون ، وعندما تسأَلُهم ، يقولونَ: إِننا نُسابِقُ ونُسارِعُ إِلى الجَنَّة ، ونُطبقُ الآيتَيْن!!.

إِنَّ المقصودَ من فعْلَي الأَمر هو السعيُ والتوجُّهُ ، والاهتمامُ والإِقبالُ ، بمعنى الاهتمامِ بالأَعمالِ الصالحةِ ، والإِكثارِ منها ، والمبادَرةِ إليها.

وبمعنى فِعلي الأَمْرِ هنا قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

٥ ـ المسابقةُ والمسارعةُ ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، والمغفرةُ مصدرُ الفعلِ الثلاثي «غَفر». و«مِن» هنا ابتدائية ، أَيْ أَنَّ المغفرةَ للمؤمنينَ من عندِ الله.

٦ ـ قُدِّمَت المغفرةُ على الجنة: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ ؛ وذلك

لأَنَّ المغفرةَ تَسبقُ دُخولَ الجنة ، فيحاسبُ اللهُ المؤمنين أوّلاً ، ثم يمنَحُهم العفوَ والمغفرة ، ثُم يُدخلُهم الجنةَ برحمتِه.

٧ ـ التنكيرُ في: ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ للتفخيم والتعظيم والتكريم ، إنَّها مغفرةٌ كريمةٌ عظيمةٌ ، لأَنَّ الذي مَنَّ بها هو الله ، وإنَّها جنةٌ فَخمةٌ شريفة ، لأَنها نعمةٌ من الله.

وتَستحقُّ هذه المغفرةُ العظيمةُ والجنةُ الفخمة ، أَنْ يَتسابقَ ويَتسارعَ إليهما المؤمنون والمتقون ، وأَنْ يَستخدموا لأَجْلِهما ما عندَهم من قوى وطاقات.

٨ ـ الجنةُ واسعةٌ كبيرة ، عَرْضُها السمواتُ والأَرض ، وهي مخلوقةٌ قبلَ خَلْقِ آدمَ عليه السلام بمدةٍ طويلةٍ لا يَعْلَمُها إلاّ الله ، ولذلك جعلهُ اللهُ فيها فترةً من الزمن ، ثم أَهبطه إلى الأرضِ ، وهي موجودَة الآنَ بانتظارِ المؤمنين ، وستبقى موجودَةً ، لا تفنى ولا تبيد.

وجهنَّمُ موجودةٌ كذلك ، ومخلوقَةٌ قبلَ خلْقِ آدم ، وستبقىٰ يُعَذَّبُ فيها الكفار ، فلا زَوالَ ولا فناءَ لها.

٩ ـ اختلفَ التعبيرُ عن المؤمنين في الآيتيْن ، ففي آيةِ سورةِ الحديدِ عَبَّرَ عنهم بجملةٍ فعلية: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ ، بينما عَبَّرَ عنهم في آيةِ سورةِ آلِ عمران باسم الفاعل: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وهذه الصفةُ تدلُّ على الثباتِ والاستقرار ؛ أَيْ أَنَّ «التَّقوىٰ» صارَتْ صفةً ثابتةً فيهم ، وملازمةً لهم ، لا ينفكّون ولا يتخلّونَ عنها ، ولذلك دفعَتْهم إلى المسارعةِ إلى الجنة ، وليس مجردَ المسابقةِ إليها.



الفصل الثامن

حديث القرآن عن الجاهلية

الجاهِلِيّة: مصطلحٌ قرآنيٌّ، له معنى واضحٌ محدَّدٌ في القرآنِ، وله فيه مجالاتٌ ومضامينُ وأبعاد وجوانب.

وقد دارَ في هذهِ الأيامِ كلامٌ ولَغَطٌ حولَ معنى هذا المصطلح، ووقعَ كثيرٌ من النّاسِ في لَبْسٍ في فَهْمِهِ، وفي بيانِ مضمونِه.

ومن المعلومِ عندنا أَنه إذا حصلَ خلافٌ في أَمْرٍ، فيجبُ على المسلمينَ العودةُ إلى القرآنِ، والاحتكامُ إليه في حَلِّ الإشكال؛ وعلى هذا قولُه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩].

وسنقفُ هنا مع مصطلحِ (**الجاهلية**) لنعرفَ مادَّتَه اللغوية، ومعناهُ في العربية، ثم نصحبُ القرآنَ في حديثِه عن الجاهلية، متعَرِّفين منه على مَعْناها ومَضمونِها، وعلى حقيقَتِها وأَلوانِها.

الجذر الاشتقاقي للجاهلية:

(الجاهِلِيَّةُ) مصدر، جَذْرُه الثلاثي (جَهْلٌ). ويتحققُ فيها معنى هذا الجذر؛ فما هو معناهُ الأَساسيّ.

قالَ ابنُ فارس: «الجيمُ والهاء واللاّمُ أَصْلان:

أَحَدُهُما: خِلافُ العِلْم.

والآخَر: الخِفَّةُ وخِلافُ الطمأْنينة.

فالجهلُ نقيضُ العِلْم. . ويُقال: اسْتَجْهَلَت الريحُ الغُصْنَ ، إذا حركَتْه فاضطرب.

قالَ النابغة الذبياني:

دَعاكَ الهَوى واسْتَجْهَلَتْكَ المنَازِلُ ... وَكَيْفَ تَصابي المَرْءِ والشَّيْبُ شامِلُ

أَي: استخَفَّتْكَ المنازلُ وَمنْ فيها. . . »[1].

وقالَ الإمامُ الراغبُ الأَصفهاني: «الجهلُ على ثلاثةِ أَضْرُب:

الأَولُ: خُلُوُّ النفسِ من العلم، هذا هو الأَصْل، وقد جَعَلَ ذلك بعضُ المتكلِّمين معنى مقتضياً للأَفعالِ الخارجةِ عن النِّظام.

والثاني: اعتقادُ الشيء بخلافِ ما هو عليه.

والثالث: فعْلُ الشيء بخلافِ ما حَقُّهُ أَنْ يُفْعَل، سواءٌ اعتقدَ فيه اعتقاداً صَحيحاً أَو فاسداً»[2].

وجاءَ في لسانِ العربِ: «. . . التَّجهيلُ: أَنْ تَنسبَه إلى الجهل، والجَهالَةُ: أَنْ يَفعَل الشيءَ بغيرِ علم، والمجْهَلَةُ: ما يَحملُك على الجهل، ومنه الحديث: «**الوَلَدُ مَبْخَلَةٌ، مَجْبَنَةٌ، مَجْهَلَة**. . .» و: الجاهليةُ: زمنُ الفترة ولا إِسلام. . .

وفي الحديثِ: «**إِنَّكَ امرؤٌ فيكَ جاهليّة**». وهي الحالةُ التي كانَ عليها العربُ قبلَ الإِسلام، من الجهلِ باللهِ ورسولِهِ وشرائعِ الدين، والمفاخرةِ بالأَنسابِ والكبرِ والتجبُّرِ، وغير ذلك. . .»[3].

يؤخَذُ من الكلام السابقِ أَنَّ الجهلَ نوعان:

الأَول: الجهلُ في الفكرِ والاعتقاد: وهو الجهلُ المقابلُ للعلم، ويعني عَدَمَ العلمِ والمعرفةِ.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ص ٢٢٨.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٢٠٩.
(٣) لسان العرب، لابن منظور: ١١/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

الثاني: الجهلُ في العمل والتصرُّفِ والسُّلوك: وهو الجهلُ المقابلُ للاتِّزان ويعني عدمَ الاتزانِ والطمأنينة.

وفي هذين النوعيْن من الجهلِ توجد الخِفَّةُ والطيشُ والاضطرابُ وعدمُ الطمأنينة.

فالذي يَجهلُ جَهْلاً فكريّاً يكونُ قَلِقاً مضطرباً، ضائِعاً حائِراً، لا يَعرفُ يَقيناً ولا طُمأنينةً ولا هُدوءاً.

والذي يَجهلُ جَهْلاً سلوكيّاً يكونُ خَفيفاً طائِشاً متهوِّراً، لا يَعرفُ الاتزانِ ولا الجدّيّة.

وقد وَرَدَ في القرآنِ الاشتقاقاتُ والتصريفاتُ التالية:

١ـ فعلٌ مضارعٌ مُسْنَدٌ للمخاطَبين: ﴿تَجْهَلُونَ﴾. وَرَدَ أَربعَ مرات.

٢ـ فعلٌ مضارعٌ مُسْنَدٌ للغائبين: ﴿يَجْهَلُونَ﴾. وَرَدَ مرةً واحدة.

٣ـ اسمُ فاعل مفرد: ﴿جاهل﴾. ورَدَ مرةً واحدة.

٤ـ اسمُ فاعل جمع: ﴿جَـٰهِلُونَ﴾. وردَ تسع مرات.

٥ـ صيغةُ مبالغة: ﴿جَهول﴾. وردَ مرةً واحدة.

٦ـ مصدر سماعي: ﴿جَهالة﴾. وردَ أَربعَ مرات.

٧ـ مصدر صناعي: ﴿جاهلية﴾. وردَ أَربعَ مرات.

ومجموعُ مراتِ ورودِ هذه الصيغِ في القرآن أَربعٌ وعشرون مرة.

ووقفتنا الآن أَمامَ مصطلح (الجاهلية).

معنى مصطلح (الجاهلية):

الجاهلية: مصدرٌ صناعي، من الجَذْرِ الثلاثي: «جَهِلَ»؛ نقول: جَهِلَ، يَجْهَلُ، جَهْلاً وجَهالةَ وجاهِلِيَّة.

والمصدرُ الصناعي هو ما كان مَخْتوماً بياءٍ مُشَدَّدَة تَليها تاءٌ مربوطة، مثل: الحريّة، والإِنسانيّة، والحيوانيّة، والعاطفيّةِ.

ولم يُستعملْ هذا المصطلحُ (الجاهليّة) قبلَ الإِسلام، ولم يُسَجَّلْ في

المعاجم منقولاً عن العربِ في العصرِ الجاهليِ ، وهو مما تَفَرَّدَ به القرآن .

وقد وَرَدَ بعدَ القرآنِ على لسانِ رسولِ الله ﷺ ، فقالَ لأَبي ذَرٍّ رضيَ اللهُ عنه : «**إنَّك امرُؤٌ فيكَ جاهِليّة**» .

وبما أَنَّ الجاهليةَ من (مُبْتَكَراتِ) أَلْفاظِ القرآنِ فإنَّها لم تَرِدْ في القرآن بمعنى الجهلِ الذي هو المقابلُ للعلم ، وإنما هي بمعنى الجهلِ المقابلِ للاتِّزان ، فهي بمعنى الخفةِ والسَّفهِ والطيش .

وقد وَرَدَت (الجاهليةُ) أَربعَ مرات ، في أَربع سُوَر ، كُلُّها مدنيّة ، هي سور : آل عمران ، والمائدة ، والأحزاب ، والفتح . وقد وَرَدَتْ في كلِّ سورةٍ بمعنى .

١ ـ ظَنُّ الجاهليةِ في سورةِ آل عمران:

أُضيفت الجاهليّةُ إلى الظنِّ في سورةِ آلِ عمران ، في سياقِ الحديثِ عن جريمة المنافقين في غزوةِ أُحُد .

قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .

يمتنُّ اللهُ على المسلمين بما أَنزلَ عليهم في غزوةِ أُحُدٍ من أَمَنَة ، وهي النُّعاسُ الذي غَشِيَهُم ، فأَزالَ غمَّهم وقلَقَهم .

أما المنافقون فقد كانوا في قَلَقٍ وتُوَتُّرٍ واضطراب ، أَهَمَّتْهم أَنفسُهم ، فزالَتْ عنهم الأَمَنَةُ والطمأنينةُ والسكينة ، وحلَّ محلَّها القَلَقُ والاضطراب ، والهواجسُ والتخيُّلات ، والظنونُ والوساوس .

وهذه ضريبةٌ باهظة يدفعها الذين لا يُفكرونَ في أُمَّتِهم عند الأَزمات ، ويدورون في فَلَكِ ذواتِهم وأَنانيّاتِهم ، ولا تهمُّم إلاّ أنفُسهم . . إنهم يكونونَ قَلقين مُتوتّرين مُنفعلين ، تُسيطرُ عليهم ظنونُهم وهواجسُهم .

وقد أَخبرت الآيةُ أَنَّ المنافقين الذين أَهمتّهم أَنفسُهم كانوا يظنّونَ باللهِ غير الحقِّ ، وهو ظنُّ الجاهلية : ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ ﴾ .

الواوُ في ﴿ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ ﴾ : حرف استئناف، والجملة مستأنفةٌ تتحدَّثُ عن سوء ظنِّ المنافقين. ﴿طائِفَةٌ﴾ مبتدأ ، وجملة ﴿ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ : في محلِّ رفع صِفَة. أَيْ: وطائفةٌ مُهتمّون بأَنفسِهم. وجملةُ ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ : في محلِّ رفع خبر. والتقدير: طائفةٌ مهتَمّون بأَنفسِهم ظانّون باللهِ غيرَ الحق. . و﴿ غَيۡرَ ﴾ : صفةٌ لموصوف محذوف ، هو المفعولُ المطلق. والتقديرُ: يظُنون باللهِ ظَنّاً غيرَ الحق. و﴿ ظَنَّ ﴾ : بَدَلٌ من المفعولِ المطلقِ المحذوف. و﴿ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ ﴾ : مُضافٌ إِليه لمضافٍ محذوف ، تقديرُه «أَهلِ»، ويكونُ تقديرُ الكلام كلِّه هكذا: وطائفةٌ مهتَمّون بأَنفسِهم ، ظانّونَ باللهِ ظنّاً غيرَ الحق ؛ هو ظَنُّ أَهْلِ الجاهليّة .

وجملةُ ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ ﴾ : في محلِّ نصب حال. وجملةُ ﴿ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ ﴾ : في محلِّ نصب حالٍ ثانٍ.

وَصَفَ اللهُ المنافقينَ بأَنهم طائفةٌ قد أَهَمَّتْهم أَنفسُهم. . وبَيَّنَ هذا بسوءِ ظنِّهم بالله : ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ ﴾ .

وَوُصِفَ ظنُّهم بصفتَيْنِ قبيحتَيْن :

الأُولى: أَنه ظنٌّ غيرُ الحق ؛ أَيْ أنّه ظَنٌّ باطل ، لأَنه سوء ظَنٍّ بالله وبقدَرِه وبِحكْمَتِه ، واعتراضٌ على اللهِ وقَدَرِه .

الثانية: أَنه ظَنُّ أَهْلِ الجاهلية ، وَظَنُّ أَهلِ الجاهليةِ ظَنٌّ باطِلٌ دائماً .

ومجيء ﴿ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ ﴾ بَدَلاً من ﴿ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ للإِشارةِ إِلى أَنَّ المنافقينَ لم يؤمنوا حقيقة وإِنْ زَعموا دُخولَهم في الإِسلام ، فهم لم يَزالوا على جاهليَّتِهم وكفرِهم ، ولم يَزَلْ ظنُّهم وتفكيرُهم كَظَنِّ أَهلِ الجاهليةِ الكافرينَ الآخرين .

والجاهليةُ هنا جاهليةُ ظَنٍّ وفكرٍ ، وجاهليةُ تصوُّرٍ ونَظَر ، جاهليةٌ تَنصبُّ على الأَفكارِ والظنونِ أو الهواجسِ والمشاعرِ والمبادئ والنَّظرات، فهي جاهليةٌ فكريةٌ تصوريةٌ عقليةٌ نظرية .

ولم تترك الآيةُ ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ مُبْهَماً ، بل وَضَّحَتْه وبَيَّنَتْه وفسَّرَتْه .

ثلاثةُ مظاهرَ لظَنِّ الجاهليةَ :

الأوّل : في جملةِ : ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾؟ : وهذه الجملةُ الفعليةُ في محلِّ نصب حال ، وصاحبُ الحال ضَميرُ «هم» في ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ العائدُ على المنافقين .

وتُسجلُ هذه الجملةُ اعتراضَ المنافقين على رسولِ الله ﷺ ، عندما خرجَ بالمسلمينَ إلى غزوةِ أُحُد ، ولمَ يأْخُذْ برأيِ المنافقين في البقاءِ في المدينة . غضبوا من رسولِ الله ﷺ ، وادَّعَوْا أنه تجاهَلَهم وأَهملَهم ، عندما لم يأْخُذْ برأْيِهم .

وهذا الاعتراضُ منهم دليلٌ على جاهليةِ ظنِّهم وتَصَوُّرِهم وتفكيرِهم ، لأنه اعتراضٌ على اللهِ وعلى قَدَرِه ، وعلى رسولِه ﷺ وصوابِ قرارِه . . ولذلك جاءَ الرَّدُّ عليهم ونقْضُ اعتراضِهم صَريحاً : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ .

التَّصَوُّرُ الإيمانيُّ المقابلُ للظنِّ الجاهليِّ يَدْعو أَصحابَه المؤمنين إلى الإِيمانِ بقَدَرِ الله ، والرضا به ، والاستسلامِ له ، وليس الاعتراض عليه .

الثاني : في جملةِ : ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ : هذه الجملةُ الفعليةُ في محلِّ نصب حالٍ ثانٍ للمنافقين ؛ لقد كانوا يَتعامَلونَ مع رسولِ الله ﷺ بنفاقٍ وتحامُلٍ ومَكْر ، فكانوا يُخفونَ في أَنفسِهم الكفرَ والتكذيبَ برسولِ الله ﷺ ، ويُبدونَ ويُظهِرونَ له الإِسلامَ والإِيمانَ به والطاعةَ له .

وهذا التحايلُ والنفاقُ من ظَنِّ أَهْلِ الجاهلية ، لأَنهم يَظنُّونَ أَن الرسولَ ﷺ يُمكنُ أَنْ يُخْدَعَ ويُضْحَكَ عليه! ونسوا أَنه مُؤَيَّدٌ بالوَحي ، وأَنْ الله يفضحُ ويَكشفُ له أَعداءَه .

الثالث : في جملةِ : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ : هذه الجملةُ بدلٌ من الجملة السابقةِ : ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ، وفيها اعتراضٌ آخرُ منهم على رسولِ الله ﷺ ، وتخطئةٌ له في خروجِه إلى غزوة أُحُد ، فلو أَخَذَ برأيِهم ولم يَخرجْ من المدينةِ لما قُتِلَ سبعونَ من أَصحابه في ميدانِ أُحُد .

وقولُهم هذا من ظَنِّ الجاهلية ، لأَنه يتعلقُ بالقضاء والقَدَر ، والعمر والأَجَل ، والحياة والموت . . . وهذه جاهليةٌ اعتقاديةٌ ، في الفكرِ والتصوُّر.

ولذلك رَدَّ اللهُ على هذا الظَّنِّ الجاهليِّ الاعتقاديِّ بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ . أَيْ: إِنَّ الخروجَ للقتالِ لا يُقَصِّرُ عُمراً. وإِنَّ القُعودَ في البيتِ لا يطيلُ عُمراً ، والإِنسانُ لا يَموتُ إِلاّ بأَجَلِه ، الذي حَدَّدَه اللهُ له .

بين ظن الجاهليين ويقين المؤمنين:

ظَنُّ المنافقينَ ظَنٌّ باطلٌ غيرُ صحيح ، وهو كظَنِّ إِخوانِهم من أَهلِ الجاهليةِ الكافرين، وهو ظَنٌّ في التصور والعقيدة، وهم مخطئون في هذا الظَّنِّ الجاهليِّ لما يلي:

١ ـ لأَنهم قد أَهَمَّتْهم أَنفسُهم: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ .

٢ ـ لأَنهم ظنّوا بالله ظَنَّ الجاهليةِ الباطل: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ .

٣ ـ لأَنهم اعْتَرَضوا على قَرارِ الرسول ﷺ بالخروجِ إِلى أُحُد: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ .

٤ ـ لأَنهم خادعوا الرسولَ ﷺ ، وأَظْهَروا له غيرَ ما أَخفوا: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ﴾ .

٥ ـ لأَنهم لا يعرفون حقيقةَ القَدَرِ والأَجَل ، ويَظُنُّونَ أَنَّ الإِقدامَ في القتالِ يُقَصّرُ العمر: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ .

واللطيفُ في الآيةِ الكريمة أَنها ذكرتْ مظاهرَ الظَّنِّ الجاهليِّ الذي عليه المنافقون ، وذكَرَتْ مُقابلَه معالمَ التصورِ الإِيمانيِّ الصحيح ، الذي عليه المؤمنون:

١ ـ كانَ الصحابةُ في أُحُدٍ آمِنين مطمَئنِّين ، في مقابلِ قَلَقِ واضطرابِ المنافقين: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ .

٢ ـ بينما كانَ المنافقون مهتمين بأنفسِهم في أُحُد ، كانَ الصحابةُ مهتَمّين بالأُمَّة وبالجهادِ ويفكّرونَ في مواجهةِ الأعداء .

٣ ـ بينما كانَ المنافقونَ يظُنّونَ باللهِ غير الحَقِّ ، كان الصحابةُ يُحسنونَ الإيمانَ باللهِ ، ويُحسنونَ الظَّنَّ بالله ، ويرضونَ بقَدَرِ الله .

٤ ـ بينما كانَ ظَنُّ المنافقينَ ظَنَّ الجاهليةِ، كانَ الصحابةُ يوقنونَ ويَجزمون ، ويُحققونَ إيمانهم بالله ، ويَجعلونَ هذا الإيمانَ اعتقاداً جازماً ويقيناً قاطعاً .

٥ ـ بينما كانَ المنافقونَ يَعترضونَ على رسولِ الله ﷺ قائلين : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾؟ ، كان الصحابةُ مُطيعين للرسولِ ﷺ ، ومُسَلِّمين لقَدَرِ الله ، ويوقنونَ بأَنَّ الأمْرَ كُلَّه لله .

٦ ـ بينما كان المنافقون يُخادعونَ الرسولَ ﷺ ويتحايَلونَ عليه ويُخْفونَ في أَنفسِهم ما لايُبدونَ له ، كان الصحابةُ صادِقينَ مع رسولِ الله ﷺ ولا يُخفونَ عنه شيئاً .

٧ ـ بينما كانَ المنافقونَ يَظُنّونَ أَنه لو لم يخرج الصحابةُ إلى ميدانِ أُحُدٍ لما قتلوا في المعركة ، كان الصحابةُ يوقِنونَ وهم يُجاهدون أَنَّ الإقدام والاستبسال لا يُقَصِّرُ عُمُراً ، وأَنَّ الجبنَ والقعودَ لا يُطيلُ عُمُراً ، وأَنه ﴿ لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ .

وقد أَبطَلَ اللهُ ظَنَّ المنافقين الجاهليَّ في موضوعِ الحياةِ والموتِ، والعُمُرِ والأَجَل ، في آياتٍ أُخرى من سورة آل عمران ؛ منها قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

ومنها قولُه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٨] .

إِنَّ هذا التقابُلَ في الآيةِ التي تحدَّثتْ عن ظَنِّ الجاهليةِ بين ما عليه

المنافقون وما عليه المؤمنون ، يؤكِّدُ على أنهما حالتان مُتَقابلتان في حياةِ البشرية ، على اختلافِ الزمانِ والمكان:

الحالةُ الأولى: ظَنُّ الجاهلية: الذي عليه المنافقون والكافرون ، وبعضُ الجهلةِ من المسلمين ، والذي يَعْني الجاهليةَ في الفكرِ والتصور ، والجاهليةَ في النَّظَرِ والاعتقادِ ، والجاهليةَ في الهواجسِ والمشاعر ، والجاهليةَ في التحليلِ والتقويم.

الحالة الثانية: اليقينُ الإيماني: الذي عليه المسلمون العالمون ، منذُ الصحابةِ وحتى قيامِ الساعة ، والذي يَعني تحقيق الإيمان ، وحُسْنَ التصورِ والتفكير ، وصوابَ التَّحليلِ والتعليل ، والرضا بقَدَرِ الله والراحةِ في الاستسلامِ لله.

٢ ـ حكم الجاهلية في سورة المائدة:

أُضيفت الجاهليةُ إلى الحُكْم ، في سياقِ آياتٍ تتحدَّثُ عن وُجوبِ الحكْمِ بشرعِ الله ، وتنهى عن الحكْم بالهوى.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٨ ـ ٥٠].

بعد أَنْ بَيَّنَ اللهُ لرسوله ﷺ طبيعةَ هذا القرآنِ الذي أنزلَه إليه ، من أَنَّه منزَّلٌ بالحَقِّ ، وأَنه مصدِّقٌ لما بينَ يديهِ من الكتابِ ، وأنه مهيمنٌ على كلِّ ما سبَقه . . أَمَرَهُ أَنْ يَحكُمَ به بينَ الناس.

وقد أَكد هذا الأَمر بجملتيْن:

الأُولى: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا

جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ .

الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ .

ولا تكرارَ في الجملتيْن ، فالأُولى تُخبرُ أَنَّ اللهَ جَعَلَ لكلِّ أُمةٍ شِرعةً ومنهاجاً ، ولذلك خصَّ الأمَّةَ المسلمة بالقرآن ، فلا يَجوزُ أَنْ يَتركَ المسلمونَ هذا القرآنَ الحَقَّ، وأَنْ يَعودوا إلى ما عليه السابقونَ من باطل . . أَما الجملةُ الثانية فإِنَّها تُحَذِّرُ الرسولَ ﷺ ـ وكلَّ حاكمٍ من بعده ـ من أَنْ يستجيبَ لأَهواءِ أَصحابِ الباطل، كما تُحَذِّرُه منْ أَنْ يَفتِنوهُ عن بعض ما أنزل اللهُ إِليهِ من الحق .

وتَلْتَقي الجملَتانِ على الأَمْرِ بالحُكْم بما أَنزلَ الله ، وعلى النَّهي عن اتِّباعِ الأَهواء : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ .

ونَلفتُ النظرَ إلى دلالةِ كلمةِ ﴿بعْضِ﴾ في جملةِ ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ على خطورةِ التنازل عن أَيِّ جزءٍ من شرعِ الله ، مهما قَلَّ ! ! .

وبعد التحذير والتنبيه يأْتي التقريرُ القرآنيُّ الحاسم : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ؟ ! .

تذُمُّ الآيةُ الذينَ يَرفضونَ حُكْمَ الله ، وهو الحَكَمُ الصادقُ العادل ، ويَطلبونَ حكْمَ أَهْلِ الجاهليةِ مكانَه ! ! .

وتتكوَّنُ الآيةُ من جملَتيْن متعاطفتين : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ ؟ ، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ؟ ! .

﴿ أَفَحُكْمَ﴾ : الهمزةُ : للاستفهام ، والاستفهامُ في الجملةِ إنكاريّ، والفاءُ حرفُ عَطف ؛ عَطَفتْ جملةَ ﴿حكم ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ على جملة محذوفة ، مفهومةٍ من السياق ، والتقدير : أيُعرضون عن حكم الله ، فيبغون حُكْمَ الجاهلية ؟ ! .

و﴿حُكْمَ﴾ : مفعولٌ به مقدَّمٌ على فِعْلِه : ﴿ يَبْغُونَ﴾ . و﴿ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ : مضافٌ

إِليه. و﴿ يَبْغُونَۚ ﴾: فعلٌ مضارعٌ وفاعله. والتقديرُ: أَيَبْغونَ حُكْمَ الجاهليّة. ومعنى ﴿ يَبْغُونَۚ ﴾: يَطلبونَ ويَرغبونَ ويَبحثونَ ويُريدون.

والواوُ في ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا ﴾ حرفُ عطف، عَطَفَتْ ما بعدَها على ما قَبلَها. و﴿مَنْ﴾: اسْمُ استفهامٍ في محلِّ رفْع مبتدأ، و﴿ أَحْسَنُ ﴾: خبر. و﴿ حُكْمًا ﴾: تمييز.

من لطائف الآية:

اللطيفُ الرائعُ أَنْ بينَ الجملتَيْن المتعاطفَتَيْن مجموعةٌ من اللطائفِ، منها:

١ ـ كُلُّ جملة منهما مفتتحةٌ بالاستفهام، لكن كانَ الاستفهام في الأُولى بالحرفِ «الهمزة»، وكانَ الاستفهامُ في الثانية بالاسم «مَنْ».

٢ ـ الاستفهامُ في الأُولى استفهامٌ إنكاري، يُنْكِرُ اللهُ فيه على أَهْلِ الهوى اختيارَ حُكْمِ الجاهلية.. أَما الاستفهامُ في الجملةِ الثانيةِ فإنه تقريري؛ يُقرِّرُ فيه أَنه ليسَ هناكَ حُكْمٌ أَحسنُ من حُكْمِ الله.

٣ ـ الجملةُ الأُولىٰ جملةٌ فعلية، تدلُّ على التجددِ والاستمرار، والجملةُ الثانية جملةٌ اسمية، تدلُّ على الاستقرار، وعُطفتِ الجملةُ الاسميةُ على الجملةِ الفعلية.

٤ ـ ذُكِرَ «الحُكْمُ» في الآيةِ مرتَيْن، وفي كلِّ جملةٍ كانَ منصوباً، لكنه كانَ في الجملةِ الأُولىٰ مفعولاً بِهِ مُقَدَّماً، وكانَ في الجملةِ الثانية تمييزاً.

٥ ـ أُضيفَ «الحكْمُ» في الجملةِ الأُولى إلى الجاهلية «حكم الجاهلية» وذلك للتقبيح والتَّنفير، لأَنَّ الجاهليةَ جاهلة، وحُكْمُها يكونُ جاهِلاً ظالِماً خاطِئاً. ولكَنَّ الحُكْمَ في الجملةِ الثانية كانَ تمييزاً نكِرَة، وهذا التنكيرُ للتشريفِ والتكريم، لأَنه ثَناءٌ على حُكْمِ الله.

وإِضافةُ الحُكْمِ إِلى الجاهلية: «حكم الجاهلية» تَدُلُّ على أَنَّ أَيَّ حُكْمٍ مُغايرٍ لشرعِ اللهِ يدخُلُ ضمنَ حكْمِ الجاهلية، وأَنَّ أَيَّ حكْمٍ بغيرِ ما أَنزلَ اللهُ هو من حكْمِ الجاهلية. كما يدلُّ على أَنَّ الجاهليةَ قد تكونُ في الحكْمِ والتشريع.

إذَنْ: هناك حكْمٌ جاهليّ ، وهناكَ تَشريعٌ جاهليّ ، وقانونٌ جاهلي ، وقضاءٌ جاهلي ، وهناك سياسةٌ جاهلية ، وإدارةٌ جاهليّة . .

ولا تكونُ هذه المظاهرُ جاهليةً إلاَّ إذا استُمِدَّتْ من غيرِ شرع الله ، على اختلافِ الزمانِ والمكانِ ، واختلافِ المستوىٰ العلميّ والمدَنيّ والحضاريّ .

وذِكْرُ «حُكْمِ الجاهلية» في مقابل «حُكْمِ الله» في الآيةِ ، له دلالةٌ أُخرىٰ مهمة ، هي أَنَّ الحكْمَ نوعان ، على اختلافِ الزمانِ والمكان :

النوعُ الأول: حُكْمُ الله: وهو المستَمَدُّ كلُّه من شرع الله ، الذي لا يُخالفُه في أَيِّ جزءٍ أو جانب ، وهذا هو الحُكْمُ الإسلاميُّ الربّاني ، الذي يَعترفُ به الإسلام ، والذي يُباركُه الله .

النوع الثاني: حكْمُ الجاهلية: وهو أَيُّ حُكْمٍ لم يُسْتَمَدَّ من شَرْعِ الله ، مهما كانَ مَصْدَرُه ، ومهما كان مَظهرُه ، ومهما كان زَمانُه أَو مكانُه .

وإذا لم يكُن الحكْمُ حكْمَ اللهِ بالصفَةِ التي حَدَّدْناها ، كان حكْمَ الجاهلية ، فلا نَذهبُ بعيداً في التَّصْنيفِ والتوصيف .

٣ ـ تبرُّجُ الجاهليةِ الأولى في سورة الأحزاب:

أُضيفَ «التبَرُّجُ» إلى الجاهليّة ، ووُصفت الجاهليةُ بالأُولى ، وذلك في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٣] .

ليستْ هذه الآياتُ خاصَّةً بنساءِ النبيِّ ﷺ ، وإنما هي عامَّةٌ لكلِّ النساءِ المسلماتِ حتى قيام الساعة .

وتُقدِّمَ هذه الآياتُ مجموعةً من التوجيهاتِ والأَحكام ، مثلُ: عدم التَّكَسُّر والغَنَجِ والدَّلَعِ في الكلام ، والنطقُ بالقولِ المعروفِ الجادّ ، والاستقرارُ في البيوت ، وعدمُ الخروجِ مُتبرِّجات ، وإقامةُ الصلاةِ ، وإيتاءُ الزكاة ، وطاعةُ اللهِ ورسوله .

وقفتُنا مع نهيهن عن التبرج: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

الواوُ: حرفُ عطف، عَطَفَتْ جملةَ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ على جملةِ: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

و﴿قَرْنَ﴾: فعلُ أَمْر، والنونُ نونُ النِّسْوة، في محلِّ رفع فاعل. والفعلُ الماضي منه «قَرَّ» بالرّاءِ المضَعَّفَة، وهو من الاستقرار؛ تقول: قَرَّ، يَقَرُّ، والرّاءُ في فعل الأَمْر «قَرْ» ساكنةٌ للتخفيف، وأَصلها «اقْرَرْ». ومَعْنى ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: عليكُنَّ بالقَرارِ والاستقرارِ في البُيوت؛ لأَنَّ الأَصْلَ هو الاستقرارُ في البيوت.

والواوُ في ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ حرفُ عطف، وجملةُ ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ معطوفةٌ على ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾. واللطيفُ هو عطفُ النهي في الجملة الثانيةِ على الأَمْرِ في الجملة الأُولى. و﴿لا﴾: حرفُ نَهْي. و﴿تَبَرَّجْنَ﴾: فعلٌ مُضارعٌ مبنيٌّ على السكونِ لاتّصالِه بنونِ النِّسوةِ، وهو في محل جزمٍ بـ﴿لا﴾ الناهية.

وأَصْلُ ﴿تَبَرَّجْنَ﴾: تَتَبَرَّجْنَ؛ بتَاءَيْن: تاءِ المضارعة، وتاءِ التفعُّل «التَّبَرُّج»، فحُذِفتْ تاءُ المضارعةِ للتسهيل، وبقيتْ تاءُ التفعُّل. ففعْل ﴿تَبَرَّجْنَ﴾ على وَزْنِ «تَفَعَّلْنَ». و﴿تَبَرُّجَ﴾: مفعولٌ مطلق. و﴿ٱلْجَاهِلِيَّةِ﴾: مضافٌ إليه. و﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: صفةُ ﴿ٱلْجَاهِلِيَّةِ﴾ مجرورة.

و﴿ٱلْجَاهِلِيَّةِ﴾ في الحقيقةِ مُضافٌ إليه لمضافٍ محذوف، والتَّقْدير: لا تَتَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ نِساءِ الجاهليةِ الأُولى؛ لأَن الجاهليةَ لا تتَبرج إِنما تتبرج نساؤُها.

والتَّبَرُّجُ صيغةُ تَفَعُّل، من الثلاثي «بَرْجٌ».

قالَ ابنُ فارس: «بَرْجٌ: يُستعملُ في أَصلَيْن:

أَحَدُهما: البروز والظهورُ، ومنه «البرْجُ» وهو سَعَةُ العَيْنِ، في شِدَّةِ سَوادِ سَوادِها وشِدَّةِ بياضِ بياضِها، ومنه: التَّبَرُّجُ: وهو إِظهارُ المرأَةِ محاسِنَها.

والثاني: الملجأ، ومنه: بُروجُ السماء، وأَصْلُ البُروجِ: الحصونُ والقصور»[1].

وقال الراغبُ الأَصفهاني: «ثَوْبٌ مُبَرَّجٌ: صُوِّرَتْ عليه بُروجٌ، فاعتُبِرَ حُسْنُه. وقيل: تَبَرَّجَتِ المرأةُ، أَيْ: تشبَّهَتْ به في إِظهارِ المحاسن. وقيل: تَبَرَّجَتْ: إذا خَرَجَتْ من بُرجِها، وهو قَصْرُها، ويَدُلُّ على هذا ظاهرُ الآية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠]»[2].

فالتبرُّجُ عند المرأةِ هو: خروجُها من بيتِها، متعطِّرَةً متزيِّنَة، وبذلك تُظْهِرُ زِينَتَها، وتُسفرُ عن جَمالِها وحُسْنِها، وتَفتنُ بذلك الرجال، فهي تَسيرُ في الشوارع أو تَجلسُ في الأَماكنِ العامَّة، وهي تكشفُ عن شَعْرِها أو عُنُقِها أَو عَضُدِها أَو سَاقِها، أَو عن ظهرها أَو سُرَّتِها!!.

التبرج بين الجاهلية الأولىٰ والجاهلية المعاصرة:

وأُضيفَ التبرجُ إلى نساءِ الجاهليةِ الأُولى: ولا تبرجن تبرج نساءِ الجاهليةِ الأولى: أيْ: لا تكشِفْنَ عن عوراتِكُنَّ كما كانتْ تفعلُ نساءُ الجاهلية الأُولى.

ولم تَذكر الآيةُ صفةَ تَبرُّجِ نساءِ الجاهلية الأُولى، كما لم يَذكرْ ذلك رسولُ الله ﷺ؛ فلا داعي للكلامِ على صفةِ ذلك التبرج، كلُّ ما يُقالُ عنه: إنَّ نساءَ تلك الجاهليةِ عندما يَخرجْنَ يكشفْنَ عَوراتِهن، ويستعرضْنَ مفاتِنَهُنّ، ولا يهمُّنا تفاصيلُ ذلك الكشف، ولا كيفيةُ ذلك التكشف، ولا مقدارُ وحجمُ الجزءِ المكشوفِ من أَجسادِهن!!.

و﴿الْأُولَىٰ﴾: صفةٌ للجاهلية، بمعنى السابقةِ الماضية، فهي أَوليةٌ تاريخية. و﴿الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾: هي الفترةُ الزمنيةُ السابقة، التي كانتْ قبلَ الإِسلام، وهذه الفترةُ ممتدةٌ ما بينَ آدمَ عليه السلام، حتى محمدٍ ﷺ.

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس، ص ١٣٠.
(٢) المفردات، ص ١١٥.

لقد كانت النساءُ الكافراتُ في الجاهليةِ الأُولى قَبلَ الإسلام يتكشَّفْنَ ويتبرجْنَ ويتَعَرَّيْنَ ، ويُظهرنَ كثيراً من أجسادِهنّ ، لفتنةِ وإِفسادِ الرجال!!.

وَوَصْفُ الجاهلية بأَنها أُولى ـ وهي ما كانتْ قبل الإسلامِ ـ يدلُّ على أَنَّ هذه الجاهليةَ ستعودُ بعدَ الإسلامِ ، وسيَكونُ هناك جاهلية ثانيةٌ وثالثةٌ..!!.

ويدلُّ على ذلك هذا الحوارُ العلميُّ ، الذي جرى بينَ عمرَ بنِ الخطاب ، و ابن عباس رضي الله عنهم:

«قالَ عمرُ بنُ الخطاب لعبدِ الله بن عباس رضي الله عنهم: أَرأَيْتَ قولَ الله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾؟ هل كانَتْ إِلاّ جاهلية واحدة؟.

فقال ابن عباس: وهل كانَتْ من أُولى إِلاّ ولها آخِرَة؟.

فقال عمرُ: للهِ دَركَ يا بنَ عباس ؛ كَيفَ قُلتَ؟.

قال ابن عباس: يا أميرَ المؤمنين! هل كانَتْ من أُولى إِلاّ ولها آخِرَة؟.

قال عمر: فَائْتِ بتصديقِ ما تقولُ من كتابِ الله.

قالَ ابنُ عباس: نعم. هو في قول الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨] ، فإِنّ معناه: جاهِدوا في اللهِ حَقَّ جهادِه ، كما جاهَدْتُم أَولَ مَرَّة.

قالَ عمر: صَدَقْتَ...»[١].

ونَشهدُ أَنَّ «جاهليةَ التبرُّج» عادَتْ من جديد ، وانتشرَتْ في كلِّ مكانٍ في هذا العالم ، الذي يعيشُ جاهليةَ القرن الحادي والعشرين ، رغْمَ تَقدُّمِه الماديِّ والمدنيّ والعلميّ والصناعيّ والتكنولوجيّ.

ولقد تَبَرَّجَتْ نِساءُ هذه الجاهليةِ المعاصرة ، ووصَلْنَ في تَبرُّجهنَّ إِلى مستوياتٍ مذهلة ، لم تَفْعَلْها نساءُ الجاهلياتِ السابقة ، وساعدت الصناعات والاختراعاتُ على إِيجادِ وسائلَ شيطانيةٍ عجيبةٍ مذهلة ، في نشْرِ وتَسويقِ هذا التَبرُّج من أمثالِ مساحيقِ التجميلِ والعطورِ ، وصَرْعاتِ الأَزياءِ والموضات

---

(١) تفسير الطبري: ١٢/ ٥.

والملابس التي تكشفُ من جسد المرأةِ أكثرَ مما تسْتُر. . وكَشَفت النساءُ عن مفاتِنِهن، وتَعَرَّيْنَ، وانتشرَتْ نوادي العُراةِ، وظهرَتْ أفلامُ العُرْي والإباحِيّة، واخْتُرِعَ الفيديو كليب وقنواتُ التَّعَرّي ومواقع الإنترنت، وموروستْ مختلفُ أنواعِ الفواحشِ والشهواتِ، السَّويةِ والشّاذَّة، في بَثٍّ حَيٍّ ومباشر، على المسارحِ وفي النوادي والأفلام والفضائيات.

وماذا يُساوي تَبَرُّجُ وتَعَرّي نساءِ الجاهليةِ الأُولى أَمامَ تَبرُّجِ وتَعَرّي نساءِ هذه الجاهليةِ المعاصرة؟!.

وإِنَّ وَصْفَ جاهليةِ التبرج والتَّعَرّي بالأُولى، يدلُّ على أَنَّ التَّبرُّجَ والتَّعَرّي ليس فَنّاً ولا تَقَدُّماً، ولا حضارةً ولا (شياكة)، وإنما هو تأَخُّرٌ وتَخَلُّفٌ، و(رجعيَّةٌ) وانحطاط، لأَنه عودةٌ بالمرأةِ إلى عُصورِ التخلُّفِ والبدائيَّة.

إِنَّ المرأةَ التي تَرضى لنفسها أَنْ تُقَدِّمَ جسدَها للرجالِ متخلِّفة، وإِنَّ التي تَتَعَرّى وتَتَكَشَّفُ أَمامَ الرجال (رَجْعيَّة) تَعودُ إِلى الجاهليةِ الأُولى، حيثُ البدائيةُ والتخلف. . وإِنَّ التبرُّجَ والتَّعَرّي سلوكٌ جاهليٌّ طائش متخلف، وليسَ أناقةً ولا مَهارَة. . إِنَّ إناثَ الحيوانات تَمشي عارية، وتَشَبُّهُ المرأةِ بها في التَّعَرّي ليس فنّاً ولا كرامة؛ إِنَّ كرامةَ المرأة تتمثلُ في عِفَّتِها وطَهارَتِها، وفي حَصانَتِها وحَيائِها، وهذه هي المتحضرةُ المتمدنة، الواعيةُ المتزنة!!.

٤ ـ حمية الجاهلية في سورة الفتح:

أُضيفت الحميةُ إِلى الجاهليةِ ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ في حديثِ القرآنِ عن موقفِ قريشٍ العجيبِ من المسلمين في الحديبية.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٤ ـ ٢٦].

تتحدَّثُ هذه الآياتُ عن جَوِّ إجراءِ صُلْح الحديبية ، الذي تَمَّ بينَ رسولِ الله ﷺ وبينَ قريش ، في ذي الحجةِ من السنةِ السادسة ؛ حيثُ منعَتْ قريشٌ الرسولَ ﷺ وأَصحابَه من دُخولِ مكة معتمِرين ، والذي حَمَلَهم على ذلك حميةُ الجاهلية .

يُوضِّحُ حميةَ الجاهليةِ موقفُ سهيلِ بنِ عمرو الذي فاوَضَ الرسول ﷺ نيابةً عن قريش .

فلما اتفقَ سهيلٌ مع رسولِ الله ﷺ على بُنودِ الصلح ، قالَ له : اكتبْ بيننا وبينَكَ كتاباً .

فدعا النبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أَبي طالبٍ رضي الله عنه ليَكْتُب .

فقالَ له النبيُّ ﷺ : «**اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم**» .

فاعتَرضَ سهيلٌ وقال : لا أَدري ما هو الرحمنُ الرحيم . ولكن اكتب : باسْمِك اللهمّ .

فقالَ له النبيُّ ﷺ : «**اكتب : باسمِك اللهمّ**» .

ثم قالَ له : «**اكتُب : هذا ما عاهَدَ عليه محمدٌ رسولُ الله**» .

فاعترضَ سهيل قائلاً : لو كنّا نعرفُ أَنك رسولُ اللهِ ما قاتَلْناك ولا صَدَدْناكَ عن البيت ، ولكن اكتب اسْمَك واسْمَ أَبيك : محمدَ بنَ عبد الله ! ! .

فقالَ ﷺ : «**واللهِ إني لرسولُ اللهِ وإنْ كَذَّبْتموني . اكتب : محمد بن عبد الله**» .

ثم قالَ النبي ﷺ : «**اكتب : على أَنْ تُخَلّوا بَيْنَنا وبينَ البيتِ فنطوفَ به !**» .

فقال سهيل : واللهِ لا تتحدَّثُ العرب أَنّا أُخِذْنا ضَغْطَةً ، ولكن ذلك من العامِ المقبل، وعلى أَنْ لا يأْتيك منّا رجل ، وإِنْ كانَ على دينك ، إِلاّ رددْتَه إِلينا .

وعَلَّقَ البخاريُّ على الحادثة بقوله : «فأنزلَ اللهُ قولَه تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ . . . ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ ؛ وكانت حميَّتُهم أَنهم لم يُقِرّوا

أَنه نبيُّ الله ، ولم يُقِرّوا ببِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ، وحالوا بينَه وبينَ البيت . . و: حَمَيْتُ القومَ مَنَعْتُهُمْ حِمايَة . و: أَحْمَيْتُ الحِمى: جَعَلْتُهُ حِمىً لا يُدْخَلُ . و: أَحْمَيْتُ الرجلَ: إِذا أَغْضَبْتُه ، إحْماءً»[1].

لقد سَجَّلَ البخاريُّ ثلاثةَ مظاهر لحميَّةِ الجاهلية التي سَيْطَرَتْ على قريش:

١ ـ لم يَعْتَرِفوا أَنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ عناداً واستكباراً ، رغم تواتُرِ وظُهورِ الأدلة على رسالته.

٢ ـ لم يَقْبَلْ سهيلُ بنُ عمرو أَن يَكْتُب: بسم الله الرحمن الرحيم ، وكتب مكانَها: باسْمِكَ اللهم ، عِناداً واسْتِكْباراً.

٣ـ أَصَرّوا على منْع رسولِ الله ﷺ وأَصحابه من دخولِ البيتِ الحرام هذا العام ، لئلا تقولَ العَرَب: إِنَّ المسلمينَ دخلوا مَكَّةَ رغْمَ أَنْفِ قريش . وبذلك تَضْعُفُ هَيْبَتُهم.

ما هي ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾؟:

قال الراغبُ الأَصفهاني في معناها: «الحَمْيُ: الحرارةُ المتولِّدَةُ من الجواهِرِ المحميةِ ، كالنّار والشمس ، ومن القوةِ الحارَّةِ في البَدَنِ . . . وعَبَّرَ عن القُوّةِ الغضَبيّة إِذا ثارَتْ وكَثُرَتْ بالحمية ، فقيل: حَمَيْتُ على فلان . أَيْ: غَضِبْتُ عليه»[2].

الحِميَّةُ من الحَمْي . والحَمْيُ: الحَرارَةُ . والحامي: الحارُّ.

والحرارَةُ نوعان:

الأَول: حَرارةٌ ماديّةٌ ، ناتجةٌ عن الأَشياءِ المعَرَّضَة للحَرِّ ، كَحَرِّ الشمس وحَرِّ النار . تقول: هذا ماءٌ حامٍ ، وهذه عينٌ حاميةٌ . أَيْ: حارٌّ شديدُ الحَرارةِ.

الثاني: حرارةٌ معنويّة ، ناتجةٌ عن الانفعالاتِ والتوترات والمشاعِر

---

(١) البخاري، برقم (٢٧٣١).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

المتوهِّجَةِ ، والأَحاسيسِ المضطربة ، فتؤدّي إِلى القَلَقِ والانفعالِ والحِدَّةِ والغضب.

فالحَميَّةُ هي: التأَثُّرُ والانفعال ، والحِدَّةُ والشِّدَّة ، والغضبُ والقَلَق.

وقولُه تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً مع قولِه تعالىٰ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرفُ زمانٍ للماضي ، بمعنىٰ «حين» ، وجملةُ ﴿جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: في محلِّ جَرٍّ مُضافٍ إِليه ، والتقدير: حينَ جَعْلِهم في قلوبهم الحميَّةَ.

وهذه الجملَةُ متعلقة بقولِه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ والتقديرُ: هم الذينَ كَفَروا وصَدّوكم عن المسجدِ الحرامِ حين جَعلوا في قلوبهم الحميَّةَ.

و﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾: مفعولٌ به لفعْل ﴿جَعَلُواْ﴾. و﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾: عطفُ بيانٍ للحمِيَّة ، حيثُ جاءت ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾ مجملةً أَوَّلاً ، ثم فُصِّلَتْ بعطفِ البيانِ ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ بهدفِ زيادةِ تأكيدِ وتقريرِ المعنىٰ.

و﴿ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ في الحقيقةِ مُضافٌ إِليه لمضافٍ مَحْذوف ؛ تقديرُه: حميةُ أَهْلِ الجاهلية.

وإِضافةُ الحميَّةِ إِلى ﴿ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ بهدفِ تَحقيرِها وتَشنيعِها.

وتَعليقُ حميةِ الجاهليةِ بِصَدِّ المسلمين عن المسجد الحرامِ بهدفِ تعليلِه ، فكأَنَّ الآية جوابٌ على سؤالٍ يَتَبادَرُ للذهنِ عَنْ موقفِ الكفار: لماذا صَدوا المسلمين عن المسجد الحرام في ذلك العام؟ تُقَدمُ الآيةُ الجوابَ: لأَنهم جعلوا في قلوبهم الحميَّةَ ، حميَّةَ الجاهلية!!.

والحميَّةُ: الأنفةُ والرفض ، والاستنكافُ عن فعْلِ الشيء ، لأَنَّه يراهُ إِهانَةً له. وأَكثرُ استعمالِ الحميةِ في الاستكبارِ الذي لا داعيَ له.

وتُوحي جملةُ ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ بصورةٍ لطيفةٍ مُؤَثِّرَة: فكأَنَّ الجاهليةَ موقدٌ أَو مرجَلٌ ، مشتعلٌ ناراً ، وكأَنَّ الكفارَ فوق هذا المرجلِ المشتعِلِ ،

وهم يَحْمونَ ، وترتَفعُ حرارتُهم . . وكلّما ازداد موقدُ الجاهليةِ في قلوبِهم اشْتِعالاً . زادَتْ حميَّتُهم ، وارتفعَتْ حرارَتُهم ، وازدادوا توتراً وتعَنُّتاً ، وعجرفةً وغطرسة ، وازدادَت أعصابُهم توتُّراً وتشنُّجاً ، وازدادوا رَفْضاً وعناداً .

فالجاهليةُ المذكورةُ في الآية : ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ جاهليةُ استنكافٍ واستكبارٍ ، وعنادٍ وتَجَبُّرٍ ، ورفضٍ للحق ، ومحاربةٍ لأهله ، إنها جاهليةُ انتماءٍ سياسي ، وأَنَفةٍ قومية ، وتَصَرُّف قيادي .

وإنها حالة يكونُ عليها الزعماءُ والقادة والسياسيّونَ والمسؤولون ، عندما يتَّخذونَ قراراتٍ ظالمةً جائرةً خاطئة ، والذي دَفَعَهم إليها هي حميَّةُ الجاهلية .

واللطيفُ في السياقِ القرآنيّ أنه عَرَضَ صورتَيْن متقابلتين : صورةً مظلمة مذمومَة ؛ وهي ما عليه الكفارُ في الحديبيةِ من حميَّةِ الجاهلية . . وصورةً مشرقةً منيرة ، وهي ما عليه المؤمنون في الحديبيةِ من سكينةٍ وطمأنينة .

قالَ اللهُ عن الصورةِ الأولى : ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ ، وقالَ اللهُ عن الصورة الثانية : ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ .

ومن مظاهرِ الفرقِ في التعبير الرائع بين الصورتين :

١ ـ التعبيرُ عن الجاهليةِ بفعْلِ ﴿جَعَلَ﴾ ، وعن السكينة بفعْلِ ﴿أَنْزَلَ﴾ .

٢ ـ فاعلُ ﴿جَعَلَ﴾ هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ، وفاعلُ ﴿أَنْزَلَ﴾ هو ﴿ٱللَّهُ﴾ .

٣ ـ حميَّةُ الجاهلية أَخَذَتْ حرفَ ﴿فِى﴾ ، والسكينةُ النازلةُ أَخَذَتْ حرف ﴿عَلَىٰ﴾ .

٤ ـ جَعْلُ الحميةِ كانَ في «قلوب الكفار» . . وإنزالُ السكينة ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

٥ ـ الحميَّةُ قَبيحةٌ مرذولةٌ بشعة ، والسكينة طيبةٌ رائقةٌ مطلوبة .

٦ ـ إضافةُ الحميةِ إلى الجاهلية: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ ، وإضافةَ السكينة إلى الله ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ .

٧ ـ عطفُ الكلامِ عن السكينةِ بالفاءِ الدالِّ على المقابلةَ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾؛ فهي حالةٌ مقابلةٌ لما عليه الكفار من حميةِ الجاهليةِ التي اشتعَلَتْ في قلوبهم.

خلاصة الجولة مع الجاهلية في القرآن:

بعدَ هذهِ الجولةِ السريعةِ مع مصطلح الجاهليةِ في القرآن نتوقَّف لنسَجِّلَ بعضَ اللطائفِ والنتائجِ والدروسِ والدلالات:

١ ـ مصطلحُ (الجاهليةِ) من مبتكراتِ القرآن، فلم يستعملْه أَحَدٌ في العصرِ الجاهلي، وانتَشَرَ بعدَ الإسلام.

٢ ـ لم يَرِدْ هذا المصطلحُ في أَيِّ سورةٍ مكية، والسورُ الأَربعةُ التي وَرَدَ فيها سورٌ مدنية؛ وهي سورُ: آلِ عمران، والمائدة، والأحزاب، والفتح.

٣ ـ الجاهليةُ مأخوذةٌ من «الجاهِل» وليس من الجَهْل. تقول: جَهِلَ، يَجْهَلُ، جَهْلاً. وتقولُ: هو جاهِلٌ، وتصرُّفُه جاهليّ، وفيه خصلةٌ جاهليَّةٌ.

والملحوظُ في الجاهليةِ اسمُ الفاعِل «جاهِلٌ»، وليس المصدَر «جَهِلَ». ومعنى هذا أَنه يُنْظَرُ في الجاهليةِ إلى أَهْلِها وأَشخاصِها، الذين يتصَرَّفونَ التصرفاتِ الجاهلية.

٤ ـ لم تَرد الجاهليةُ في القرآنِ إلاّ في سياقِ الذَّمِّ والتوبيخ، وتَبشيعِ صورتِها، والتنفيرِ منها.

٥ ـ كانت الجاهليةُ في كلِّ مواضِعِ ذكْرها في القرآنِ مُضافاً إليه لمضافٍ محذوف؛ فالظَّنُّ ظَنُّ أَهْلِ الجاهلية، والحكمُ حكمُ أَهْلِ الجاهلية، والتبرُّجُ تبرُّجُ أَهْلِ الجاهلية، والحميةُ حميةُ أَهْلِ الجاهلية..

٦ ـ الجاهليةُ في القرآنِ وصفٌ لأُمورٍ صادرةٍ عن كفار: فظَنُّ الجاهليةِ في سورةِ آلِ عمران صادرٌ عن المنافقين، وهم كفار. وحكمُ الجاهليةِ في سورةِ المائدةِ صادرٌ عن أَهلِ الكتابِ الكفار. وتبرُّجُ الجاهليةِ في سورةِ الأحزابِ

صادرٌ عن الكافراتِ الجاهلياتِ السابقات. وحميةُ الجاهليةِ في سورةِ الفتح صادرةٌ عن قريش الكفار..

٧ ـ وَصْفُ الجاهليةِ في سورةِ الأحزابِ بالأُولى: ﴿ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يدلُّ على أَنَّ التبرُّجَ والتكشُّفَ والتَّعَرِّي رجعيةٌ وتخلُّفٌ وانحطاط، وليس دليلَ تقدُّمٍ وحضارةٍ وذوقٍ وأَناقة.. كما يدلُّ على أَنَّ هذه الجاهليةَ قد تعودُ مَرَّةً ثانيةً بعد الإسلام، لتكونَ جاهليةً ثانيةً وثالثةً ورابعة. ولا غرابةَ أَنْ يَعيشَ العالمُ الآنَ «جاهليةَ القرنِ الحادي والعشرين»، رغمَ تقدُّمِ مستواهم الماديِّ والعلميّ والمدني.

٨ ـ وَرَدَت الجاهليةُ في كلِّ مرةٍ بمعنىٰ:

ـ فهي في سورةِ آلِ عمرانِ: جاهليةُ ظَنٍّ وتصوُّرٍ وفكْرٍ واعتقاد.

ـ وهي في سورةِ المائدةِ: جاهليةُ حكمٍ وتَشريعٍ وإدارةٍ وسياسَة.

ـ وهي في سورةِ الأَحزابِ: جاهليةُ تبرجٍ وسلوكٍ وتصرُّفٍ وفعل، وتكَشُّفٍ وتَعَرٍّ.

ـ وهي في سورةِ الفتحِ: جاهليةُ حميَّةٍ وانتماءٍ وارتباطٍ.

٩ ـ الجاهليةُ في مراتِ ورودِها في القرآنِ واردةٌ في سياقِ المقابلةِ بينَ الخَطَّيْنِ المتوازيين: الخطُّ الجاهليُّ، ويقابلهُ الخَطُّ الإيمانيّ؛ فظَنُّ الجاهلية عند المنافقين قابَلَهُ اليقينُ الإِيمانيُّ عند الصحابة. وحكْمُ الجاهليةِ في سورةِ المائدةِ قابلَه حكم اللهِ الصادق. وتبرُّجُ الجاهليةِ في سورة الأَحزابِ قابله التستُّر والتطهُّر والعفَّةُ عند المؤمناتِ. وحميَّةُ الجاهليةِ في سورةِ الفتح قابلَتْها السكينةُ والطمأنينةُ عند المؤمنين.



الفصل التاسع

مع مادَّة «ضَرْرٌ» في القرآن

«ضَرْرٌ» : مادَّةٌ لغويةٌ قرآنية ، وجَذْرٌ ثلاثيٌّ أَصيل ، وَرَدَت اشتقاقاتهُ وتصريفاتهُ وصِيَغهُ عَشَرات المراتِ قي القرآن ، ويُمكنُ استخراجُ لطائفَ وإشاراتٍ ودلالاتٍ عديدة من ذلك ، منها .

وإِنَّ (الجولَةَ) مع هذه المادَّة في القرآنِ ممتعة ، والرحلةَ مع صيغِها وتصريفاتِها واشتقاقاتِها شيقَة ، والوقفاتِ أَمامَها رائعة ، والتحليلاتِ البيانية لها لطيفة .

وسنعيشُ مع هذه المادَّةِ القرآنية ، ونقدمُ خلاصةَ ما يَفتحُ اللهُ به علينا من لطائفَ ودلالاتٍ وإشارات .

والذي وَرَدَ في القرآنِ من صِيَغٍ واشتقاقاتِ هذه المادَّة الكلماتُ التالية :

يَضُرُّ. لا تُضارَّ. اضْطُرَّ. أَضْطَرُّ. ضَرٌّ. ضُرٌّ. ضَرَرٌ. ضَرّاءُ. ضِرار. ضَارَّ. مُضارٍّ. المُضْطَرّ.

فما هو معنى كلّ واحدةٍ من هذه الصيغ؟ وكيف تَحوي كلُّ صيغةٍ منها المعنى الأَساسيَّ للمادَّة؟ وما هو الفرقُ الدقيقُ بين هذه الصيغ؟ وما هي حكمةُ ورودِ كُلِّ صيغةٍ منها في الموضع الذي وَرَدَتْ فيه؟ .

معنى «ضَرْرٌ» في اللغة:

«ضَرْرٌ» : هو الجذْرُ الأَساسيُّ لهذه المادَّة ، وهو مصدرٌ على وَزْنِ «فَعْلٌ» . تقول : ضَرَّ ، يَضُرُّ ، ضَرّاً. من باب : نَصَرَ ، يَنْصُرُ ، نَصْراً .

قالَ ابنُ فارس: «الضُّرُّ: خلافُ النفْع. يُقال: ضَرَّهُ، يَضُرُّهُ، ضَرّاً. ثم يُحْمَلُ على هذا كلُّ ما جانَسَه أَو قارَبه»[1].

وقالَ الراغبُ الأصفهاني: «الضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في نفسِه لقلَّةِ العلْمِ والفَضْل والعِفَّة، وإمّا في بدنِه لعَدَمِ جارحةٍ ونَقْص، وإما في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاه»[2].

ومعنى كلامِ الراغبِ الأَصفهاني أَنَّ أَنواعَ الضَّرَرِ التي تُصيبُ الإنسانَ ثَلاثَةٌ:

الأول: ضَرَرٌ في النفس: كقلَّةِ العلْم، وقلَّةِ الفضْل، وقلَّةِ العِفَّة. فهذه الثلاثةُ سوءٌ يقعُ بالإنسان، ويتأَذّى به، وتتأَثَّرُ حياتُه به.

الثاني: ضَرَرٌ في البدن والجسم: مثلُ المرضِ الذي يَعْتَريه، والأَذى الذي يُعَطِّلُ بعضَ حواسِّه، كالعمى والصمم والخرس.

الثالث: ضَرَرٌ خارجَ كيانِ الإنسان: مثلُ الفقرِ الناتج عن قلَّةِ المال، والذُّلّ الناتج عن قلَّةِ الجاه، وخسارةِ المالِ أو العمل، والهزيمةِ أَمامَ الخَصمِ.

والجامعُ بين هذه الأنواعِ الثلاثة أَنها سوءٌ يُصيبُ الإنسانَ في حياتِه، فهي أَضرارٌ بهذا الاعتبار.

صيَغُ مادَّةِ «ضَرَرٌ» في القرآن:

ورَدَتْ مادةُ «ضَرْرٌ» في القرآنِ على ثلاثِ صِيَغ:

الأولى: صيغةُ الثلاثي: «ضَرَرَ»:

وردَ منها الاشتقاقاتُ التالية:

أ ـ الفعلُ المضارع: يَضُرُّ.

ب ـ اسمُ الفاعل: ضارٌّ.

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس، ص ٥٩٨.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٥٠٣.

ج ـ المصدر: وردَتْ مصادرُ أَربعة هي: ضُرٌّ، ضَرٌّ، ضَرَرٌ، ضَرّاءُ.

الثانية: صيغةُ الرباعي: ضارَّ:

وردَ منها الاشتقاقاتُ التالية:

أ ـ الفعلُ المضارع: يُضارُّ.

ب ـ اسمُ الفاعل: مُضارّ.

ج ـ المصدر: ضِرار.

الثالثة: صيغةُ الخماسيّ: اضْطُرَّ:

وردَ منها الاشتقاقاتُ التالية:

أ ـ الفعلُ الماضي المبنيُّ للمجهول: اضْطُرَّ.

ب ـ الفعلُ المضارعُ المبنيُّ للمعلوم: أَضْطَرُّ.

ج ـ اسْمُ المفعول: مُضْطَرٌّ.

ونُتابعُ وقْفَتَنا المفصلَةَ مع هذه الصيغِ والاشتقاقات.

أوّلاً: مع الفعل الثلاثي «ضَرَّ»:

«ضَرَرَ»: فعلٌ ماضٍ ثلاثي، على وزن «فَعَلَ». أُدغمت الرّاءُ في الراءِ، فصارَ «ضَرَّ». وهو فعلٌ يَتَعَدَّى إِلى مفعولٍ به واحد. تقولُ: ضَرَّ الرجلُ خَصْمَه. أَيْ: أَصابَه بسوء.

ويقابِلُ الضُّرَّ النفعُ، الذي هو تَقديمُ الخير.

والذي وَرَدَ من الثلاثي هو: الفعلُ المضارع، واسْمُ الفاعل، والمصدر.

أ ـ الفعلُ المضارع «يَضُرُّ» في القرآن:

«يَضُرُّ»: فعلٌ مضارعٌ مضمومُ العين. وَوَرَدَ في القرآن تسعَ عشرة مرة. وكان ورودُه على الحالاتِ التالية:

١ ـ **أُسندَ إلى فاعلٍ ظاهرٍ مفرد**: كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. «كُمْ»: في محلِّ نصب مفعولٍ

به مُقَدَّم. و«كَيْدُ» فاعلٌ مؤخَّر مرفوع. تنفي الآيةُ قدرةَ الكفارِ في كيدِهم على إيقاعِ الضُّر بالمسلمين.

٢ ـ **أُسندَ إلى ضمير جمع في محلِّ رفع فاعل**: كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود: ٥٧]. يُخبرُ هودٌ عليه السلام قَومَه أَنهم إِنْ أَصرّوا على كفرِهم، فإِنَّ الله سَيهلكهُم، ويَستخلفُ من بعدِهم قوماً غيرَهم، وهم لا يَستطيعونَ إيصالَ الضُّرِّ والأَذى به سبحانه.

٣ ـ **أُسندَ إلى ضميرٍ مستتر**: كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٧١]. فاعل ﴿يَضُرُّنَا﴾ ضميرٌ مستتر تقديْره «هو»، يَعودُ على الموصول «ما».

٤ ـ **أُسندَ إلى اسم موصول**: كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٥ ـ **وَرَدَ منصوباً بالفتحة**: لإسناده إلى مفردٍ غائب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

٦ ـ **وَرَدَ مُسْنَداً إلى الجمع**: منصوباً بحذف النون، كما في قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١].

٧ ـ **وَرَدَ مجزوماً**: لأَنه معطوفٌ على مضارع مجزوم قَبْلَه، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٣٩].

ويمكنُ ملاحظةُ اللطائفِ والإشاراتِ التالية:

١ ـ كانَ المفعولُ به الذي تَعَدّى له الفعلُ مذكوراً في ثماني عشرةَ مَرَّة، من مراتِ وُرودِ الفعل، وكانَ مَحْذوفاً في مرةٍ واحدة، هي قولُه تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢ ـ ٧٣]، والفعلُ معطوفٌ على فعلٍ قَبْلَه، ذُكِرَ مَفْعولُه: ﴿يَنفَعُونَكُمْ﴾. والتقدير: هل ينفعونكم أَو يَضُرّونكم.

٢ ـ كان الفعلُ المضارعُ مَنْفِيّاً صَريحاً في سبعَ عشرةَ مرةً من المراتِ التسع

عشرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس: ١٠٦] ، وكما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾ [النساء: ١١٣] .

٣ ـ جاءَ مَسْبوقاً بالاستفهام مرةً واحدة ، وكان الاستفهام بمعنى النفي ، فهو نفيٌ في الحقيقة ، وذلك في قولِه تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢ ـ ٧٣] ؛ أَيْ: لا يَسمعونكم ولا ينفعونكم ولا يَضرونكم .

٤ ـ جاءَ مُثْبَتاً في موضع واحد في القرآن ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، أَيْ: يتعلّمون الذي يَضُرُّهم .

٥ ـ من اللطيفِ ملاحظةُ الفرقِ بين حالَتي الفعل «تَضُرّونَ» في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ﴾ [هود: ٥٧] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ﴾ [التوبة: ٣٩] .

إنَّ الفعلَ منفيٌّ في الآيتَيْن ، وهو معطوفٌ على ما قَبْلَه في الآيتَيْن ، لكنَّهُ في آيةِ سورةِ هود مرفوعٌ لأنه معطوفٌ على مرفوعٍ قبلَه : ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا ﴾ . وهو في آيةِ سورةِ التوبةِ مجزومٌ لأَنه معطوفٌ علىَ مجزوم قبلَه : ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ ﴾ .

٦ ـ تَسبقُ «ما» الفعلَ المضارعَ في بعضِ المرات ، ومن اللّطيفِ أَنَّ «ما» جاءَتْ على معنَيَيْن :

ـ جاءَت اسْمَ موصولٍ في بعضِ المرات ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، جملةُ ﴿ يَضُرُّهُمْ ﴾ صلةُ الموصول ، والموصولُ وصلتُه في محلِّ نصب مفعولٍ به ، والتقدير: ويتعلَّمون الضارَّ غيرَ النافع .

ـ جاءَتْ حرفَ نفيٍ في بعضِ المرات ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾ [النساء: ١١٣] .

٧ ـ جاءَ الفعلُ المضارعُ في كثيرٍ من المراتِ مَقْروناً بالنفع ، في سياقٍ

يَنْفي قُدرةَ أَيِّ مخلوقٍ على أَنْ يَضُرَّ أو ينفعَ أحداً ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

وغيرُ الله عاجزٌ عن النفع والضُّر ، لأنَّ الأُمورَ كُلَّها بيدِ اللهِ وحدَه ، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١].

ب ـ اسم الفاعل «ضارٌّ» في القرآن:

«ضارٌّ»: اسمُ فاعل. تقول: ضَرَّ ، يَضُرُّ ، فهو ضارٌّ. مثل: نَصَرَ ، يَنْصُرُ ، فهو ناصر. و«ضارٌّ» على وزْن «فاعِل». أَصْلُه: «ضارِرٌ» ، فأدغمت الراءُ في الراءِ. والمدُّ فيه لازمٌ كَلميٌّ مُثقَّل ، يُمَدُّ سِتَّ حركاتٍ وجوباً.

وقد وَرَدَ «ضارٌّ» مرتَيْن في القرآن ، وكان ورودُه على حالتَيْن:

الحالةُ الأُولى: اسمُ فاعل مفرد «ضارٌّ»:

وَرَدَ «ضارٌّ» مرةً واحدةً في القرآن ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠].

تُبينُ الآيةُ أَنَّ النجوى المحرَّمَة ، القائمة على الإثم والعدوانِ ومعصيةِ الرسول ، سلاحٌ شيطانيٌّ ، يَستخدمُه الشيطانُ ليوقِعَ الحُزْنَ في نفوسِ المؤمنين ، ولكنَّ الشيطانَ عاجزٌ عن أَنْ يَضُرَّ أَحداً ، إلاّ بإِذْنِ اللهِ وعلمِه وإِرادَتِه.

جملةُ ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قَصَرَتْ إِيقاعَ الضُّرِّ على إذن الله سبحانه ، بأُسلوبِ الحَصْرِ القائمِ على اجتماعِ النفي والاستثناء.

اسْمُ ﴿ليس﴾: ضميرٌ مستترٌ ، تقديرُه «هو» ، يَعودُ على الشيطان. و«ضارِّهم» مجرورٌ لفظاً ، منصوبٌ محلاًّ ، لأنه خبرُ ﴿ليس﴾. والتقدير: ليسَ الشيطانُ ضارّاً أحداً إلاّ بإذن الله.

الحالةُ الثانية: اسمُ فاعل جَمْع «ضارّونَ»:

وَرَدَ «ضارّونَ» مرةً واحدةً في القرآن ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الكلامُ في الآيةِ عن السحرةِ اليهودِ الكفار ، الذين تَعلَّموا السحرَ من

الملَكَيْن في بابلَ هاروت وماروت ، ولم يَأْخذوا بتحذيرِهما لهم من ممارسةِ السِّحْرَ والعملَ به ، وكان هؤلاء اليهودُ يُفَرِّقونَ بالسحرِ بينَ المرءِ وزوجِه. وتُخبرُ الآيةُ أَنهم لم يَقْدروا على إيصالِ الضُّرِّ إلى أيِّ أَحَد إلاّ بإذْنِ اللهِ وإِرادتِه.

جملةُ ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾ جملةٌ منفيةٌ. ﴿مَا﴾ فيها حرفٌ مُشَبَّهٌ بالفعلِ ، تعملُ عملَ «ليس». و ﴿هُم﴾: ضميرٌ منفصلٌ في محلِّ رفع اسم «ما» ، يعودُ على اليهودِ السَّحَرَة. و ﴿بِضَآرِّينَ﴾: مجرورٌ لفظاً ، منصوبٌ مَحلاًّ لأنه خبر ﴿ما﴾. و﴿مِنْ أَحَدٍ﴾: مجرورٌ لفظاً أيضاً ، لكنهُ منصوب محلاًّ على أَنه مفعولٌ به لاسمِ الفاعل «ضارّين». والتقديرُ: ليس السحرةُ ضارّينَ أَحَداً بالسحرِ إلاّ بإذْنِ اللهِ وإِرادتِه.

وفي وُرودِ اسمِ الفاعل «ضارّ» في القرآنِ اللطائفُ والإِشاراتُ التالية:

١ ـ جاءَ اسمُ الفاعل مرةً مفرداً: «ضارّ» ، ومرةً جَمعاً: «ضارّون».

٢ ـ جاءَ في الموضعَيْنِ مَسْبوقاً بالنفي؛ مَرَّةً بفعلِ «ليس» ، الذي يعملُ عملَ «كان»: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾. ومرةً بحرفِ «ما» ، التي بمعنى «ليس» ، وتعملُ عملَها: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾.

٣ ـ جاءتْ ﴿إِلَّا﴾ في الموضعَيْن بعدَ اسمِ الفاعل ، لتدلَّ على معنى الحَصْر ، لأَنَّ وُقوعَ الاستثناءِ بعدَ النفي يدلُّ على الحَصْر.

أيْ أنَّ اسْمَ الفاعلِ «ضارٌّ» لم يَرِدْ في القرآن إلاّ في سياقِ الحَصْرِ ، يَنْفي قُدرة أيِّ مخلوقٍ فاعلٍ على إيقاع الضرر بالآخرين ، إلا إذا أراد الله ذلك!.

٤ ـ جاءَ في الموضعيْن مجروراً لفظاً بحرفِ الباء ، لكنَّه منصوبٌ محلاًّ ، لأنه خبرُ «ليس» وخبرُ «ما» العاملة عملها. وإدخالُ الباء عليه لمزيد من التوكيد.

٥ ـ يَنفي القرآنُ قُدرةَ أَيِّ مخلوقٍ على إيصالِ الضَّرَرِ بالآخرين ، إلاّ أَنْ يأْذَنَ اللهُ بذلك. فالمخلوقُ سبب ، ولكنَّ المسبِّبَ المريدَ هو اللهُ.

ج ـ المصدر «ضَرٌّ» في القرآن:

اللطيفُ في التعبيرِ القرآنيِّ أنه أَوردَ أَربعةَ مصادرَ من الثلاثي «ضَرَّ»، وهي: ضَرٌّ، وضَرَرٌ، وضُرٌّ، وضَرّاءُ.

فما هو السياقُ الذي وَرَدَ فيه كلُّ واحدٍ منها؟ وما هي الفروقُ بينها؟.

١ ـ «الضَّرُّ» في القرآن:

وَرَدَ هذا المصدرُ عشْرَ مراتٍ في القرآن:

جاء في مرةٍ واحدةٍ مرفوعاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣].

تَذُمُّ الآيةُ الكافرَ، الذي يَدعو غَيْرَ الله، ويَطلبُ من غيرِ الله، وتُخبِرُ الآيةُ أَنَّ هذا المدعُوَّ ليس عاجِزاً عن النَّفْع والضُّرِّ فقط، وإنما هو ـ إذا أَرادَ أَنْ يَضُرَّ باعتبارِه سبباً ـ يكونُ ضَرُّه هو الأقربَ للدّاعي من نفعِه.

اللامُ في ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ لامُ الابتداء. و﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل رفع مبتدأ، يُرادُ به الإِلٰهُ المدعُوُّ من دونِ الله. و﴿ضَرُّهُۥٓ﴾: مبتدأٌ مرفوع، والهاءُ في محلِّ جَرٍّ مضافٍ إِليه.

وقد نَفَت الآيةُ السابقةُ عن هذا المدعُوِّ القدرةَ على النفعِ أَو الضّرّ. قال تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢]، وهكذا تَلْتَقي الآياتانِ على تَجريدِ المخلوقين من القدرةِ على النَّفع والضَّرّ، وإِذا أَرادوا أَنْ يتحركوا فإِنَّ تحرُّكَهم يكونُ لإِيقاعِ ضَرٍّ، وليسَ لجلبِ نَفْع.

وجاءَ هذا المصدرُ منصوباً في المراتِ التسع الباقية، مَسْبوقاً بالفعلِ المضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يَمْلِكُ﴾؛ أَيْ أَنَّ هذا المصدرَ كانَ منفيّاً!.

ـ غيرُ اللهِ لا يَملكُ ضَرّاً ولا نَفْعاً؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ﴾ [المائدة: ٧٦].

ـ حتى رسولُ اللهِ ﷺ لا يَملكُ لنفسِه دفعَ ضَرٍّ أَو جلبَ نَفْع؛ قال تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ـ وإذا أرادَ اللهُ أَنْ يوقعَ الضَّرَّ بقوم فلا يَقدرُ أَحَدٌ على إيقافِ ذلك؛ قال تعالى: ﴿ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ ﴾ [الفتح: ١١].

ـ وكلُّ المخلوقين ضُعفاءُ عاجزون، لا يَملكُ أَحَدٌ لنفسه أَو لغيرِه تقديمَ نفعٍ أَو دفْعَ ضَرٍّ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴾ [الفرقان: ٣].

ـ ويوم القيامة يقفُ كُلُّ المخلوقين عاجزين عن الضَّرِّ والنَّفع، قال تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا ﴾ [سبأ: ٤٢].

واللافتُ للنظرِ أَنَّ «الضَّرَّ» كان مَسْبوقاً في المراتِ كُلِّها بالفعلِ المضارع المنفيِّ: ﴿ لَا يَمۡلِكُ ﴾. ومَقروناً معَ مقابِلِه «النفع».. وكانَ الهدفُ تَجريدَ كل المخلوقين من قدرةٍ ذاتيةٍ على النفع والضَّرِّ، وحَصْرَ هذا كلِّه بيدِ اللهِ وحْده.

٢ ـ «الضَّرَرُ» في القرآن:

الضَّرَرُ: مصدرٌ ثانٍ، مثلُ المصدرِ السابقِ في الصيغة، إلاّ أَنَّ المصدرَ السابقَ من بابِ المضَعَّف، أُدغمتْ فيه الراءُ في الرّاء. وهذا المصدرُ مفكوكُ الإدغام.

«ضَرٌّ» السابقُ على وزْنِ «فَعْلٌ»، أَمّا «ضَرَرٌ» فإنه على وزْنِ «فَعَلٌ». ولم يَرِدْ هذا المصدرُ إلاّ مرةً واحدةً في القرآن، وهي في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ ﴾ [النساء: ٩٥]. تُخبرُ الآيةُ عن عَدم استواءِ القاعدينَ والمجاهدين، لأَنَّ المجاهدينَ أَفضلُ وأكرمُ عندَ الله، ونستثني من ذلك القاعدينَ بعُذْر، وهم الذين أُصيبوا بالضَّرَر، كالعَمى أَو العرجِ أَو المَرَض.

ولهذه الجملةِ في الآية: ﴿ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ سببُ نزولٍ لَطيفٌ مُؤَثِّر.

قالَ كاتبُ الوحيِ زيدُ بنُ ثابتٍ رضي الله عنه: أَملى عَلَيَّ رسولُ اللهِ ﷺ

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فجاءَهُ ابنُ أُمِّ مكتوم، وهو يُمْليها عَلَيَّ، فقالَ: يا رسولَ الله! واللهِ لو أَستطيعُ الجهادَ لجاهَدْتُ! ـ وكانَ أعمى ـ فأنزَلَ اللهُ على رسوله ﷺ، وفَخِذُهُ على فَخِذي، فثَقُلَتْ عليَّ، حتى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذي.. ثم سُرِّيَ عنه. فأنزلَ اللهُ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾[1].

كانَ إنزالُ هذه الآيةِ على مرحلتَيْن:

المرحلةُ الأُولى: كانَ نَصُّها هكذا: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾. ولَمّا أُنزلَتْ على النبيِّ ﷺ، اسْتَدعى زيدَ بنَ ثابتٍ رضيَ اللهُ عنه ليكْتُبَها.. وجلسَ زيدٌ إلى جانبِ رسولِ اللهِ ﷺ، وفخذُه على فَخِذِه، ليكونَ قريباً منه، ليسمعَ منه.

المرحلةُ الثانية: فيها إضافةُ الجملةِ ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾: وذلك أَنه بينما كانَ رسولُ الله ﷺ يُمْلي على زيدٍ الآيةَ سمعَه عبدُ اللهِ بنُ أُمِّ مكتوم رضي الله عنه، وكانَ أعمى لا يَقدرُ على الجهاد، وفَهِمَ من الآيةِ أَنَّ المجاهدَ أَفضلُ من القاعد. ولكنَّ قُعودَه هو عن الجهادِ ليس تخلُّفاً، وإنما هو قعودٌ لا إراديّ.

فجاءَ النبيَّ ﷺ ليستوضِحَ منه، وقالَ له: لو كنتُ أَستطيعُ الجهادَ لجاهَدْتُ، ولكنّي رجلٌ أعمى.

فأنزلَ اللهُ جبريلَ عليه السلام ومعه هذه الجملة: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾، وتَغَشّى جبريلُ رسولَ الله ﷺ، واعترفَ زيدٌ رضي الله عنه بأَنَّ فَخِذَ رسولِ اللهِ ﷺ كادَتْ تَرُضُّ فَخِذَه من ثِقلِ الوحْي... ولما سُرِّيَ عن رسولِ الله ﷺ أَمرَ زيداً رضي الله عنه أَنْ يكتبَ الآيةَ بالجملةِ الجديدةِ التي أَنزلَها الله؛ وصارَت الآيةُ هكذا: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾.

﴿غَيْرُ﴾: نَعْتٌ مرفوعٌ للفاعلِ قبلَها ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾. و﴿أُوْلِى﴾: مضافٌ إليه، وهو مضاف، و﴿ٱلضَّرَرِ﴾ مضافٌ إليه.

---

(١) البخاري، برقم (٤٥٩٢)؛ ومسلم، برقم (١٥٠٨).

وتدلُّ جملةُ ﴿ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ على الاسْتِثْناء.

وتذكرُ الآيةُ أَنَّ القاعدينَ نوعان:

ـ قاعِدونَ بدونِ عُذْرٍ شرعيّ، وهؤلاء مُخَلَّفون مُقَصِّرون، مَحْرومون من أَجْرِ الجهاد، هؤلاء لا يَسْتَوون مع المجاهدين.

ـ قاعدونَ بعُذْرٍ شرعيٍّ، وهم أُولو الأَضرار، كالمرضى والعميانِ، فهؤلاء أَقْعَدَهم عُذْرُهم، رغمَ حماسِهم للجهاد. وهؤلاء مأْجورونَ كالمجاهدين، ويستوون في منزلتِهم مع المجاهدين.

نَعودُ إِلى المصدرِ بصورتَيْه: بالإدغام «الضَّرُّ»، وبالفَكّ «الضَّرَرُ». ما الفرقُ بينَ الصِّفتَيْن مع أَنَّ المصدرَ واحد؟.

ـ «الضَّرُّ» بالإدغامُ هو الضَّرُّ الآتي من طَرَفٍ خارجيّ، وهو ضَرٌّ منفيٌّ، ويُذْكَرُ بجانِبه مُقابِلُه وهو «النَّفْعُ»، ويُسبَقُ بالفعلِ المضارعِ المنفيِّ «لا يَمْلِكُ».

ـ أَمّا المصدَرُ المفكوكُ «الضَّرَرُ» فإنه ضَرَرٌ داخليٌّ يُصيبُ الإنسانَ من داخله، وهو ضَرَرٌ لا إِراديّ، لأَنه لا إِرادَة له ولا اختيارَ في كونِه مَريضاً أَو أَعمى، والإِنسانُ المُصابُ به يتمنّى لو يُزالُ هذا الضَّرَرُ عنه.

لقد كانَ القرآنُ دقيقاً ومعجزاً في تفريقِه بين المصدَرِ المدغَم «الضَّرُّ»، والمصدرِ مَفكوكِ الإِدْغام «الضَّرَرُ».. وهذا دليلٌ على الإعجازِ البيانيِّ الرائع، وعلى نَفْيِ الترادفِ بين الكلماتِ المتقاربةِ في القرآن.

٣ ـ «الضُّرُّ» في القرآن:

هذا هو المصدرُ الثالثُ من الثلاثي، وهو على وَزن «فُعْل». مثل: قُرْء، وجُرْم، وفُحْش.. وقد وَرَدَ هذا المصدرُ تسعَ عشرَةَ مرةً في القرآن.

ـ كانَ في معظمِ هذه المرّاتِ مَسْبوقاً بالمَسِّ، الذي هو الوقوعُ والإصابة. كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ ﴾ [يونس: ١٠٧].

ـ قد يُسْبَقُ بالإرادة ، كما في قوله تعالى : ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [يس: ٢٣].

ـ يَحْصُرُ القرآنُ كشفَ الضُّرِّ باللهِ وَحْدَه ، ويَنفي ذلك عن غيرِ الله ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧]. وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦].

ـ وهذا الضُّرُّ مَسَّ نبيَّ اللهِ أَيوبَ عليه السلام ، فدعا ربَّه طالباً كَشفَ ضُرِّه ، واستجابَ اللهُ له ؛ قال تعالى : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

ـ وقد يكونُ هذا الضُّرُّ مَعْرِفَةً مكرَّرَة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣ ـ ٥٤].

ـ وقد يكونُ نكرةً ، كما في قولِه تعالى : ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ [الزمر: ٨].

ـ ومن اللَّطائفِ وُرودُ هذا المصدرِ ثلاثَ مَراتٍ في آيةٍ واحدة ، هي قولُه تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

واللطيفُ أَيضاً أَنَّ هذا المصدرَ لم يأْتِ على صورةٍ واحدة ، وإنما كان في كلِّ مَرَّةٍ على صورةٍ وحالةٍ خاصَّة :

ـ المرةُ الأُولى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا ﴾ ؛ كانَ فاعِلاً مُؤَخَّراً لفعلِ الشَّرط ﴿ مَسَّ ﴾ ، وقُدِّمَ عليه المفعولُ به ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ . وكان مُعَرَّفاً بأَل التعريف ، الدالَّة على الاستغراقِ والشمول .

ـ المرةُ الثانيةُ : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ ﴾ ؛ كانَ مفعولاً به لفعْلِ ﴿ كَشَفْنَا ﴾ المسْنَدِ إِلى الله ، وكان مَعْرِفَةً بالإِضافةِ ، وليس بأَل التعريف .

ـ المرةُ الثالثة: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾؛ كانَ مجروراً بحرفِ الجَرّ، وكانَ نكرةً، وكان موصوفاً بجملةٍ فعليّة، وَوَقَعَ في شبهِ جملةٍ متعلقةٍ بجوابِ الشرط.

والرائعُ في التعبيرِ القرآنيِّ المعجزِ أَنَّ الضُّرَّ في الآيةِ شملَ حالاتِ الإِعرابِ الثلاثةِ وجاءَ فيها على الترتيب: مَرْفوعاً ومَنْصوباً ومَجْروراً، وشملَ نوعي المعْرِفَة: المعرفةُ بأَل التعريف «الضُّرّ»، والمعرفةُ بالإِضافة «ضُرّه»، وشملَ الأُسلوبَيْن البيانيَّيْن: التعريفَ والتنكيرَ!!.

أَبَعْدَ هذا يأتي أُناسٌ من أَهلِ الغَباءِ ويَتَّهمونَ القرآنَ بالتكرار!!.

٤ ـ «الضَّرّاءُ» في القرآن:

«ضَرّاءُ»: هو المصْدَرُ الرابعُ للثُّلاثي؛ وهو على وَزْن «فُعَلاء»، وهو ممنوعٌ من الصَّرْف، لأَنه ينتهي بالأَلفِ الممدودة.

و«ضَرَّاءُ» ليس مرادِفاً للضُّرّ، لأَنَّ الضُّرَّ ثلاثة أَحرف، والضَّرّاء خَمسة أَحرف، وزيدَ على ثُلاثيِّه حَرْفا الأَلفِ والهمزة. والضُّرُّ في الضَّرّاءِ أَكثرُ منه في الضُّرّ؛ لأَنَّ القاعدةَ تُقرِرُ أَنَّ زيادَةَ المبْنى تدلُّ على زيادةِ المعْنى، بمعنى أَنه كلَّما زيدَ في حُروفِ الكلمة زيدَ في مَعْناها.

وقد وَرَدَ «ضَرّاءُ» تسعَ مراتٍ في القرآن.

وهو لم يُذْكَرْ في القرآنِ إلا في مقابلِ وَضْعٍ آخر يُقابِلُه، مثلُ: السّرّاء، والنَّعماء والرَّحْمة والبأْساء.

ـ ذُكِرَ مُقابلاً لمصطلح السّرّاء في مثلِ قولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. المتقونَ يُنفقونَ في الحالتَيْن: السّرّاء والضَّرّاء. والسّرّاءُ هي السُّرورُ والبركةُ وسَعَةُ الأَموال، والضّرّاءُ تُقابلُها، وهي الإِصابةُ بالضُّرِّ وسوءِ الحالِ وقلةِ المال.

ـ وذُكِرَ مُقابلاً لمصطلحِ النَّعْماءِ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ

ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]. . والنَّعماءُ هي حالةُ النعمةِ والخيرِ، المقابلةِ لحالةِ الضّرّاءِ والسّوء.

ويُلاحَظُ أنَّ ﴿ضَرَّآءَ﴾ هنا ممنوعةٌ من الصرف، فهي مُضافٌ إليه مجرورٌ بالفتحة.

ـ وذُكِرَ مُقابلاً لمصطلح الرحمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ [يونس: ٢١].

ـ وذُكِرَ مقابلاً لمصطلح البأْساء في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ـ وذُكِرَ في آيتَيْن متتابعتَيْن، قُدِّمَ عليه مصطلحُ ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾ في الآيةِ الأُولى، وذُكِرَ بعْدَه مصطلحُ ﴿السَّرَّاءُ﴾ في الآيةِ الثانية؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۝٩٤ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤ ـ ٩٥].

ونَدْعو إلى ملاحظةِ حكمةِ تقديمِ البأْساءِ على الضّرّاء عند الكلامِ على الابتلاء، وحكمةِ تقديمِ الضّرّاءِ على السّرّاءِ عند الكلام على العقابِ، وحكمةِ العدولِ عن البأْساءِ إلى السّرّاءِ في الآيةِ الثانية.

أَهمُّ الفروقِ بين المصادرِ الأَربعة:

بعدَ هذا الاستعراضِ السريع لورودِ المصادرِ الأَربعةِ في القرآنِ: ضَرٌّ، وضَرَرٌ، وضُرٌّ، وضَرّاءُ، نُسجل فيما يلي أَهَمَّ الفُروقِ بينها:

١ ـ **الضَّرُّ**: بالفتحِ والإدغام: ضَرٌّ خارجيٌّ خاصّ، ولم يُذْكَرْ إلاّ مع مقابله، وهو «النَّفْع»، وكانَ مسبوقاً بالفعلِ المنفِيّ «لا يَملكُ». وهو منفيٌّ عن غيرِ الله، لأنه بيدِ اللهِ وَحْدَه.

٢ ـ **الضَّرَرُ**: بالفتحِ وفَكِّ الإدغام: ضَرَرٌ داخليّ، يُصيبُ الإنسانَ من داخلِه في جسمِه، وهو ضَرَرٌ لا إراديّ، والمصابُ مَعْذورٌ شرعاً.

٣ ـ **الضُّرُّ**: بالضَّمِّ: ضُرٌّ يُذكَرُ في القرآنِ بدونِ مقابِله، فلم يُذْكَرْ معه في

القرآنِ نَفْعٌ ولا غيرُه ، وكان مَقْروناً بالفعلِ «مَسَّ» ، والمَسُّ هو الإصابة.

ولذلكَ كانَ هذا الضُّرُّ أَشَدَّ من الضَّرِّ بالفتح ، وكانَ أكثرَ إيلاماً وإِصابةً ، وهو مُجَرَّدٌ عن غيرِ الله ، ولا يكونُ إلا بيدِ الله وحْدَه.

٤ ـ **الضَّرّاءُ**: مصدرٌ مُؤَنَّثٌ لَفْظاً ، لأَنه مختومٌ بألِفٍ ممدودةٍ بعدَها همزة ، ولهذا كان مَمْنوعاً من الصَّرْف. والضَّرَرُ والسوءُ والأَذى فيه أكثر ، لكثرةِ حروفِه زيادةً على المصادرِ السابقةِ ، ولم يُذْكَرْ في القرآنِ إلاَّ مَقْروناً بالحالةِ المقابلةِ ، مثلُ السّرّاءِ والبأْساءِ والنَّعْماء.

لم تأتِ هذه المصادرُ الأَربعةُ مترادفةً ولا مكررةً في القرآن ، مع أَنها كلَّها مصادرُ من الثلاثي ، وكلُّ مصدرٍ منها جاءَ في سياقٍ خاصّ ، وفي حالةٍ خاصّة ، ولمعْنى خاص ، ودلالةٍ خاصة.

وهذا دليلٌ واضحٌ على الدِّقَّةِ القرآنيةِ المعجزة ، في اختيارِ القرآنِ الكلمةَ المناسبة في مكانِها المناسب ، بحيثُ لا تُغْني عنها ولا تَسُدُّ مَسَدَّها كلمةٌ أُخْرى ، ولو كانَتْ من نفسِ المادَّة ، وبنفسِ الصيغة ، واختلَفَتْ عنها في بعضِ الحركات.

وسبحانَ اللهِ العظيم مُنَزِّل هذا القرآنِ الكريمِ المعجز!!.

ثانياً: مع الفعل الرباعي «ضارَّ» في القرآن:

«ضارَّ»: فعلٌ رباعيّ على وزْنِ «فاعَلَ». الثلاثيُّ منه «ضَرَّ» ، على وزْنِ «فَعَلَ» ، فلما زيدَتْ عليه الألف صار «ضارَّ». وأَصْله «ضارَرَ» ، ولما أدغمت الرّاءُ في الرّاءِ صارَ «ضارَّ». والمدُّ مَدٌّ لازمٌ كَلِميٌّ مُثَقَّل ، يُمَدُّ سِتَّ حَرَكاتٍ وجوباً.

والأَلفُ فيه أَلِفُ المفاعَلَة ، وتَدُلُّ إمّا على المشاركة ، مثلُ: قاتَلَ ، وضارَبَ ، وإمّا على التأكيد مثلُ: عالجَ وجانَبَ.

وقد وَرَدَ هذا الفعلُ في القرآنِ على ثلاثِ صِيَغ:

الأُولى: الفعل المضارع: «يُضارُّ».

الثانية: المصْدَر: «ضِرار».

الثالثة: اسمُ الفاعل: «مُضارّ».

وفيما يلي وقْفَتُنا التحليليةُ أَمامَ هذه الصيغِ الثلاثة:

أ ـ الفعلُ المضارع «يُضارّ» في القرآن:

وَرَدَ الفعلُ المضارعُ «يُضارّ» ثلاثَ مراتٍ في القرآن، وفي ما يلي بيانُها:

١ ـ الفعلُ المضارعُ «تُضارَّ» في القرآن:

وَرَدَ هذا الفعلُ مَرَّةً واحدة، وذلكَ في قولِه تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

الكلامُ في الآيةِ عن الوالداتِ المطلَّقاتِ، لأَنَّ الآياتِ السابقةِ عَرَضَتْ بعضَ أَحكام الطَّلاق، وتُخبرُ الآيةُ أَنَّ الوالِدةَ المطلَّقَةَ لها الحَقُّ أَنْ تُرضعَ وَلَدَها سنتَيْن كاملتَيْن، وأَنْ تأخذَ أُجرتَها من زوجِها الذي طَلَّقها.. ويَجبُ على الزوجِ المطَلِّقِ ـ وَصَفَتْه الآيةُ بأنه المولودُ له لأَنه والدُ الطفلِ الذي سَيُنْسَبُ له ـ أَنْ يُعطيَ امرأَته المطلَّقَةَ رزْقَها وكسوتَها بالمعروفِ مقابل إرضاعِها وَلَدَها ـ الذي هو ابْنُه ـ.

جملةُ ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ جملةٌ تعليليّة، تُعَلِّلُ الأَحكامَ السابقةَ المتعلقَةَ بالرَّضاع، فاللهُ شَرَعَ الأَحكام، وأَمَرَ الزوجَ أَنْ يعطي امرأَتَه المطَلَّقَةَ أُجرتَها بالمعروف مقابِلَ إرضاعِها لابنِه، لأَنه لا يُكلف اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَها.

وجملة ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ﴾ جملةٌ تعليليةٌ أُخرى، ولذلك جاءَت استئنافِيَّة، ولم تُعطَفْ على ما قبلها، واعتُبرتْ جملةً مستقلَّة، رغمَ ارتباطِها البيانيِّ مع ما قبلها وما بعدَها.

والحكمُ الذي تُقَرِّره هذه الجملةُ أَنه لا يَجوزُ للزوجِ أَنْ يوقعَ الضَّرَرَ والأَذى بامرأَتِه المطَلَّقَة، بسببِ محبَّتِها لولَدِها وحَنانِها عليه، فيظلِمها ويُعطيها أَقَلَّ من حَقِّها. كما أنه لا يَجوزُ للمرأَةِ أَنْ توقعَ الضَّرَر في مُطَلِّقِها، وتستغلَّ حِرْصَه على ابنِه، فتَطلبَ أَكثرَ من حَقِّها.

وقبلَ أَنْ نتحدَّثَ عن معنى ودلالةِ الفعل ﴿تُضَآرَّ﴾ نتكلمُ عن القراءاتِ العشريةِ الصحيحةِ في الفِعل:

ثلاث قراءات في الفعل:

في فعل ﴿تُضَآرَّ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ عشريةٍ صحيحة:

الأُولى: قراءةُ نافعٍ وعاصمٍ وحمزة والكسائي وابن عامر وخلف: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾، بفتْحِ الرّاءِ المشَدَّدَة.

على أَنَّ ﴿لَا﴾: ناهية. و﴿تُضَآرَّ﴾: فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ بلا النَّاهية، وعلامةُ جزْمِه السكون.

والفعلُ مبنيٌّ للمَجْهول، على وَزْن «تُفاعَلُ» بضمِّ أَوَّلِه، وفَتْحِ ما قبلَ آخِرِه. وأَصْلُ الفعلِ «تُضارَرُ» بفتحِ الراءِ الأُولى وضَمِّ الراءِ الثانية؛ وأُبدلَت فتحةُ الراءِ الأُولى بسكون، ليصحَّ إِدْغامُها بالرّاءِ الثانية، فصارَ الفعلُ «تُضارُّ»، بضمِّ الراءِ المشددة. ولما أُدخلتْ علَيه ﴿لَا﴾ الناهية جزمَتْه، فاجتمعَ عندنا حَرفا راءٍ ساكنان، الراءُ الأُولى ساكنةٌ للإِدغام، والراءُ الثانيةُ ساكنةٌ للجزم: «لا تَضارْرْ»، فأُدغمت الراءُ الأُولى بالراءِ الثانية، وحُرِّكَت الراءُ بالفتحةِ لأَنها أَخفُّ الحَركات، فصارَ ﴿تُضَآرَّ﴾. و﴿وَٰلِدَةٌۢ﴾: نائبُ فاعلٍ مرفوع.

الثانيةُ: قراءةُ أَبي جعفر المدني: «لا تُضارْ». على أَنَّه ليسَ من الفعلِ الماضي الرُّباعي «ضارَّ»، وإِنما من الفعلِ الماضي الثلاثي «ضارَ» بتخفيفِ الراء، الذي مضارِعُه «يَضيرُ»، وعندما يُبْنى المضارع للمجهول يَصيرُ «يُضارُ» بضَمِّ الرّاء، وعندما يُجْزَمُ بلا الناهيةِ يَصير «يُضارْ». والضَّيْرُ هو الأَذى.

والمعنى على قراءةِ أَبي جعفر: لا يوقَع الضَّيْرُ والأَذى والظلمُ على المرأةِ بسببِ وَلَدِها.

الثالثةُ: قراءةُ أَبي عمرو وابنِ كثير ويَعقوب: «لا تُضارُّ» بضمِّ الراء. على أَنَّ ﴿لَا﴾ حرفُ نفي. و«تضارُّ»: مضارعٌ مرفوع، أُدغمتْ فيه الراءُ في الراء.

والجملةُ المنفيةُ: ﴿لا تُضَارُّ والدَة بولدها﴾ على هذه القراءةِ خَبَر ، يُخبرُ اللهُ فيها أَنَّ الوالدةَ المطَلَّقَةَ لا يوقَعُ عليها الضَّرَرُ بسببِ ولدِها. ولكنَّه خَبَرٌ في معنى النَّهي ، فكأَنه نهى عن إيقاعِ الضَّرَرِ بالوالدةِ بسببِ وَلَدِها.

وبذلك تلتقي القراءاتُ الثلاثُ على النهيِ عن إِيقاعِ الضَّرَرِ والأَذى بالوالدة ، بسببِ مَحَبَّتِها لولدِها ، وإِشفاقِها عليه.

والسؤالُ الذي يُطرحُ الآن: هل فعلُ ﴿تُضَآرَّ﴾ مبنيٌّ للمعلوم ، أَو مبنيٌّ للمجهول ، وهل ﴿لَا﴾ الداخلةُ عليه نافيةٌ أَو ناهية؟.

اللطيفُ والرائعُ في التعبيرِ القرآنيِّ المعجزِ أَنَّ الجملةَ تحتملُ الاحتمالَيْن ، وأَنَّ صياغةَ فعلِ «تُضارّ» عَجيبة ، تجعلُ كُلاًّ من الاحتمالَيْن صحيحاً!!.

في ﴿لَا﴾ قولان:

الأول: أَنها حرفُ نَفْيٍ. والفعلُ بعدَها مَرفوع ، وهذا على قراءةِ ابن كثير وأَبي عمرو ويعقوب. وعلى هذا القولِ تكونُ الجملةُ خبريةً ، يُخبرُ اللهُ فيها أَنَّ الوالدةَ المطَلَّقَةَ لا تُضارُّ بسببِ وَلَدِها.

الثاني: أَنها حرفُ نهيٍ. والفعلُ المضارعُ بعدَها مجزومٌ بها ، وأُدغمت الرّاءُ بالراء ، لأَنَّ الأُولى ساكنةٌ للإِدغام ، والثانيةَ ساكنةٌ للجزم «تُضارْرْ» وحُرِّكَ بالفتحةِ لأَنها أَخفُّ الحركات. وهذا على قراءةِ نافعٍ وعاصمٍ وحمزةَ والكسائيِّ وابن عامر وخلف.

والمعنى على هذا القول: يَنهى اللهُ عن إيقاعِ الضَّررِ بالوالدةِ بسببِ ولدِها.

ولا نُرجحُ أَحَدَ القولَين على الآخر ، لأَنَّ كلَّ قولٍ مبنيٌّ على قراءةٍ صحيحة ، فعند ثلاثةٍ من القُرّاءِ العشرةِ تكون ﴿لَا﴾ نافية والفعل مرفوع ، وعند ستة منهم تكون ﴿لَا﴾ ناهية ، والفعلُ مجزوم.. ومعلومٌ أَنه لا يَجوزُ تَرجيحُ قراءةٍ صحيحةٍ على قراءةٍ أُخرى صحيحة ، لأَنَّ كُلاًّ منهما أَنزلَها الله.

لكنَّ القولَيْن يَلتقيانِ في النهاية. فعلى أَنَّ ﴿لَا﴾ ناهية ، تكونُ الجملةُ نَهْياً

صريحاً عنِ الضَّرَر ، وعلى أَنَّ ﴿ لَا ﴾ نافية ، تكونُ الجملةُ نَهياً ضمنياً عن الضَّرَر ، لأَنَّ الخَبَرَ فيها بمعنى النهي.

قولان في صياغة الفعل:

وفي صياغةِ الفعل «تُضارّ» قولان:

الأول: أنه مبنيٌّ للمعلوم. وأصلُه «تُضارِرْ» ، بكسْرِ الرّاء الأُولى ، وتسكينِ الراءِ الثانية بسببِ الجَزْم ، وهو على وَزْنِ «تُفاعِلْ». و﴿ وَالِدَةٌۢ ﴾: فاعلٌ مرفوع. والمفعولُ به محذوف ، والمرادُ به زوجُها الذي طلَّقَها. والتقديرُ: لا تضارِرْ والدةٌ زوجَها بسببِ ولدها.

وسُكِّنَت الراءُ الأُولى للإِدغام ، وسُكِّنَت الراءُ الثانيةُ بسببِ الجزم ، وأُدغمت الرّاءُ في الرّاء ، وحُرِّكت الراءُ المدغمةُ بالفتحةِ لأَنها أَخفُّ الحَرَكات ، فصارَ الفعلُ ﴿ تُضَآرَّ ﴾!.

الثاني: أنه مبنيٌّ للمجهول ، وأَصلُه «تُضارَرْ» ، لأَنَّ الفعلَ الرباعيَّ يُبنى للمجهولِ بضَمِّ أَوَّلِه وفتْحِ ما قبلَ آخِرِه. و ﴿ وَالِدَةٌۢ ﴾: نائبُ فاعل. وعندما يُبنى الفعلُ للمعلوم يكونُ التقدير: لا يُضارَّ والدٌ والدةً بولدِها. وصارَ بعدَ بنائِه للمجهولِ: ﴿ لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ ﴾.

والراجحُ أَنَّ الفعلَ مبنيٌّ للمجهول ، وأَنَّ الراءَ الأُولى مفتوحة: «لا تضارَرْ» ، وأَنَّ ﴿ وَالِدَةٌۢ ﴾ نائب فاعل. هذا هو الراجحُ ليتناسَقَ مع ما قبلَه: ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ ﴾. وليتجاوَرَ الفعلانِ المضارعان المبنيّان للمجهول: ﴿ لَا تُكَلَّفُ ﴾ و﴿ لَا تُضَآرَّ ﴾.

وجملةُ ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ ﴾: معطوفةٌ على جملةِ ﴿ لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا ﴾ على نيةِ تكرارِ الفعلِ في الجملةِ الثانية. فكأنهما جملَتان فعليّتان: لا تُضارَّ والدةٌ بولدها ، ولا يُضارَّ مولودٌ له بولدِه.

الباءُ في ﴿ بِوَلَدِهَا ﴾ و﴿ بِوَلَدِهِۦۚ ﴾ باءُ السببية. والمرادُ بكلمةِ ﴿ مَوْلُودٌ لَّهُۥ ﴾ والدُ الولدِ الذي طُلِّقَتْ أُمُّه.

واللطيفُ في الجملتَيْن المتعاطفتَيْن: ﴿ لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ

﴿بِوَلَدِهِۦ﴾ أَنَّ اللهَ نهى أَيَّ واحدٍ من الوالدَيْن عن أَنْ يوقِعَ الضررَ بالطرفِ الآخر بسببِ الولد.

في الجملةِ الأُولى: يَنهى اللهُ الوالدَ عن إيقاعِ الضررِ والسوءِ بالوالدة. مستغلاً حنانَها على ولدِها، بأَنْ يَظلمَها ويُعطيها أَقلَّ من حقِّها: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾.

وفي الجملةِ الثانية: ينهى اللهُ الوالدةَ عن إيقاعِ الضررِ بالمولودِ له، مستغلةً حرصَه على ولَدِه، بأَنْ تظلمَه وتطلبَ أَكثرَ من حقِّها: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾.

و ﴿مَوْلُودٌ﴾: اسمُ مفعول، وهو نائب فاعلٍ لفعلٍ مُقَدَّر، والتقدير: ولا يُضارَّ مولودٌ له بولده.

واللطيفُ أَنَّ فعلَ ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ مُؤنَّثٌ بالتاءِ في أَوله، لأَنَّ نائبَ الفاعل ﴿وَٰلِدَةُۢ﴾ مُؤنَّثٌ تأْنيثاً حقيقيّاً، وأَنَّ نائبَ الفاعلِ المذكَّرَ ﴿مَوْلُودٌ لَّهُۥ﴾ عُطِفَ على نائبِ الفاعلِ المؤنَّث، ولم يُكرَّرْ فعله، ولو كُرِّرَ فعْلُه لكانَ مذكَّراً، ولكانَ التقديرُ: لا تُضارَّ والدةٌ بولدِها، ولا يُضارَّ مولودٌ له بولدِه.

والقاعدةُ أَنَّه إذا اجتمعَ اسمانِ مذكَّرٌ ومُؤَنَّثٌ، وعُطِفَ أَحدُهما على الآخرِ، كانَ حكمُ الفعلِ للسابقِ منهما، فإِنْ قُدِّمَ الفاعلُ المذكَّرُ ذُكِّرَ الفعلُ: تَقولُ: جاءَ الرجلُ والمرأة. وإِنْ قُدِّمَ الفاعلُ المؤنَّثُ أُنِّثَ الفِعْل، تقولُ: جاءت المرأةُ والرجلُ!!.

فَأُنِّثَ الفعلُ ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ لأَنَّ نائبَ الفاعلِ مُؤنَّثٌ ﴿وَٰلِدَةُۢ﴾. وعُطِفَ نائبُ الفاعلِ المذَكَّرُ ﴿مَوْلُودٌ﴾ على نائبِ الفاعلِ المؤنَّث.

وعلى ضَوْءِ هذا البيان فإن المفاعلة في ﴿لَا تُضَآرَّ﴾، والمتمثلةَ في الأَلف، تكونُ للمُشاركة، ولَيس للتأكيد، وهذه المشاركةُ بينَ الوالدَيْن، بمعنى أَنَّ الوالدةَ لا تَضُرُّ الوالدَ، والوالِدَ لا يَضُرُّ الوالدة.

واللطيفُ أَنَّ صياغةَ الفعل ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ المعجزة جعلَتْه على صورةٍ، يَدخلُ فيها احتمالُ كونه مبنيّاً للمعلوم وما بعدَه فاعل. واحتمالُ كونِه مبنيّاً للمجهولِ، وما بعدَه نائبُ فاعل. وهذا من روائعِ الإِعجازِ البيانيِّ القرآني.

٢ ـ الفعل المضارع «يُضارَّ» في القرآن:

قالَ تعالى في آية الدين ـ أطول آية في القرآن ـ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ينهى اللهُ في هذه الجملةِ عن أَنْ يُضارَّ كاتبٌ يكتبُ الدَّيْن، أَوْ أَنْ يُضارَّ شهيد، يَشهدُ على الدين.

وفي ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ قراءتان:

الأُولى: قراءةُ أَبي جعفر المدني: «لا يُضارْ» بسكونِ الرَّاءِ المخَفَّفَة. على أَنَّ «لا» حرفُ نَهْي. و«يُضارْ»: فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ بـ«لا» الناهية. و«كاتبٌ»: نائبُ فاعل.

وعلى هذه القراءةِ: «يُضارْ»: فعلٌ مضارعٌ مبنيٌّ للمجهول. والماضي منه ثُلاثي، هو «ضارَ». تقول: ضارَ، يَضيرُ، ضَيْراً. والضَّيْرُ هو الأَذى.

الثانيةُ: قراءةُ التسعة: نافع وعاصم والكسائي وحمزة وابن كثير وابن عامر وأبي عمر ويعقوب وخلف: ﴿لا يُضارَّ﴾ بالرّاءِ المشدَّدَةِ المفتوحة.

وعلى هذه القراءةِ تكونُ ﴿لا﴾: ناهية. و﴿يُضارَّ﴾: فعلٌ مضارعٌ مجزوم، أَصْلُه «يُضارْرْ» سُكِّنت الراءُ الأُولى لأَجْلِ الإِدغام، وسُكنت الراءُ الثانية لأَجْلِ الجَزْم، ثم حُركت الراءُ بالفتحة، لأَنها أَسهلُ الحركات، فصارَ الفعلُ ﴿يُضارَّ﴾.

وهل ﴿يُضَآرَّ﴾ مبنيٌّ للمعلومِ أَو مبنيٌّ للمجهول؟:

في ذلك قولان:

الأول: أَنه مبنيٌّ للمعلوم، والراءُ فيه مكسورة، أَصْلُه «يُضارِرْ»، على وَزْن «يفاعل»، أُدغمت الرّاءُ بالراء، بسببِ الإِدغامِ والجزمِ، وحُركت الرّاءُ بالفتح، فَصارَ ﴿يُضَآرَّ﴾. و ﴿كَاتِبٌ﴾: فاعل. والمفعولُ به محذوف. والتقديرُ: لا يُضارَّ كاتِبٌ صاحبَ الدَّيْن. . والواوُ في ﴿وَلَا شَهِيدٌۚ﴾: حرفُ عطف. و﴿لا شَهِيدٌۚ﴾: معطوفةٌ على الفاعلِ المرفوع ﴿كَاتِبٌ﴾، على نيَّةِ

تَكريرِ الفعل ، والتقديرُ: لا يُضارَّ كاتبٌ صاحبَ الدَّيْن ، ولا يُضارَّ شَهيدٌ صاحبَ الدَّيْن.

والمعنى على هذا القول: يَنهى اللهُ كاتبَ الدَّيْن ، وينهى الشاهِدَ على الدَّيْن ، عَنْ أَنْ يوقِعا الضُّرَّ والسوءَ بصاحبِ الدَّيْن أو بالمدين.

الثاني: أنه مبنيٌّ للمجهول ، والراءُ فيه مفتوحة ، أَصْلُه «يُضارَرْ» على وزْنِ «يُفاعَل» ، و ﴿كَاتِبٌ﴾: نائبُ فاعل. و ﴿شَهِيدٌ﴾: معطوف عليه. والتقديرُ: لا يُضارَرْ كاتِبٌ ، ولا يُضارَرْ شَهيدٌ. أَيْ: لا يُضارِرِ الدائنُ أَو المدينُ كاتباً أَو شهيداً. ولما حُذِفَ الفاعلُ وبُنِيَ الفعلُ للمجهولِ ، صارت الجملةُ: لا يُضارَّ كاتبٌ ولا شَهيد.

والنهيُ على هذا القولِ مُوَجَّهٌ للدائِنِ والمدينِ وغيرِهما ممنْ لهم صِلةٌ بالدَّيْن ، من أَنْ يوقعَ أَحَدُهم الضَّرَرَ بالكاتبِ الذي كَتَبَ الدَّيْن ، أَو بالشهيدِ الذي يَشهدُ على الدَّيْن. وأَلِفُ المفاعلةِ في ﴿يُضَآرَّ﴾ على هذينِ القولَيْن تكونُ على ظاهرِها ، وهو المشاركة.

واللطيفُ الرائعُ في التعبيرِ القرآني صياغةُ الفعلِ ﴿يُضَآرَّ﴾ لِتَحْتَمِلَ القولَيْن ، وذلك ليوجَّهُ النهيُ إلى الطرفَيْن:

فإِنْ كانَ الفعلُ مبنيّاً للمعلوم كان النهيُ موجَّهاً للكاتبِ والشهيد ، مِن أَنْ يوقعَ أَحَدُهما الضُّرَّ والأذى بالدائِنِ أَو المدين. ويكونُ المفعولُ به محذوفاً. والتقدير: لا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيدٌ الدائنَ أَو المدين.

وإِنْ كانَ الفعلُ مبنيّاً للمجهولِ كان النهيُ موجَّهاً للدائِنِ والمدينِ عن أَنْ يوقِعَ أَحَدُهما الضَّرَرَ بالكاتبِ أَو الشهيد.

وسبحانَ اللهِ العظيمِ ، مُنَزِّلِ هذا القرآنِ الكريم المعجزِ ، الذي لا تَنْقَضي عجائِبُه!!.

٣ ـ الفعل المضارع «تُضارّوهُنَّ» في القرآن:

قال الله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦].

الكلامُ في الآيةِ عن الحقوقِ التي للمطَلَّقَةِ طَلاقاً رجعيّاً على مُطَلِّقِها ؛ وهي التي طُلِّقَت الطلقةَ الأُولى أو الطلقةَ الثانية.

إنَّ لها على مطلِّقِها السكنى والنفقةَ حتى تنتهيَ عدَّتُها. . . ويأمُرُ اللهُ الزوجَ المطَلِّقَ أَنْ يُسكنَ مطلَّقَته أثناءَ عدَّتِها حيثُ يسكن ، ويُتْرَكُ تقديرُ مستوى المسكنِ لحالتِه الماديّة ، حسبَ وُجْدِهِ وقُدْرَتِهِ ، كما يأمُرُه أَنْ يُنفقَ عليها أثناءَ سكناها ، حتى تنتهيَ عدَّتُها ، وإنْ كانَتْ حاملاً أَسكنَها وأَنفقَ عليها حتى تضعَ حملَها ، لأَنَّ عِدَّةَ الحاملِ تَنْتَهي بالوضْع ، مهما كانَ طلاقُها. ولها بعدَ الوضعِ أُجرةُ الإِرْضاع ، إنْ أَرضعَتْ ولده: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

وأثناءَ تقريرِ هذه الأَحكامِ الدقيقةِ تلتفتُ الآيةُ للأَزواجِ المطَلِّقين لتَنهاهم عن إيقاعِ الضررِ بالمطَلَّقات ، وهم يَدفعونَ لهنَّ حقوقَهن: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾.

الواوُ في ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾: حرفُ عَطْف ، وجملةُ ﴿لا تُضَآرُّوهُنَّ﴾: معطوفةٌ على جملةِ ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾. وجازَ عطفُ جملةِ النهيِ على الأَمْرِ لأَنَّ كُلّاً منهما طَلَبٌ ، الأُولَى طَلَبُ الإسكان ، والثانيةُ طلبُ عدمِ الإِضرار.

﴿لَا﴾: حرفُ نَهْيٍ وجَزْم. و ﴿تُضَآرُّوهُنَّ﴾: فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ بحذْفِ النّون ، لأَنه من الأَفعالِ الخمسة ، أَصْلُه «تُضارّونَهن»، والواوُ فاعلٌ يَعودُ على الأَزواجِ المطَلِّقين ، و «هُنَّ»: مفعولٌ به يَعودُ على المطَلَّقاتِ المعْتَدّات!.

واللامُ في ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾: للتّعليل. و﴿تضيقوا﴾ فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ بـ«أَنْ» مضمرة بعدَ لامِ التعليل ، وعلامةُ نصبه حذفُ النون ، والواوُ فاعل ، والمصدرُ في محلِّ جَرٍّ باللام. والتقدير: لا تُضارّوهُنَّ للتضييق عليهن.

وفعلُ ﴿تُضَآرُّوهُنَّ﴾ مبنيٌّ للمعلوم ، ولا يَصِحُّ أَنْ يكونَ مبنيّاً للمجهول ، لأَنه نَصَبَ مفعولاً به ، وهو الضميرُ المتَّصِل: «هُن».

وهذا المصدرُ ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ ليس قَيْداً على تَحريمِ الإِضرار ، بمعنى أَنه لا يَحْرُمُ الإِضرارُ إلاّ إذا كانَ للتضييق عليهن.

إنَّ الإضرارَ بالمطلَّقاتِ حَرامٌ سواءٌ بقصْدِ التضييقِ عليهنَّ أَمْ لا ، وسواءٌ نَتَجَ عنه التَّضييقُ عليهنَّ أَمْ لا ، وذكْرُ المصدرِ ﴿ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾ للإِشارةِ إلى أنه هو الغالبُ من صورِ وحالاتِ الإضرار ؛ فالأزواجُ يُضارّونَ مُطَلَّقاتِهم بهدفِ التضييقِ عليهنَّ ، ليتنازَلْنَ عن بعضِ حقوقِهنَّ عليهم .

واللطيفُ في فعْلِ ﴿ تُضَآرُّوهُنَّ ﴾ أنه لا يُمكنُ إلاّ أَنْ يكونَ مبنيّاً للمعلوم ، وأَنَّ الأَلِفَ فيه ليسَتْ للمشاركة ، لأَنه لا مشاركةَ بين الأزواجِ ومطلَّقاتِهم ، والإِضرارُ يقعُ من قِبَلِ الأَزواجِ فقط ؛ فهذه الأَلفُ للتوكيدِ فقط .

ب ـ المصدر «ضِرارٌ» في القرآن :

«ضِرارٌ» على وزْنِ «فِعال» ، مصدرُ الفعلِ الرُّباعيِّ «ضارَّ» . تقول : ضارَّ ، ضِراراً ، مثلُ : قاتَلَ قِتالاً ، وجاهَدَ جِهاداً .

وقد وَرَدَ هذا المصدرُ مرتين في القرآن :

١ ـ قال تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

الكلامُ في الآيةِ عن مراجعةِ الزوجِ لمطلَّقَتِه قُبيلَ انتهاءِ عِدَّتِها ، فهو بالخَيار : إمّا أَنْ يُراجِعَها ويُمسكَها ، ويُبقيها زوجةً له ، لكن بشرطِ أَنْ يكونَ ذلك بمعروف . وإمّا أَنْ يُفارِقَها ويُسَرِّحَها ويُعيدَها إلى أَهْلِها ، بشرطِ أَنْ يكونَ ذلك بمعروفٍ أَيضاً . وتَنهى الآيةُ هؤلاءِ الأَزواجَ المطَلِّقين منْ أَنْ يُعيدوا ويُمسكوا مطلَّقاتِهم لأَجْلِ الإِضرارِ بهنّ .

الواوُ في ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا ﴾ : حرفُ عَطْف ، وجملةُ ﴿ لَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا ﴾ : معطوفةٌ على جملةِ ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ .

واللطيفُ هو عطفُ جملةِ النهيِ على جملةِ الأَمْر ، وحكمةُ ذلك هي التوكيدُ على الأَمْرِ بالإِمساكِ بالمعْروف ، حيثُ أَمَرَت الآيةُ بالإِمساكِ بالمعروف ، ونَهَتْ عن الإِمساكِ بغيرِ المعروف .

﴿ لَا ﴾ : حَرْفُ نهيٍ وجَزْم . و ﴿ تُمْسِكُوهُنَّ ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مَجزوم بحذْفِ النون ، والفاعلُ الواوُ ، والمفعولُ به الضميرُ المتصل «هُنّ» . و ﴿ ضِرَارًا ﴾ :

مفعولٌ لأَجْلِه ؛ أَيْ: لا تُمسكوهُنَّ لأَجْلِ الإِضْرارِ بهنّ. والجملةُ المصدرية: ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ في محلِّ جَرٍّ باللاّم الجارَّةِ التعليلية ، وذلك لتعليلِ الإِضرار. والتقديرُ: لا تُمسكوهُنَّ ضِراراً للاعتداءِ عليهن.

و ﴿ضِرَارًا﴾ لا مشاركةَ فيه بين طرفَيْن ، لأَنَّ الضررَ يقعُ من الأَزواجِ المطَلِّقين على زوجاتِهم المطَلَّقات ، وهُنَّ لا يوقعْنَ الضررَ بهم.. فالأَلفُ فيه لتأكيدِ النهي عن الإِضرارِ بالمطَلَّقات.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧].

الكلامُ في الآيةِ عن مسجدِ الضِّرار. وخُلاصَةُ قِصَّتِه أَنَّ مجموعةً من المنافقينَ بالَغوا في الكيدِ واللؤم والتآمرِ على الإِسلامِ والمسلمين. وكان اتِّصالُهم السريُّ بالمجرمِ المتآمرِ «أَبي عامر الفاسق» ، الذي هَرَبَ إِلى ملكِ الروم ، وكان يتصلُ من هناك بأعوانِه في المدينة ، وأَرادَ المنافقون في المدينةِ أَنْ يكونَ اتصالُهم بزعيمِهم مأموناً ، فاهْتَدَوْا إِلى أَنْ يَبْنوا مَسْجداً! وهو في ظاهرِه عملٌ خَيْرِيّ ، ولا أَفضلَ من بناءِ المسجد ، لكنَّه في حقيقتِه «وَكْرٌ» للتجسسِ والإِضرار.

ولما بَنَوا المسجدَ جاؤُوا إِلى رسولِ الله ﷺ ، وطَلَبوا منه أَنْ يباركَ المسجدَ ويفتتحَه ويُصَلّي فيه ، ولما جاؤوه كانَ في طريقِه إِلى غزوةِ تَبوك ، فقالَ لهم: «**عندما أعودُ من تبوكَ آتيكُم إِنْ شاءَ الله**».. ولما عادَ من تبوك ، أَنزلَ اللهُ عليه هذه الآية وما بعدَها ، قُبيلَ وصولِه المدينة ، وكَشَفَ له فيها حقيقة مسجدِ الضِّرار ، ونَهاهُ عن الصلاة فيه.

فأَمَرَ رسولُ الله ﷺ مجموعةً من الصحابة أَنْ يُحَرِّقُوا ويُدَمِّروا ذلك الوكْرَ الخَبيث ، الذي تستَّرَ بالمسجد ، ففَعَلوا. وسُمِّيَ المسجدُ منذُ ذلك اليوم «مسجدَ الضِّرار».

﴿الذين﴾: اسْم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخَّر ، والخبرُ المقدَّمُ مَحْذوف ، والتقدير: ومنهم الذين اتخذوا. وجملة ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾: صلةُ الموصول.

﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعلٌ وفاعل. و ﴿مَسْجِدًا﴾: مفعولٌ به. و ﴿ضِرَارًا﴾ مفعولٌ لأَجْلِه.

و ﴿وَكُفْرًا﴾، ﴿وَتَفْرِيقًا﴾، ﴿وَإِرْصَادًا﴾: كلماتٌ ثلاثةٌ منصوبة، معطوفةٌ على المفعولِ لأَجْلِه؛ أَي: بنى المنافقون المجرمون المسجدَ لأربعةِ أَهْداف: الضِّرارُ، والكفرُ، والتفريقُ بين المؤمنين، والإِرصادُ لمن حارَبَ اللهَ ورسولَه.

لذلك نهى اللهُ رسولَه ﷺ عن الصلاةِ فيه وأَمَرَه بهدْمِه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

و ﴿ضِرَارًا﴾: مصدرُ الفعل الرباعي «ضارَّ»، والأَلِفُ في الفعل ليستْ للمشاركة، لأَنه لا يوجَدُ طَرَفان يقعُ بينهما مُضارَّة، وإِنما هي لتوكيدِ إِضرارِ المنافقينَ بالمسلمين.

واللافتُ للنظرِ أَنَّ ﴿ضِرَارًا﴾ لم يأْتِ في القرآنِ إِلاَّ مفعولاً لأَجْلِه، وأَنه لا يَدُلُّ على المشاركةِ بين طرفَيْن في الإِضرار، وإِنما يدلُّ على تأْكيدِ الإِضرار، وإِيقاعِ الأَذى والسوءِ بالآخرين، ولذلك نهى اللهُ عنه.

ج ـ اسمُ الفاعل «مُضارّ» في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٢].

الكلامُ في هذه الآيةِ عن المواريث، وتقسيمِ التركةِ على الورثة، وعن الميتِ الذي يورَثُ كَلالَة، وهو الذي لا وارِثَ له من والِدٍ أَوْ وَلَد، وإِنما يرثُه الإِخوانُ والأَخَواتُ والأَعمامُ والعَمّات.

وتخبرُ الجملةُ أَنَّ التركةَ تُقَسَّمُ على الورثةِ من بعدِ وصيةٍ يُوصي بها الميّت، أَوْ دَيْنٍ لم يَسُدَّهُ قبلَ موتِه، حيثُ تُخْرَجُ قيمةُ الوصيةِ من التركة، ثم يُخْرَجُ الدَّيْنُ منها، ويُقَسَّمُ الباقي على الوَرَثَة.

وبما أَنَّ الآيةَ أَجازَتْ للمورثِ أَنْ يُوصي بجزءٍ من التركة لمن يُريد، فإِنها

اشترطَتْ عليه عدمَ الإضرارِ بالوصية ، فقالَتْ : ﴿ غَيۡرَ مُضَآرّٖ ﴾ .

﴿ غَيۡرَ ﴾ : حالٌ منصوب وصاحبُ الحالِ هو المورِّثُ ، وهو نائبُ فاعل ﴿ يُوصَىٰ ﴾ ، و ﴿ مُضَآرّٖ ﴾ : مضافٌ إليه مجرورٌ .

و ﴿ مُضَآرّٖ ﴾ : اسمُ فاعلٍ من «ضارَّ» . تقول : ضارَّ ، فهو مُضارٌّ . وهو مثلُ فعْلِه الماضي . تقول : ضارَرَ ، فهو مُضارِرٌ . ومُضارِرٌ على وزْن : مُفاعِلٌ ، مثلُ : مُقاتلٌ ومُجاهِدٌ . وأُدغمت الراءُ في الراءِ . فصارَتْ : مُضَارّ .

وتدلُّ هذه الصفةُ ﴿ غَيۡرَ مُضَآرّٖ ﴾ على تحريمِ الإضرارِ في الوصية ، أَيْ أَنه لا يَجوزُ للمورِّثَ أَنْ يوصيَ بجزءٍ من مالِه إذا كانَ هدَفُه الإِضرارَ بالوَرَثة ، وإِيقاعَ السوءِ والأذى بهم ، فإِنْ فَعَلَ ذلكَ كان آثماً .

والأَلِفُ في اسمِ الفاعلِ هنا «مُضارّ» ليستْ للمشاركة ، لأَنه ليسَ هنا مشاركةٌ بين طرفَيْن في الإِضرارِ . وإِنما هذه الأَلفُ لتأكيدِ النهي عن المضارَّة في الوصية .

ومن صُوَر الإِضرارِ بالوصية ، التي يكونُ فيها الموصي مُضارّاً فيها ، أَنْ يوصي بأَكْثَرَ من الثُلُث ، لأَنَّ الإِسلامَ منعَ أَنْ تزيدَ الوصيةُ على الثُّلُث .

ومن صُوَرِ الإِضرارِ بالوصية أَنْ يكونَ هَدَفُ الموصي المورِّثِ مِنها حرمانَ الورثةِ من المال ، فيوصي به إلى غيرِهم .

والإِضرارُ في الوصيةِ حرام ، وفاعلُه آثمٌ عند الله .

ثالثاً: الخماسي «اضْطَرَّ» في القرآن:

«اضْطَرَّ» : فعلٌ ماضٍ خماسيّ ، على وَزْنِ «افْتَعَلَ» . زيدَ على ثُلاثِيِّه الهمزةُ وتاءُ الافتعال .

والذي وَرَدَ في القرآنِ من هذه الصيغةِ ثَلاثةُ اشتقاقات :

الأَول : الفعلُ المضارعُ المبنيُّ للمعلوم : «أَضْطَرُّ» .

الثاني : الفعل الماضي المبني للمجهول : «اضْطُرَّ» .

الثالث : اسم المفعول : «مُضْطَرٌّ» .

وفيما يلي بيانُها بعون الله .

١ ـ الفعل المضارع المبني للمعلوم «أَضْطَرُّ» في القرآن:

«أَضْطَرُّ» بفتحِ الهمزة؛ فعلٌ مضارعٌ مسندٌ إلى المتكلم، الماضي منه: «اضْطَرَّ» بهمزةِ الوصل.

وقُلْنا: إنَّ الثلاثيَّ من هذا الخماسي «ضَرَرَ»، على وزْن «فَعَلَ» فلما زيدَ على الثلاثيِّ همزةُ الوصلِ في أوَّله، وتاءُ الافتعالِ في وَسَطه، صار الفعل: اضْتَرَّ. على وزن «افْتَعَلَ».. والضَّادُ في «اضْتَرَّ» حرفٌ مَجْهور، والتاءُ بعدَه حرفٌ مهموس، فصَعُبَ النطقُ بالمهموسِ بعدَ المجهور، لذلك أُبدلَت التّاءُ طاءً، ليكونَ حَرْفانِ مَجْهوران مُتَتابعان: الضّادُ والطاء. فصارَ الفعل: اضْطَرَّ.

والمضارعُ المسنَدُ إلى المتكلم «أَضْطَرُّ» وَرَدَ مَرَّةً واحدةً في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

لما بنى إبراهيمُ عليه السلامُ الكعبةَ، دَعا اللهَ لأَهْلِ مكة، أَنْ يرزُقَهم من الثمرات، وأَن يكونوا آمِنين، فاستجابَ اللهُ دُعاءَه، وجعلَ الأَمْنَ والرزقَ للمؤمنين منهم بالله واليومِ الآخر.

أَمّا الكافرُ منهم فإِنَّ اللهَ يمتِّعُه مَتاعاً قَليلاً في الحياةِ الدنيا، ثم يُعَذِّبُه في النار.

الواوُ في ﴿وَمَن كَفَرَ﴾: حرفُ عَطْف، وجملةُ ﴿مَنْ كفر فأمتعه﴾: معطوفةٌ على جملة ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾. والتقدير: وسأَرزقُ مَنْ كَفَرَ، وأُمَتِّعُه في الدنيا. و ﴿مَنْ﴾: اسم موصول مبتدأ، وجملةُ ﴿كَفَرَ﴾: صلةُ الموصول. وجملةُ ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾: في محلِّ رفع خبر. وجملةُ ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾: معطوفةٌ على جملةِ ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾.

و ﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾: فعلٌ مضارع، والفاعلُ تقديرُه «أنا» يَعودُ على الله. والهاءُ في محلِّ نصب مفعولٍ به، يَعودُ على الكافر.

وأَصْلُ «أَضْطَرُّ»: «أَضْتَرُّ» على وزْنِ «أَفْتَعِلُ»، فحصلَ فيه الإِبدالُ الذي

ذكَرْناه. وهو افتعالٌ من الضَّرر ، وهو سوءُ الحال. تقول: ضَرَّهُ: إذا أَوصلَ إليه السوءَ والأذى. وتقول: ضارَّه: إذا أَوقعَ به السوءَ والأذى. وتقولُ: اضْطَرَّهُ: إذا دفعه وألجأه إلى السوءِ والأذى.

قالَ الإمامُ الراغبُ الأَصفهاني: «الاضْطِرار: حملُ الإنسانِ على ما يَضُرُّهُ. . وهو في التَّعارف: حَمْلُهُ على أَمْرٍ يكْرَهُه. وهو على ضربَيْن:

أَحَدهما: اضْطِرارٌ بسببٍ خارج، كمنْ يُضْرَبُ أو يُهَدَّدُ، حتى يَفْعَلَ مُنْقاداً، ويُؤْخَذَ قَهْراً، فيُحْمَلَ على ذلك.

والثاني: بسببٍ داخلٍ، وذلك إمّا بقَهْرِ قُوَّةٍ له، لا يَنالُه بدفْعِها هَلاك، كَمَنْ غَلَبَ عليه شهوةُ خَمْرٍ أو قِمار. وإمّا بقهرِ قُوَّةٍ، يَنالُه بدفعِها الهلاكُ، كَمَن اشْتَدَّ به الجوعُ، فاضْطُرَّ إلى أَكْلِ المَيْتَة»(١).

الاضطرارُ فيه معنى الإكراه، وذلك بِحملِ الإنسانِ على ما يكرَهُه، ودفْعِه إلى الوقوعِ في الضَّرَر، وهو السوءُ والأذى.

ومعنى ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾: ثم أَدفعُه إلى عذابِ النار، وأُلجئُه إليها، وأحملُه عليها، وأُدخلُه فيها.

وقد ضُمِّنَ فعلُ ﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ فعْلَ: أُلجئُه. ولذلك تَعدّى إلى ما بعدَه بحرفِ ﴿إِلَىٰ﴾ المستعمَلِ في الدفْعِ والإلْجاء. أَيْ: أُلجئُه إلى عذابِ النار.

وقد أُسندَ هذا الفعلُ المضارعُ إلى ضميرِ الجمع في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣ ـ ٢٤].

الكلامُ في الآيةِ عن الكفار، فاللهُ يُمَتِّعُهم في الدنيا مَتاعاً قليلاً، ثم يدفعُهم في الآخرةِ إلى عذابِ النار.

﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ. والفاعلُ تقديرُه «نحن»، يَعودُ على الله، وهو ضميرٌ للتعظيمِ وليس للجَمْع، لأَنَّ اللهَ واحد. و«هم» في محلِّ نصْب مفعولٍ به يَعودُ على الكفار.

---

(١) المفردات، ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥.

والاضطرارُ هو: الإلجاءُ والدَّفعُ والإكراه. وقد ضُمِّنَ فعْلُ ﴿نَضۡطَرُّهُمۡ﴾ فعْلَ: نُلْجِئُهم، ولذلك تعدّى إِلى ما بعدَه بحَرْفِ ﴿إِلَىٰ﴾: ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٢ ـ الماضي المبني للمجهول «اضْطُرَّ» في القرآن:

«اضْطُرَّ»: فعلٌ ماضٍ خماسِي، مبنيٌّ للمجهول، على وزْنِ «افْتُعِلَ».
ومعلومٌ أَنَّ الماضي الخماسيَّ يُبْنى للمجهولِ بضَمِّ أَوَّلِه، وكسْرِ ما قبلَ آخِرِه.

وهذا الماضي المبنيُّ للمجْهول يَحملُ مَعْنى الإلجاءِ والإِكراهِ والدَّفْع، واضْطِرارُ الإنسانِ بأَنْ يُحْمَلَ على ما يَكْرَه، وأَنْ يُصيبَه الأَذى والسوءُ، وأَنْ تُلجِئَه الحاجةُ والضرورةُ إِلى ما يكره، رَغْماً عنه.

وهذا الذي يَحملُ الإنسانَ على ما يَكْرَهُ يكونُ داخليّاً من داخلِ كيانِه. وإِنْ لم يفعلْ ذلك المكروهَ والسوءَ مُضْطَرّاً يَهْلكْ. وذلك كمن اشتدَّ به الجوعُ، ولم يَجِدْ أَمامَه ما يأكُلُه إلاّ المَيْتَة، فإِنْ لم يأكلْ منها مات، فيُقالُ: فيه: اضْطُرَّ إِلى أَكْلِ الميتة! أَيْ: أُلْجِئَ إِلى أَكْلِ الميتة.

وقد وَرَدَ الفعلُ الماضي «اضْطُرَّ» خمسَ مَرّاتٍ في القرآن:

أ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

تَحصرُ الآيةُ المحَرّماتِ بهذه الأَصنافِ الأَربعة: الميتةِ، والدم، ولحم الخنزير، وما ذُبحَ لغيرِ الله. وتُبيحُ لمن اضْطُرَّ وأُلجئَ إِلى أَكْلِها أكلها، بشرْطِ أَنْ يكونَ غيرَ باغٍ ولا مُعْتَدٍ.

الفاءُ في ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾: حرفُ استئناف. و «من»: اسْمُ شرطٍ في مَحَلِّ رفع مبتدأ. وجملةُ ﴿ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾: فعلُ الشرط. وجملةُ ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾: جوابُ الشرط.

و ﴿ٱضۡطُرَّ﴾: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول، ونائبُ الفاعلِ تقديرُه «هو». و﴿غَيۡرَ﴾: حالٌ منصوب، و ﴿بَاغٖ﴾ مضافٌ إِليه مجرور، و ﴿وَلَا عَادٖ﴾: معطوفٌ على ﴿بَاغٖ﴾.

و ﴿بَاغٍ﴾: اسْمُ فاعلٍ ، فعلُه ثلاثي: «بغى». والباغي هو الظالم.

و ﴿عَادٍ﴾: اسْمُ فاعلٍ آخر ، فعلُه ثلاثي «عدا». تقول: عَدا ، يَعْدو ، فهو عادٍ. والعادي هو المتجاوِزُ ، الذي يَتَجاوَزُ الحَلالَ إلى الحرام.

وما تعلَّقَ به فعْلُ ﴿ٱضْطُرَّ﴾ محذوف ، وهو أَكْلُ المحَرَّماتِ المذكورة. والتقدير: فَمَنِ اضْطُرَّ إلى أَكْلِ شيء من المحَرَّمات غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إِثْمَ عليه.

وتَعديةُ فعلِ ﴿ٱضْطُرَّ﴾ إلى ما بعْدَه بحرف «إلى» وما بعدَه المقَدّرِ ، لأَنَّهُ ضُمِّنَ فعلَ «أُلْجِئَ». أَيْ: مَنْ أُلْجِئَ وَدُفِعَ إلى أَكْلِ شَيءٍ من المحَرَّمات.

وإذا كانَ ﴿ٱضْطُرَّ﴾ مبنياً للمجهولِ فَمَن الذي يَضْطَرُّه إلى ذلك؟ إنَّه شيءٌ داخليٌّ في جسْمِه ، وهو الجوع ، وعندما تبني الفعْلَ الماضي للمعلومِ تقول: فمَن اضْطَرَّهُ الجوعُ إلى أَكْلِ الميْتة ، وهو غيرُ باغٍ ولا عادٍ فلا إِثْمَ عليه.

فالاضطرارُ هنا هو الإِلْجاءُ والدَّفْع ، بحيثُ تَحملُ الحاجةُ الإِنْسانَ المحتاجَ إلى شيءٍ يكرَهُه رغْمَ أنفِه ، وهو سوءٌ وأذى.. لكنَّها الضرورةُ والحاجة.

ب ـ قولُه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

سياقُ هذه الآيةِ نفسُ سياقِ آيةِ سورةِ البقرةِ السابقة ، مع تَفَرُّدِها بصياغةٍ خاصَّةٍ بها ، فالآيَةُ تحصُرُ المُحَرَّماتِ بالأَصنافِ الأربعة ، وتُبيحُ الآيةُ لمن أَلجأه الجوعُ إلى أَكْلِ شيء من تلك المحَرَّمات فعل ذلك ، لئلا يَموتَ جوعاً.

ج ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥].

وحتى لا يُظَنَّ أَنَّ آيةَ سورةِ النَّحْلِ تِكرارٌ لآيةِ سورةِ البقرة فإنني أَدعو إلى مُلاحظةِ الفروقِ التعبيريةِ التاليةِ بينهما:

ـ قالَ في سورةِ البقرة: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ ، فَقدَّمَ شبهَ الجملةِ

﴿ بِهِۦ﴾ على الجارِّ والمجرور. بينما قالَ في سورةِ النحل: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ فأَخَّرَ شبهَ الجملةِ ﴿بِهِۦ﴾؛ فما حكمةُ تقديمِها في سورةِ البقرة، وتأْخِيرِها في سورةِ النحل؟.

- قال في سورةِ البقرة: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وحذفَ هذه الجملة كُلَّها من سورةِ النحل.

- قالَ في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بدون فاء، وقالَ في سورة النحل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالفاء!!.

ويُلاحَظُ أَنَّ الآياتِ الثلاثَ قَيَّدَتْ إِباحةَ الأَكل لِمن اضْطُرَّ بأَنْ يكونَ غير باغٍ ولا عادٍ، وأَنَّ المضْطَرَّ إِليه فيها كلِّها محذوف. وتقديره: فمن اضْطُرَّ إِلى شيءٍ من تلك المحرمات! وأَنَّ الحديثَ عن المضطرِّ فيها جاءَ بجملةٍ شَرْطِيَّة.

د - قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

سياقُ الآيةِ قريبٌ من سياقِ الآياتِ الثلاثِ السابقة - في سورِ: البقرةِ والأنعامِ والنحل - في تقريرِ حرمةِ الأكلِ من بعضِ أَصنافِ اللحوم، وإباحةِ ذلك المحَرَّمِ لمن اضْطُرَّ إليه.

لكنَّ آيةَ سورةِ المائدة طَوَّلَت الكلام، وفَصَّلت الحديثَ عن المحَرَّمات، وذَكَرت امتنانَ اللهِ على المسلمين بإكمالِ الدين وإتمام النعمة، ولذلك طَوَّلَت الكلامَ لمن اضْطُرَّ إلى المحَرَّمات، ليتناسبَ ذلك مع التطويلِ والتفصيل في سياقِ الآية.

قالت: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الفاءُ حرفُ استئناف، والجملةُ بعدَها استئنافية، لتُبينَ إباحةَ الأَكْلِ من المحَرَّماتِ لمن اضْطُرَّ. و ﴿مَنْ﴾: اسْمُ شرطٍ في محلِّ رفع مبتدأ. و ﴿ٱضْطُرَّ﴾: فعلٌ ماض، وفاعلُه تقديرُه «هو»، و ﴿فِى مَخْمَصَةٍ﴾: شبهُ

الجملةِ في محلِّ نَصْب حال. و ﴿غَيْرَ﴾: حالٌ ثانٍ منصوب، و ﴿لِّإِثْمٍ﴾: متعلِّقٌ باسم الفاعل ﴿مُتَجَانِفٍ﴾، وجملةُ ﴿ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾: فعل الشرط. وجوابُ الشرط: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والمضْطَرُّ إليه محذوف، مفهومٌ من السياق، وهو الأكْلُ من المحرَّماتِ المذكورة، والتقدير: مَن اضْطُرَّ إلى الأكْلِ من المحرَّماتِ المذكورةِ غيرَ مُتجانِفٍ لإثمٍ فلا إِثْمَ عليه.

و ﴿مَخْمَصَةٍ﴾: مَصدرٌ مِيمي، من الثلاثي «خَمَصَ». تقولُ: خَمَصَ، مَخْمَصَة، والمخمصَة هي الجوعُ الشديد، الذي يُؤَدّي إلى خُموص البطنِ وضُموره.

و ﴿مُتَجَانِفٍ﴾: اسْمُ فاعلٍ من الخماسي «تجانَفَ»، مأخوذٌ من «الجَنَف» وهو المَيْلُ. والمتجانِفُ إلى الإثم هو المائِلُ إليه، الراغبُ فيه.

الآياتُ السابقةُ قالَتْ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾.. وهذه الآية قالت: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾.

أي: مَنْ أُلجئَ إلى الأكْلِ من المحرَّمات بسببِ الجوعِ الشديد الذي أَلَمَّ به، وهو غيرُ مُنحازٍ إلى الحرام، وغيرُ راغبٍ في المخالفة؛ فلا إثمَ عليه لو أَكلَ منها.

هـ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١١٩].

الكلامُ في الآيةِ عن استغرابِ موقفِ الذين لا يَقْبَلونَ بحكْمِ الله، فلماذا لا يأكلُ هؤلاء الذبيحةَ التي ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليها، كما أَمَرَ الله؟.

وذكرت الآيةُ أَنَّ اللهَ فَصَّلَ وبَيَّن ووَضَّحَ المحرَّماتِ على المسلمين: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.. ثم استَثْنَتْ حالة الاضطرار، فعندما يَضْطَرُّ الناسُ إلى الحرام يكونُ مباحاً للمضطرين.

الواوُ في ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾: واوُ الحال. والجملةُ بعدَها في محلِّ نَصْب حال، و ﴿مَّا﴾: اسْمٌ موصولٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به لفعْلِ ﴿فَصَّلَ﴾،

وجملةُ ﴿حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ صلةُ الموصول. والمفعول به لفعل ﴿حَرَّمَ﴾ محذوف، وهو العائدُ في الجملةِ الموصولة. وتقديره «الهاء». والتقديرُ: وقد فَصَّلَ اللهُ لكم ما حَرَّمَهُ عليكم. أي: وقد فَصَّلَ لكم المحَرَّمَ عليكم.

و ﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناء. والاستثناءُ هنا مُنْقَطع. و﴿مَا﴾: اسْمٌ موصولٌ في محلِّ نَصْب مستثنى. و﴿ٱضۡطُرِرۡتُمۡ﴾: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول. و«تُمْ»: في محلِّ رفْع نائبِ فاعِل.. والهاءُ في ﴿إِلَيۡهِۗ﴾ تعودُ على ﴿مَا﴾ في: ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾. أي: اضطررْتُم إلى المحَرَّم. والموصولُ وصلتُه في ﴿مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾: في محلِّ نصب مُستَثْنى. والتقدير: إلاَّ المضْطَرَّ إليه.

ومعنى الاستثناءِ هنا أَنَّه إذا اضْطُرّ مسلمٌ واحتاجَ إلى الحرام، فإنه يكونُ غيرَ مُحرّمٍ عليه.

وتعَدّى فِعْلُ ﴿ٱضۡطُرِرۡتُمۡ﴾ إلى ما بعدَه بحرفِ «إلى»، لأَنَّ الفعْلَ ضُمِّنَ فعْلَ «أُلْجِئْتُم». أيْ: أُلجئتُم إلى أَكلِه أو فعلِه.

وفُكَّ إدغامُ الرّاء في ﴿ٱضۡطُرِرۡتُمۡ﴾، لأَنَّ الفعلَ أُسندَ إلى ضميرِ الرفعِ المتحركِ «تُم»، الذي هو في محلِّ رفع نائب فاعل.

ومعلومٌ أَنَّ الفعلَ الماضي المضَعَّفَ اللّام إذا أُسندَ إلى ضميرِ الرفع المتَحَرِّكِ يُفَكُّ إدْغامُه، لأَنَّه يُبْنى على السكون، تقول: اضْطُرِرْتُ، واضطُرِرْنا، واضْطَرَرْت.

وسببُ الاضطرارِ هنا داخلّي، لأَنَّ حاجةَ الإنسانِ إلى الطَّعام بيولوجيةٌ فطرية، والجوعُ يَدْفَعهُ ويُلْجئُه إلى البحثِ عن الطَّعام، ويُصابُ بالضَّررِ والسوءِ والهلاكِ إنْ لم يأكُلْ.

واللطيفُ أنه لما أُسندَ الفعلُ المبنيُّ للمجهولِ إلى المفْرَد، عادَ نائبُ الفاعلِ المستتُر على اسْم الشرط «مَنْ»، وذلك في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، و﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾.

وعندما أُسندَ إلى جمعِ المخاطَبين كانَ نائبُ الفاعلِ ضميراً متصلاً: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾.

وعندما تَبني الفعلَ للمعلومِ في المواضعِ الخمسةِ فإنَّ الفاعلَ يكونُ «الجوع». والتقدير: فمَن اضْطَرَّه الجوعُ غَيرَ باغٍ ولا عادٍ. و: فَمَن اضْطَرَّهُ الجوعُ في مخمصة، و: إلاّ المحرَّمَ الذي اضْطَرَّكُمُ الجوعُ إليه.

٣ ـ اسم المفعول «المضْطَرّ» في القرآن:

«مُضْطَرٌّ»: اسْمُ مفعولٍ من الفعلِ الخماسي «اضْطَرَّ»، وهو على وزْن «مُفْتَعَل»، أَصْلُه: مُضْترِرٌ. فأُبدلت التاءُ طاءً لتوافِقَ الضّادَ المجهورة. وأُدغمت الرّاءُ في الرّاء، فصارَت: «المضْطَرّ».

وقد وَرَدَ اسْمُ المفعولِ مَرَّةً واحدةً في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: ٦٢].

الكلامُ في الآيةِ عن أَنَّ الأُمورَ كُلَّها بيدِ اللهِ وحْدَه، بأُسلوبِ الاستفهامِ التقريري، فهي تُقررُ أَنَّ اللهَ هو الذي يَستجيبُ لدعاءِ المضطرِّ عندما يَدْعوه، طالِباً منه كَشْفَ الضَّرَرِ والسوءِ عنه.

«أَمْ»: تُسمّى «أَمْ المنقطعة». بمعنى بَلْ. و«مَنْ»: اسْمُ استفهامٍ في محلِّ رفْع مبتدأ، وجملةُ: ﴿ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾: في محلِّ رفْع خَبر. والاستفهامُ هنا تقريري.

و﴿ يُجِيبُ ﴾ بمعنى: يَستجيبُ. والفاعلُ تقديرُه «هو». و﴿ ٱلْمُضْطَرَّ ﴾: مفعولٌ به.

و﴿ إِذَا ﴾: ظرفٌ للمستقبل. و﴿ دَعَاهُ ﴾: فعلُ الشرط. وجوابُ الشرطِ محذوف. تقديره: إذا دَعا المضْطَرُّ فَمَنْ يَستجيبُ له؟ اللهُ هو الذي يَستجيبُ له.

والمضْطَرُّ هو المحْتاجُ، الذي أَلْجأَتْه الحاجَةُ والضرورةُ إلى طلبِ قَضاءِ حاجَتِه، وكشفِ السوءِ والضَّرَرِ عنه، ولذلك يتوجَّهُ إلى اللهِ بالدُّعاء.

و«أل التعريف» في ﴿ ٱلْمُضْطَرَّ ﴾ للجنس، فهي تدلُّ على العُموم، وتَشملُ جَميعَ المضطرينَ المحتاجين، المتضَرِّعين إلى الله، طالبين كَشْفَ

الضَّرَرِ والسّوء ، مهما كان نوعُ ذلك الضَّرَر ، سواء كانَ مادّياً أَو معنويّاً ، وسواءٌ كانَ في داخلِ الجسمِ كمرض ، أَو كانَ خارجَه كفقْر . فكلُّ مَنْ كَانَ مُضْطَرّاً واقعاً تحتَ تأثِير الضرورةِ ، ودعا اللهَ ، فإِنَّ اللهَ يَستجيبُ له ، ويَكشفُ السوءَ عنه .

رابعاً: «الضَّير» في القرآن:

في نهايةِ جولتِنا مع مادَّةِ «ضَرَرَ» في القرآن ، وتَحليلِنا لصِيَغ واشتقاقاتِ وتصريفاتِ هذه المادَّة ، نقفُ وقفةً سريعةً مع مادَّةٍ أُخْرى قريبةٍ جدّاً منها ، ويَظُنُّ بعض المتَعَجِّلين أَنها منها ، مع أَنها ليسَتْ كذلك .

إِنها مادَّةُ «ضَيْرٌ» . والضَّير غيرُ الضرر ، وهناكَ فَرْقٌ بينَهما في الاشتقاقِ وفي المعنى . عَين الكلمةِ في «ضررٌ» راءٌ ، وعَين الكلمةِ في «ضَير» ياء .

وعَين الكلمةِ في المضارعِ مضمومةٌ «يَضُرُّ» ، لأَنها من بابِ نَصَرَ ، كما سبقَ أَنْ بَيَّنّا . أَمَّا عين الكلمةِ في المضارعِ مكسورةٌ «يَضِرُ» ، لأَنها من باب «ضَرَبَ» تقول : ضارَ ، يَضيرُ ، ضَيراً . كما تقول : ضربَ ، يَضْرِبُ ، ضَرْباً . وأَصْلُ : «ضارَ» : ضَيَرَ . لكن لما تحرَّكت الياءُ وانفتحَ ما قبلها قُلبتْ أَلِفاً فصارَتْ : «ضارَ» .

قال ابنُ فارس : «الضّادُ والياءُ والراءُ كلمةٌ واحدة ، وهو من الضَّير والمَضَرَّة ، تقول : لا يَضيرُني كذا ، أَيْ : لا يُضُرُّني»[1] .

وجاءَ في المعجمِ الوسيط : «ضارَ ، يَضيرُ ، ضَيْراً . أَيْ : أَضَرَّ بِهِ»[2] .

وجاءَ في لسانِ العرب : «ضارَهُ : يَضيرُه . أَيْ : يَضُرُّهُ . يُقال : ضارَني ، يَضيرُني . وقولُه عليه السلام : «**أَتَضارونَ في رؤيةِ الشمس؟**» . ولما حاضَتْ عائشةُ رضَي اللهُ عنها في الحج ، قال لها رسولُ الله ﷺ : «**لا يضيرُكِ**» . أَيْ : لا يَضُرُّكِ .

---

(١) مقاييس اللغة ، ص ٦٠٦ .

(٢) المعجم الوسيط ، ص ٥٤٦ .

والضَّيْرُ والضَّوْرُ واحد.. ويقال: لا ضَير، ولا ضَوْرَ، ولا ضَرَّ، ولا ضَرَرَ..»[1].

وذهبَ معظمُ المفسِّرين واللُّغوين إلى أَنَّ الضُّرَّ والضَّيْرَ بمعنى واحد، وأَنهما كلمتان مترادفتان، وهذا مردود، لأَنهما مادَّتانِ مختلِفتَان في الاشتقاقِ كما لاحَظْنا، ولأَنهما كلمتانِ قرآنيّتان، ومن المعلوم أنه لا تَرادُفَ في القرآن.

وقد وَرَدَتْ مادَّةُ الضَّيْرِ مرتَين في القرآن:

المرةُ الأُولى: بصيغةِ المصدر ﴿ضَيْرَ﴾:

وردَتْ في قصةِ موسى عليه السلام مع فرعون، فلما أَحْضر فرعونُ السحرةَ لمواجهةِ موسى عليه السلام، وبعدَما عرفوا الحقَّ آمَنوا بموسى عليه السلام، فهدَّدَهم فرعونُ.

قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٥١].

لما هَدَّدَ فرعونُ السحرةَ بالقَتْلِ والصَّلْب، ثَبَتوا على الحقِّ، ورَدّوا على تهديدِه قائلين: ﴿لَا ضَيْرَ﴾.

﴿لَا﴾: نافيةٌ للجنس. و﴿ضَيْرَ﴾: اسمُ ﴿لا﴾ مبنيٌّ على الفَتْحِ في محلِّ نَصْب، وخَبرها محذوفٌ وُجوباً، تقديرُه «واقِعٌ بنا». أَيْ: لا ضَير واقِعٌ بنا.

وعَلَّلوا ذلك بأَنهم مُنْقَلِبون إلى ربِّهم يومَ القيامة، وأَنهم هم الفائزون، لأَنَّه إنْ قَتَلَهم فرعونُ فسيكونون شهداءَ.

قالَ ابنُ عاشورٍ في معنى كلامِهم: «الضَّيْرُ: مُرادِفُ الضُّرّ. يُقال: ضارَّه، يَضيرُه؟ ومعنى: ﴿لَا ضَيْرَ﴾: لا يَضيرُنا وَعيدُك.

ومعنى نَفي ضُرِّه هنا: أَنه ضُرٌّ لحظة، يحصلُ عقبَه النعيم الدائم، فهو

(١) لسان العرب: ٤/ ٤٩٥.

بالنسبة لما يَعقُبُه بمنزلةِ العَدَم. . وهذه طريقةٌ في النفي ، إذا قامَتْ عليها قرينة. . ومنها قولهم: هذا ليس بشيء ، أَيْ: ليسَ بموجود ، والمقصودُ أَنَّ وُجودَه كالعَدَم.

وجملةُ: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾: تعليلٌ لنفيِ الضَّرَر ، وهي القرينةُ على المرادِ من النفي»[1].

لَسْنا مع ابنِ عاشورٍ رحمه الله في القولِ بأَنَّ الضَّير مُرادفٌ للضُّرِّ. . ونوافقُه في معنى نفيِهم الضيَر عنهم.

وحتى ندركَ الفَرْقَ بين الضَّرِّ والضَّيرِ ، لا بُدَّ أَنْ نعرفَ معنى تهديدِ فرعونَ لهم: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

هَدَّدَهم بقَطْعِ أَيديهم وأَرجِلهم ، وبتَصْليبهم في جذوعِ النَّخْل ، وأنْ يستمرّوا هكذا حتى يموتوا.

أليس هذا التقطيعُ والتصليبُ ضَرَراً يُصيب أَيديهم وأَرجلَهم وأَطرافَهم وأَبدانَهم؟.

بلىٰ! إنه ضررٌ وسوءٌ وأَذى ، وإِنه إِفسادٌ لأَطرافِهم ، وإِهلاكٌ لأَبدانِهم ، وهو ضَرَرٌ ما بعدَه ضرر ، وأَذى ما بعدَه أَذَى ، وسوءٌ بالغٌ يُصَبُّ عليهم!.

فكيفَ وهم بهذا السوءِ والضَّررِ والأَذى الذي ينتظرُهم يَقولون: ﴿لَا ضَيْرَ﴾؟!.

فكيفَ اسْتَخدموا ﴿لَا﴾ النافيةَ للجنس للدلالةِ على نفيِ وقوعِ جنسِ الضيرِ عليهم ، مهما قَلَّتْ نسبَتُه؟.

لم يَقْصِدوا في قولِهم: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ إلى نفيِ الضَّرَر ، فهذا سيقعُ بهم لا محالة ، ولا مجالَ لنفيه.

والذي نَراهُ في التفريقِ بين الضَّرَر المثْبَتِ الذي سيحِلُّ بهم ، والضَّيرِ المنفِيِّ الذي لن يَصِلَ إِليهم هو:

الضَّرَرُ: هو السوءُ والأَذى الماديُّ ، الذي قد يُصيبُ الإِنسانَ في جسْمِهِ أَو

---

(1) تفسير ابن عاشور: ١٩/ ١٢٨.

حواسِّه ، كالمرضِ والعمى والعرج ، وتَلَفِ بعضِ الأَطرافِ وتَعطيلِها ، كالأَيدي والأَرجل .

وهذا ما كانَ سيُصيبُ السحرة ، حيثُ ستُقَطَّعُ أَيديهم وأَرجلهُم ، وسيُصَلَّبون في جُذوعِ النخل ، وسيَبْقونَ هكذا حتى يموتوا . إنَّ هذا ضَرَرٌ وأَذى ، لكنَّه ماديّ خارجيّ .

أَمَّا الضَّيْرُ فإِنه السوء والأَذى المعنويّ ، الذي لا يُصيبُ الإِنسانَ في جسْمِه ، وإِنما يُصيبُه في قَلْبه وروحِه ، ومشاعرِه ، وأَحاسيسِه ، وأفكارِه وتصوُّراتِه ، يُصيبُه في نفسِه وأَعصابِه ، وفي عزيمتِه وهِمَّتِه وإِرادتِه ، فيتخلى عن مواقِفه وثباتِه ورجولتِه ، وعن شجاعتِه ومواجهتِه ، ويَضعفُ ويجبنُ ويذلُّ وينهزم .

المشكلةُ ليستْ في الضّرِّ البدنيِّ الخارجي ، فهذا يُستعانُ عليه بالله ، ويُواجَهُ بالصَّبْر والاحتساب ، ولكنَّ المشكلةَ في الضَّيْر المعنوي ، الذي يُصيبُ الأَرواحَ والقُلوبَ والعزائمَ والهِمم ، وإِذا لم يُصب المؤمنُ بالضير في روحِه وقلبِه ، فإِنه يبقى ثابِتاً على الحقِّ ، ويتحمَّل ما يُلاقيه من ضُرٍّ أَو سوءٍ أَو أَذى .

والذي جعلَ السحرةَ المؤمنين يتحمَّلون الضَّرَر ، ويَسلمونَ من الضَّيْر هو نظرتُهم إِلى الآخرة ، ورغبَتُهم في كونِهم من السابقين الأَوائل : ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ويؤكِّدُ هذا المعنى قولُهم الذي أَخْبرنا اللهُ عنه في سورةِ طه : ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه : ٧٢ ـ ٧٣] .

المرةُ الثانية : فعلٌ مضارعٌ منفي ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ :

قال تعالى : ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

الآيةُ في سياقِ تَحذيرِ المسلمين من عداوةِ الكفارِ لهم ، وإرشادِهم إلى وسيلةِ عدمِ التأثُّرِ بتلك العداوة.

والوسيلةُ في الآيةِ هي الصَّبْرُ والتَّقوى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ﴾. ﴿إِن﴾: حرفُ شرط. و﴿تَصۡبِرُواْ﴾: فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ، لأنه فعلُ الشرط. و﴿تتقوا﴾: معطوفٌ على ﴿تَصۡبِرُواْ﴾ مجزومٌ مثله. وجملةُ ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾: جوابُ الشرط.

وفي ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ﴾ قراءتان عشريَّتان صحيحتان؛ على إحدى القراءَتَين تكونُ من مادَّة «ضَيْرٌ» التي نتحدَّثُ عنها هنا... وعلى القراءةِ الثانيةِ تكونُ من مادَّةِ «ضَرَرَ» التي سبقَ أَنْ تحدَّثنا عنها.

الأُولى: قراءة نافعٍ وابنِ كثير وأبي عمرو ويعقوب: «لا يَضِرْكُم».

الفعلُ على هذه القراءةِ من مادَّة «ضَير». وأَساسُ الفعل المضارع: «يَضيرُ». ولكنَّه في الآيةِ مجزومٌ لأَنه جوابُ الشَّرط: «يَضيركم».. والياءُ منه محذوفة، لالتقاءِ الساكنين. فصارَ «يَضِرْكُم»، وبما أَنَّ المحذوفَ منه عين الكلمة - التي هي الياءُ - فإِنَّ الفعلَ على وزن «يَفِلْكُمْ»... و«كُمْ» في محلِّ نَصْبِ مفعولٍ به مُقَدَّم. و﴿كَيۡدُهُمۡ﴾: فاعلٌ مؤخر.

والمعْنى على هذه القراءةِ العشريةِ الصحيحة: كيدُ الأَعداءِ قد يوقعُ الأَذى بكم، ولكنّه أَذى خارجيٌّ ماديٌّ، يُصيبُ أَجسامَكم وأَموالَكم، وهذا محتمل، تواجهونَه بالصَّبْرِ والاحتسابِ والتقوى.

لكنَّ هذا الأذى لن «يَضيرَكُم». أَيْ: لن يكون أَذىً معنوياً، ولَنْ يُصيبَ أَرواحَكم وقلوبَكم، ولَنْ يُضعِفَ هممَكُم وعزائمكم، فأنتم في مأمنٍ من جهته.

ومما يشهدُ لهذه القراءةِ قوله تعالى عن السحرةِ المؤمنين، الذي حَلَّلْناهُ قبلَ قَليل: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

ومما يَشهدُ لها قولُه تعالى في الحديثِ عن عدمِ نجاحِ الكفارِ في الإِضرارِ

بالمسلمين إلا بالأذى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [آل عمران: ١١١]. فالأذى هو الضررُ الخارجيُّ، وليس الضَّيْرَ الداخلي الخطير.

والكلمةُ على هذه القراءةِ العشريةِ الصحيحةِ تدخُلُ في مادَّةِ «ضَير»، ولهذا تكلَّمْنا عنها هنا.

ومن بابِ استكمالِ التحليلِ والفائدةِ نُوَجِّهُ القراءة الأُخرى.

القراءةُ الثانيةُ: قراءةُ الستةِ الباقين: حمزة وعاصم والكسائي وأبي جعفر وابن عامر وخلف: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾.

الفعلُ على هذه القراءةِ من مادَّةِ «ضَرَرٌ» التي تحدَّثْنا عنها.. والضَّرَرُ هو الأَذى الخارجيُّ المادي، والسوءُ الذي يُصيبُ المسلمين.

تنفي الآيةُ إمكانيةَ إضرارِ كيدِ الكفارِ المسلمين، فهم يُعادونَهم ويُحاربونَهم، ويَكيدونَ ضِدَّهم، ويتآمَرون عليهم، لكنَّ هذا الكيدَ لن يَضُرَّهم ولن يُؤثر فيهم، إلاّ أذىً خارجيّاً بسيطاً، قال الله عنه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ﴾.

لكن على هذه القراءةِ الصحيحةِ إشكالٌ نحويّ:

هل فعلُ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ مرفوعٌ أَو مجزوم؟ فإِنْ كانَ مَرْفوعاً فأَينَ جوابُ الشرط؟ وإِنْ كانَ مجزوماً فلماذا عليه الضمَّةُ وليس السكون؟.

لن ندخلَ هنا في استعراضِ الأَقوالِ الكثيرةِ في توجيهِ ذلك، ونرجحُ أَنَّ جملةَ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ جوابُ الشرط، وأنه مجزوم.

أَصْلُ ﴿يَضُرُّكُمْ﴾: يَضرُرْكم؛ الراءُ الأُولى مضمومةٌ على الأَصْل، لأَنَّ فَعْلَ «يَضُرُّ»، من بابِ «يَنْصُرُ» فهو مضمومُ العين.. والراءُ الثانيةُ مجزومةٌ بسبب السكون، لأَنَّ الفعلَ جوابُ الشرط.

وضُمَّت الراءُ الثانيةُ الساكنة، لتُناسب الراءَ الأُولى المضمومةَ، فصارَ الفِعْل: «يَضْرُرُكم»، وهذه الحركةُ تُسَمّى «حركةَ إِتْباعٍ»، أَيْ أَنَّ الراءَ الثانية

تَبِعَت الراءَ الأُولى في حركتِها . . ولما اجْتَمَعَ عندنا راءان مضمومَتان أُدْغِمَتا معاً ، فصارَ الفعلُ ﴿يَضُرُّكُمْ﴾ .

فتقولُ في إِعرابِ ﴿يَضُرُّكُمْ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ لأنه جوابَ الشرط ، لكنَّه حُرِّكَ بالضَمِّ للإِتباع ، والإِدغامُ فيه إِدغامُ المتماثلين .

واللطيفُ الرائعُ في آيةِ : ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ أَنَّ الكلمةَ تحتملُ مادَّتَين : مادَّةَ «ضَيْرٌ» ، ومادَّةَ «ضَرْرٌ» . وهذا دليلٌ على روعةِ الإِعجازِ البياني في القرآن .



الفصل العاشر

مع سورة الإخلاص

سورةُ الإخلاصِ من أَواخرِ السُّوَر ، حسبَ ترتيبِ المصحف ، وليس بعدَها في المصحفِ إلا سورةُ الفَلَقِ وسورةُ الناس.

وهي السورةُ الوحيدةُ في القرآنِ التي لم يُذْكَر اسْمها في إحدى كلماتِ آياتِها. ومن المعلومِ أنَّ أَسماءَ السورِ توقيفيّة ، بأمْرٍ من الله ، وأَنَّ اسْمَ السورةِ يُؤْخَذُ من شيء مذكورٍ فيها ؛ إلاّ هذه السورة ، فكلمةُ الإخلاصِ لم تَرِدْ في آياتِها.

اسمان للسورة:

للسورة اسمانِ توقيفيّان:

الأَوّل: سورةُ الإخلاص: وهو أَشهرُ أَسمائِها ، واللهُ هو الذي أَمَرَ أَنْ تُسَمّى بهذا الاسم. وسُمِّيَتْ بهذا الاسمِ لأَنَّها تُعَلِّم المسلمين الإخلاصَ في العقيدة ، وتُعَرِّفُهم على أَسماءِ اللهِ وصفاتِه.. فهو أَحَدٌ ، صَمَدٌ ، لا مَثيلَ له.

الثاني: سورةُ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: وذلك بإطلاقِ أُولى آياتِها اسماً لها ، وسَمّاها بذلك رسولُ الله ﷺ.

من فضائل السورة:

سورةُ الإخلاصِ من أَفاضِلِ سورِ القرآن ، وَوَرَدَ في فَضْلِها عدةُ أَحاديثَ صحيحة ، منها:

أ ـ روى البخاريُّ عن أَبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً سمعَ رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُها ، فلما أَصبحَ جاءَ إلى

رسولِ الله ﷺ ، فذكَرَ له ذلك ، وكأَنَّ الرجلَ يَتَقالُّها! فقالَ رسولُ الله ﷺ : **«والذي نفسي بيدِه ، إِنَّها لتَعدلُ ثُلُثَ القرآن»**!.

ها هو أَحَدُ الصحابةِ يحبُّ سورةَ الإخلاص ، ويُرَدِّدُها باستمتاع وتَفاعُل ، ويُعيدُها ويُكَرِّرُها من محبَّتِه لها. . وها هو أَحَدُ إخوانِه يُنكرُ عليه ذلك ، وكأَنه وَجَدَها سورةً قليلةَ الآياتِ والكلمات! فلما كَلَّمَ النبيَّ ﷺ بذلك ، أَقسمَ له رسولُ الله ﷺ أَنَّ هذه السورةَ القصيرةَ تَعدلُ ثُلُثَ القرآن!.

وليس معنى هذا أَنَّ مَنْ قَرَأها ثلاثَ مَرّاتٍ فكأَنما قَرَأَ القرآنَ كُلَّه، ولكنها تعدلُ ثُلُثَ القرآنِ من حيثُ المعنى ، وذلك لأَنَّ موضوعاتِ القرآنِ الأَساسيةَ ثلاثة: عقيدةٌ ، وعبادَةٌ ، وقَصَصٌ. وسورةُ الإِخلاصِ سورةُ عقيدة ، فهي ثُلُثُ القرآنِ بهذا الاعتبار.

ب ـ **روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها**: أَنَّ النبيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً على سِريَّة ، وكان يقرأُ لأَصحابِه في صَلاتِهم ، فيختمُ بسورة ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾! فلما رَجَعوا ذكروا ذلك للنبيِّ ﷺ. فقال: **«سَلوهُ ، لأَيِّ شيء يصنعُ ذلك؟»** فسَأَلوه. فقال: لأَنها صفةُ الرحمنِ ، وأَنا أُحِبُّ أَنْ أَقرأَ بها!! فقالَ ﷺ: **«أَخْبِروهُ أَنَّ اللهَ يحبُّـهُ»**.

جـ ـ **روى البخاريُّ والترمذيُّ عن أَنسِ بنِ مالك رضي الله عنه**: قال: كانَ رجلٌ من الأَنصارِ يَؤُمُّهم في مسجدِ قُباء ، فكانَ كلَّما افتتحَ سورةً يَقرأُ لهم بها في الصَّلاةِ ، افتتحَ بـ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، حتى يفرغَ منها ، ثم يقرأُ سورةً أُخرى معَها ، وكان يصنعُ ذلك في كلِّ ركعة. . فكلمهُ أَصحابُه ، فقالوا: إنك تفتتحُ بهذه السورة ، ثم لا ترى أَنها تجزئك ، حتى تقرأ بالأُخرى ، فإمّا أَنْ تقرأَ بها ، وإمّا أَنْ تَدَعَها وتقرأَ بأخرى. . فقال: ما أنا بتاركها ، إِنْ أحببتُم أَنْ أَؤُمَّكم بذلك فعلْتُ ، وإِن كرهْتُم تركتُكُم. وكانوا يرونَ أَنَّه من أَفضلِهم ، وكرِهوا أَنْ يَؤمَّهم غيرُه. . . فلما أَتاهم النبيُّ ﷺ أَخْبروه. . فقالَ له: **«ما يمنعُك يا فلان أن تفعلَ ما يأْمُرك أَصحابُك؟ وما حملَكَ على لزوم هذه السورة في كلِّ ركعة؟»** قال: إِني أُحِبُّها. قال: **«حُبُّكَ إِيَّاها أَدخلَك الجنَّة»**.

د ـ **روى البخاريُّ عن عائشةَ رضي الله عنها**: قالت: كانَ رسولُ الله ﷺ إِذا

أَوى إلى فراشِه كلَّ ليلة ، جمعَ كفَّيْه ، ثم نَفَثَ فيهما ، وقرأَ فيهما : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ، ثم يمسحُ بهما ما استطاعَ من جَسَدِهِ ، يبدأُ بهما على رأسِه ووجْهِه ، وما أقبلَ من جَسَدِهِ.

هـ ـ **من السُّنَّةِ:** أَنْ يقرأَ المصَلّي بسورةِ الإخلاص ، في الركعةِ الثانيةِ من سُنَّةِ الفجرِ وسُنَّةِ المغرب ، بعد قراءةِ الفاتحة ، وأَنْ يقرأَ بها مع المعوِّذتَين في الركعة الثالثة من صلاة الوتر.. كما أَنه من السُّنَّةِ أَنْ يقرأَ المسلمُ سورةَ الإخلاص بعد أَنْ يفرغَ من صلاةِ الفريضة ، وكلَّ يومٍ في الصباح والمساء.

ودَلَّتْ هذه الأحاديثُ على أَنَّ سورةَ الإخلاص من أَفضلِ سُوَرِ القرآن.

نزول السورة:

الراجحُ أَنَّ سورةَ الإخلاصِ مَكِّيَّة ، ومن أَوائلِ ما نَزَلَ بمكة. وعَدَّها بعض العلماءِ السورةَ الثانيةَ والعشرين ، حسبَ تَرتيبِ النزول.. وقد كانَ نزولُها بعد المعوِّذتين: سورةِ الفلق وسورةِ الناس.

وذَكَرَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ وجابرُ بنُ عبدِ الله وأُبيُّ بنُ كعب رضي الله عنهم: أَن كُفارَ قريش قالوا للنبيِّ ﷺ: يا محمد! انسُبْ لنا ربَّك! فأَنزلَ اللهُ هذه السورة ، يخبُرهم فيها بأَنَّ اللهَ هو الأَحَدُ الصَّمدُ.

وهذه السورةُ مكوَّنَةٌ من أربعِ آيات ، تَلْتَقي كلُّها على تقريرِ وحدانيةِ الله ، وتَفَرُّدِهِ سبحانه في أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه.

وفيما يلي تحليلاتٌ شاملةٌ لآياتِ السورة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾:

بدأت الآيةُ بفعْلِ الأَمْر: ﴿قُلْ﴾، وهذا الأَمْرُ مُوَجَّهٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ في المقامِ الأَوَّل ، لكنَّه ليس خاصّاً به ، وإنما هو عامٌّ يَشملُ كُلَّ عالم وداعيةٍ من بعده ، يَقولُ هذا الكلام ، ويتلو آياتِ السورةِ على الناسِ ، ليتعَرَّفوا على وحدانيةِ الله.

وحكمةُ بَدْءِ السورةِ بفعْلِ الأَمرِ ﴿قُلْ﴾ أَنها نازلةٌ جواباً على السؤالِ الذي

وَجّهَه المشركون إلى رسولِ الله ﷺ قائلين له: صِفْ لنا رَبَّك. فأَمَرَه اللهُ أَنْ يقولَ لهم الجواب.

ويُمكنُ تسميةُ ﴿قُلْ﴾ باسم «قُل التَّلقينيّة».. والتَّلقين هو الإلقاءُ والتحفيظُ والتعليمُ. تقولُ: فُلانٌ يُلَقِّنُ فلاناً؛ أَيْ: يُلقي إِليه الكلامَ باللفظ، ليَحْفَظَه ويُرَدِّدَهُ من بَعْدِهِ.

و﴿قُلْ﴾ التلقينيَّةُ أصيلةٌ في بدايةِ هذه الآية، ولَيستْ لَغْواً أو حشواً أَوْ زائدة.. وكم ضَلَّ وانحرفَ ذلك الزعيمُ الذي ذَهَبَ إلى أنه لا فائدةَ منها في أوّلِ الآية، ودعا إلى إسقاطها وحذفِها! ونعلمُ أَنَّ حَذْفَ كلمةٍ من القرآنِ تحريفٌ له، ومَنْ فَعَلَ ذلك فهو كافر، وإِنْ صامَ وَصلّى وزَعَمَ أنه مسلم!.

ويُمكنُ أَنْ نأخذَ من ﴿قُلْ﴾ التلقينيةِ الإشاراتِ التالية:

- إنها داخلةٌ على آيةٍ تتحدَّثُ عن العقيدة، وتدلُّ على أَنَّ هذه الحقائقَ الإيمانيةَ إنما هيَ وَحْيٌ وتَلقين من الله، لرسولِهِ محمدٍ ﷺ، أنزلَه عليه، وأَمَره أَنْ يقولَه ويُبلِّغَه للآخرين.

ويدلُّ هذا على أَنَّ مسائلَ العقيدةِ ومضامينَها تلقينيّة، ولا يجوزُ للبشر - مهما كانوا عباقِرة - أَنْ يجتهدوا في مسائلِ العقيدة، ويُؤلِّفوها ويخترعوها من عندِ أنفسِهم.. وعليهم أَنْ يتلقَّوْها من الوحْي، ولهذا أَسماها علماؤُنا السابقون «السمعيات»؛ أَيْ أَنها تؤخَذُ بالتَّلْقين عن طريقِ السَّماع، ودورُ العقلِ البشريِّ الواعي هو في فهمِ النصوصِ التلقينية، وإِحسانُ استخراجِ حقائقِ العقيدةِ منها.

- تَدُلُّ على أَنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، وأَنَّ هذا القرآنَ هو كلامُ الله.. فعندما يَتلو عليهم الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فهو يصرح بأَنَّ هذا القولَ الذي يَسمعونَه منه ليس من كلامِه أو تأليفِه أو اختيارِه، إِنما هو وَحْيٌ وتَلقين من اللهِ إليه.

وبهذا نَعرفُ أَصالَةَ وأهميةَ ووظيفةَ هذه الكلمة، وأنها ليستْ حشواً أَو زائدة.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : هذه الجملةُ «مقولُ القول» ؛ أَيْ أَنَّها في محلِّ نصْب مفعولٍ به لفعلِ الأَمْر ﴿ قُلْ ﴾ ، لأَنها وما بعدَها هو القولُ الذي أُمِرَ أَنْ يقولَه .

﴿ هُوَ ﴾ : ضميرٌ منفصل ، في محلِّ رفْع مبتدأ ؛ وهو ضمير «الشأن» ، ويُؤتى به للاهتمامِ بالجملةِ التي بَعْدَه ، فإذا سمعَه السامعُ انتبهَ لسَماع ما بعدَه ، لأَنَّ ما بعدَه له شأنٌ كبير ؛ ولذلك سُمِّيَ بأنه ضميرُ الشأن . كأَنه قيل : الشأنُ هو : اللهُ أَحَد .

﴿ ٱللَّهُ ﴾ : لفظُ الجلالة خَبرٌ أَوَّل مرفوع .

﴿ أَحَدٌ ﴾ : خبرٌ ثانٍ مرفوع .

من لطائف الآية :

يمكن الالتفاتُ إلى اللطائفِ التالية في الآية :

١ ـ بَدْؤها بضميرِ الشأنِ ﴿ هُوَ ﴾ :

لإثارة الاهتمامِ بما بعدَ الضمير ، فعندما يَسمعُ السامعُ ضميرَ ﴿ هُوَ ﴾ ، ينتبهُ ويتطلعُ لما بعْدَه ، فيأْتيه الجواب : ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

٢ ـ أخبرت الآيةُ عن اللهِ بأَنه ﴿ أَحَدٌ ﴾ :

وهذا الاسمُ مشتقٌّ من مادَّةِ «وَحْدٌ» التي تَدُلُّ على التميُّزِ والتوحُّدِ والانفراد . وأَصْلُ ﴿ أَحَدٌ ﴾ وَحَدٌ، ولكنَّ الواوَ أُبدلَتْ همزةً للتسهيل .

تقولُ : وَحَدَ الرجلُ في عملِه ؛ أَيْ : تميَّزَ وتفردَ فيه . واسْمُ الفاعلِ منه «واحِد» ؛ تقول : وَحَدَ ، فهو واحِدٌ ، وتقول : هو واحدٌ في صفاته ، أَيْ : متميِّزٌ فيها ، لا يكاد يُشبهُه فيها أَحَد .

ومُؤَنَّث «واحِد» : واحِدَةٌ . ومُؤَنَّثُ ﴿ أَحَدٌ ﴾ : إِحْدى .

ومن ورودِ «واحِدٍ» في القرآن قولُه تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣] .

ومن ورودِ «وَحْدٍ» في القرآنِ قولُه تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ ﴾ [غافر: ٨٤] .

ومن وُرودِ «واحدة» في القرآنِ قولُه تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ومن إطلاقِ «أحد» على غير اللهِ في القرآن قولُه تعالى: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد يُضافُ «أحد» إلى المثنَّى، كما في قولِه تعالى: ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقد يُضافُ إلى الجمعِ، كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [الأنعام: ٦١].

ومن وُرودِ «إحدى» مُؤنَّث «أحد» في القرآنِ، قولُه تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

وليس هذا موضعَ ذكْرِ الفُروق بين الكلماتِ الخمسِ في القرآن: أَحَدٌ، وَحْدٌ، واحِدٌ، واحِدَةٌ، إحدى.

٣ ـ الفرقُ بين «أحد» و«واحِد»:

«واحِد»: اسْمُ فاعل. و«أحد»: صفةٌ مشبَّهةٌ على وَزْنِ «فَعَل».. ومعلومٌ أَنَّ الصفةَ المشبَّهَةَ تدلُّ على تَمكُّنِ الصفةِ في الموصوفِ أكثرَ من اسمِ الفاعل.

إِنَّ وصْفَ اللهِ بأَنه ﴿أَحَدٌ﴾ أَبلغُ من وَصْفه بِأَنه «واحِد».

وعندما نقول: ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾؛ فإِنَّ معناهُ أَنَّه متفرِّدٌ متوحِّد، متميِّزٌ بأَسمائِه وصفاتِه وأَفعالِه، لا مثيلَ له ولا شبيه، ولا ثاني ولا ثالث.

وعندما نقول: اللهُ واحِدٌ؛ فإِنَّ معْناهُ أَنَّه واحِدٌ فقط، وليس مُتَعَدِّداً.

﴿أَحَدٌ﴾: بالنِّسبةِ إلى ذاتِه، متوحِّدٌ في ذاتِه وصفاتِه.. و«واحِدٌ» بالنِّسبةِ إلى غيرِه. ثم إِنَّ «واحِدٌ» مُفْتَتَحُ العَدَد، دونَ «أحد». فأَنت تقولُ: واحد، اثنان، ثلاثة. ولا تقول: أحَد، اثنانِ، ثلاثة.

وقد الْتَفَت الصحابةُ إِلى التفريقِ بين «أحد»، و«واحِدٍ». وأَنَّ الأُولى أَبلغ من الثانية، ولذلكَ كانَ بلالٌ رضي الله عنه يَجهرُ بها، ويُسْمِعُها للمشركين.. عندما كانوا يُعَذِّبونَه، ويَطرحونَه على رَمْلِ الصَّحراءِ الحارق، في الصيف

الحارِّ ، ويَضَعونَ على صَدْرِه صخرةً ، ويقولون لَه : سَتَبْقى هكذا حتى تَكفرَ بمحمد ـ ﷺ ـ أو تموت . . كان يقولُ لهم : أَحَدٌ ، أَحَدٌ . . . ويقولُ لهم : لو أَعلمُ كلمةً تُغيظُكُم أكثرَ منها لقُلْتُها ! ! .

لقد كانَ بلالٌ رضي الله عنه يدركُ ببصيرتِه الإيمانيةِ النافذةِ أَنَّ «أَحَدَ» أَبلغُ من «واحدٍ» ، وأَنَّ الكفارَ كانتْ تُغيظُهم كلمةُ «أَحَد» أَكثرَ من كلمةِ «واحِد» .

٤ ـ حكمة تنكير ﴿أَحَدٌ﴾ :

اللافتُ للنظرِ في الآيةِ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أَنَّ فيها خبرَيْن : الخبر الأَوَّلُ : لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ ، وهو معرفة . والخبر الثاني : ﴿أَحَدٌ﴾ ، وهو نكِرَة .

ومن أَهَمِّ حِكَمِ تَنكير ﴿أَحَدٌ﴾ :

ـ لقد تمَّ تَعريفُ طرفي الجملةِ الاسميةِ ، المبتدأ والخبر : ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ . وناسَبَ هذا تنكير الخبر الثاني ﴿أَحَدٌ﴾ . . . ولعلَّ من غير المناسبِ هنا ذِكْرُ ثلاثِ كلماتٍ مُعَرَّفات : «هو الله الأحد» . . ومجيء نكرةٍ بعدَ معرفتَين جمالٌ قرآنِّي ملحوظ ! ! .

ـ تنكيرُ ﴿أَحَدٌ﴾ للتفخيمِ والتعظيمِ والتكريم ، فللَّه الأَحديَّةُ العظيمة ، التي تليقُ بجلالِه وعظمتِه سبحانه .

ـ تنكيرُ ﴿أَحَدٌ﴾ يُشيرُ إِلى أَنه مهما عَرَفَ المؤمنونَ ربهم ، وتَعَرَّفوا على أَسمائِه وصفاتِه ، فإِنه يستحيلُ عليهم أَنْ يُحيطوا به عِلْماً . وعلى هذا قولُه تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] .

٥ ـ وَرَدَتْ ﴿أَحَدٌ﴾ أَربعاً وسبعين مرةً في القرآن :

جاءَتْ أَحياناً مُثْبَتَة ، وغالباً مَنفيَّة ، ومجرَّدَةً عن الإضافةِ أَحياناً ، ومضافةً للاسمِ أَو الضمير أَحياناً .

لكنَّها لم تردْ خَبراً عن الله إِلا مرةً واحدةً ؛ في سورةِ الإِخلاص ؛ وهذا من روائعِ اللَّطائف .

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ :

هذه الآيةُ الثانيةُ من سورةِ الإخلاص ، جملةٌ اسمِيَّة: ﴿ ٱللَّهُ ﴾ : لفظُ الجلالةِ مبتدأ . و﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ : خبر .

و﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ : صِفَةٌ مشبَّهَةٌ ، على وزن «فَعَل» ، وهي بمعنى اسْمِ المفعول : «مَصْمود» . ولم تَرِدْ هذه الكلمةُ في غير هذا الموضعِ من القرآن .

و﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ : القَصْدُ .

قالَ الراغبُ الأَصفهاني : «﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ : السَّيِّدُ ، الذي يُصْمَدُ إليه في الأَمْر ، وصَمَدَهُ: قَصَدَهُ ، مُعْتَمِداً عليه . وقيلَ : الصَّمَدُ : الذي ليسَ له جَوْف»[١] .

يُقال : فلانٌ صَمَدٌ ؛ إذا كان يَقْصِدُه الآخَرون ، وهو السيِّدُ المطاعُ فيهم . . والمصمودُ: المقصودُ . ومن لغتِنا الدارجة : العَروسُ مَصْمودَة ؛ لأَنَّ الأَنظارَ تقصدُها وتتوجَّهُ إِليها .

فـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ : هو المقصودُ ، يَقصدُه المخْلوقونَ جميعاً ، ويتوجَّهونَ إِليه ، ويَطلبونَ منه قضاءَ حاجاتِهم . . وهو سبحانَه يَستَجيبُ لهم .

قال ابنُ عاشور : «الصَّمَدُ : من صفاتِ الله ، واللهُ هو الصَّمَدُ الحقّ ، الكامِلُ الصمدِيّة . والصَّمَدُ من أَسماءِ اللهِ التسعةِ والتسعين .

ومعنى ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ : هو المفتقِرُ إِليه كُلُّ ما عداه ؛ فالمعْدوم مفتقرٌ وُجودُه إِليه ، والموجودُ مفتقِرٌ في شؤونِه إِليه .

وقد كَثُرَتْ عِباراتُ المفسِّرينَ من السلفِ في معنى الصَّمَد ، وكلُّها مندرجةٌ تحت هذا المعنى الجامع ، وقد أنهاها فَخْرُ الدين الرازي إِلى ثمانيةَ عَشر قَوْلاً . . ويَشملُ هذا الاسْمُ صفاتِ اللهِ المعنوية الإِضافية ، وهي كونُه تعالى : حَيّاً ، عالِماً ، مُريداً ، قادِراً ، متكلِّماً ، سَميعاً ، بصيراً . . لأنه لو انتفى عنه أَحَدُ هذه الصفاتِ لم يكنْ مَصْموداً إِليه . . »[٢] .

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن ، ص ٤٩٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ، للطاهر ابن عاشور : ٣٠/ ٦١٧ .

إنَّ كُلَّ المخلوقاتِ فقيرةٌ محتاجَةٌ إليه ، وهو سبحانَه غنيٌّ عنها . . يُعْطيها ما يَشاءُ ، ولا يُنْقِصُ ذلك من مُلكه شَيئاً ، كما قالَ في الحديثِ القدسيّ : «**يا عبادي : لوِ أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم ، وإنْسكُم وجِنّكم ، قاموا في صعيدٍ واحدٍ ، فسَألوني ، فأعطيتُ كُلَّ واحدٍ ما سَأل ، ما نقصَ ذلِك مما عِندي إلاّ كما يُنْقِصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْر**» .

بين الأَحَد والصَّمَد :

الأحد والصمد : اسمانِ مِن أَسماءِ الله ، وَرَدا في آيتَين متتابعتَين ، فيهما ثناءٌ على الله ، لكنَّ كُلاًّ منهما يختَصُّ بمجالٍ مهمٍّ من مجالاتِ الثناءِ على الله ، فهما متكاملان في ذلك :

﴿أَحَدٌ﴾ : صفةُ كمالِ اللهِ في ذاتِه : فهو صِفَةٌ مُشَبَّهةٌ ، بمعْنى اسْمِ الفاعل «واحد» ؛ فاللهُ واحِدٌ أَحَد ، متميِّزٌ في ذاتِه وصفاتِه ، لا يُشبهُه أَحَدٌ في هذه الأَحَدِيّة . . ولذلك جاءتْ ﴿أَحَدٌ﴾ نكرة ، والتنكيرُ هنا للتعظيمِ والإجلالِ .

و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : صفةُ كمالِ اللهِ مع غيره : وهي صفِةٌ مُشَبَّهَة ، بمعنى اسْمِ المفعول : «مَصْمود» . يقصِدُه ويتَوجّهُ إليه جَميعُ المخلوقين .

ومن اللطائفِ بين الأَحَدِ والصمَدِ ما يلي :

١ ـ كُلٌّ منهما صفَةٌ مشَبَّهَةٌ على وَزْنِ «فَعَل» .

٢ ـ ﴿أَحَدٌ﴾ : نكرةٌ للتعظيم . . و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : معرفَةٌ للتَّخْصيص .

٣ ـ فُصِلَتْ جملة : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ عن جملة : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، ولم تُعْطَفْ بحرفِ العطف ، فلم يَقُلْ : «قل هو الله أحد ، والله الصمد» ، لتكونَ كلُّ آيةٍ مستقلةً بذاتِها ، وتكونَ كلُّ صَفةٍ مستقِلّةً بذاتِها .

٤ ـ عبَّر بالاسمِ البارزِ بَدَلَ الضمير ، فقال : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ، ولم يَقُلْ : هو الصَّمَد ؛ للتَّمدُّح بِذِكْرِ اسْمِ ﴿ٱللَّهُ﴾ المبارَك ، وللإشارة إلى تخصيصِ الصمدِيّة بجملةٍ خاصَّةٍ لتقريرِ أهميَّتها .

٥ ـ ﴿أَحَدٌ﴾: بمعنى اسْمِ الفاعل «واحِدٌ»، والصَّمَدُ بمعنى اسْمِ المفعول «مَصْمود».

٦ ـ ﴿أَحَدٌ﴾: صفةُ ذات، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾: صِفَةُ فِعْل.

٣ ـ قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾:

بعدَ أنْ أَثبتَ اللهُ لنفسِه الكمالَ في ذاتِهِ وصفاتِه في الآيتَين السابقتَين، نفى عنه النَّقْصَ في هذه الآية، فهو سبحانَه لم يَلِدْ مولوداً، ولم يَلِدْه والِد.

والآيةُ جملةٌ فعلية، في محلِّ رفع خبر ثالثٍ عن الله. وقد فُصِلَتْ عن الآيةِ السابقة، ولم تُعطفْ عليها بحرفِ العطف، فلم تَقُلْ: «الله الصمد، وَلم يلد». وحكمةُ عَدَمِ العطفِ هنا تقريرُ استقلالِ نفي النقصِ عن الله، وعدمُ عطْفِه على ما قبله!.

﴿لَمْ﴾: حرفُ جَزْم. و﴿يَلِدْ﴾: فعلٌ مضارعٌ مجزوم. والفاعلُ تقديرُه «هو» يَعودُ على ﴿ٱللَّهُ﴾، والمفعولُ به محذوف، والتقدير: «مولوداً». والجملةُ في محلِّ رفع خبر ثانٍ. والتقدير: اللهُ الصَّمَدُ غيرُ والد.

و«الواوُ» حرفُ عطف، والجملةُ الفعليةُ ﴿لم يُولَدْ﴾: معطوفَةٌ على جملةِ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾. و﴿يُولَدْ﴾: فعلٌ مضارعٌ مجزوم، وهو مبنيٌّ للمجْهول. ونائبُ الفاعلِ تقديرُه «هو»، يَعودُ على الله. والتقدير: اللهُ الصمدُ، غيرُ والدٍ، وغيرُ مولود.

وهذه الآيةُ رَدٌّ على الكافرين، الذين جَعَلوا لله أولاداً وبنات، وهي كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٤٩ ـ ١٥٣].

وقد كانَ المشركونَ يقولون: وَلَدَ اللهُ البَنات، وهُنَّ الملائكة، فكَذَّبَتْهم جملةُ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾. كما كَذَّبهم اللهُ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وجَعَلَ اليهودُ والنصارى الولَدَ لله، فكذَّبَتْهم جملة ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، كما

كَذَّبهم اللهُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ . . .﴾ [التوبة: ٣٠].

ويُناقِشُ القرآنُ نسبةَ الوَلَدِ لله مناقشةً عقلية، ليُبين للمشركين سوءَ زعمِهم، فمن المعلومِ أنَّ الولَدَ لا يأتي للرجلِ إلاّ من صاحبة، فمن أينَ لله الوَلَد، وهو ليسَ له صاحبة؛ قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

ومن بابِ استكمالِ نفي النقصِ عن الله، فقد نَفَتْ عنه الآيةُ أَنْ يكونَ مَوْلوداً: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾. فاللهُ ليس أَصْلاً يَتَفَرَّعُ عنه غيره، وهو ليس فَرْعاً يتفرَّعُ عن غيره، وهو سبحانَه ليس له والِدٌ ولا والدة.

وجملة ﴿لم يُولَدْ﴾ رَدٌّ على النَّصارى الذين أَلَّهوا عيسى عليه السلام، فكيفَ يكونُ إلهاً وأُمُّه مريمُ هي التي وَلَدَتْه؟ والإله لا يولَدُ.. وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقولُه تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥].

من لطائف الآية:

تتكوَّن الآيةُ من جملَتين فعليَّتين، عُطِفَتْ فيهما الثانيةُ على الأولى. ويمكنُ الإشارةُ إلى اللطائفِ التالية:

١ - ترتيبُ الآيةِ خاصّ، ليس على أَساسِ الترتيبِ البشريِّ لِلولادة، فالإنسانُ يولَدُ أَوّلاً، وبعدَما يكبر يتزوَّجُ المرأَةَ فيأتيه الولد، ولو كان ترتيبُها على هذا الأَساس لقالت: لم يولَدْ، ولم يَلِدْ.

ولعلَّ حِكمةَ مخالفةِ الترتيبِ البشري التأكيدُ على أَحَديةِ الله وتَفرُّدِه، وعدمِ مشابهتِه لخلقِهِ.. وبرَزَ هذا حتى في نَفْيِ النقصِ عنه. ولذلك قَدَّمت الآيةُ نفي ولادتِه لغيرِه على نفيِ ولادةِ غيرِه له.

٢ ـ الفعلُ المضارعُ: ﴿يَلِدْ﴾ مُتعَدٍّ إلى المفعولِ به. تقول: وَلَدَ الرجلُ طِفْلاً.. ولكنَّ مَفعوله محذوفٌ في الجملةِ الأُولى من الآية: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، وحكمةُ حَذْفِ المفعولِ به المبالغةُ في تنزيهِ اللهِ عن النقص.

٣ ـ أُدخلَ حرفُ الجزمِ ﴿لَمْ﴾ على كُلِّ جملَة: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وحكمةُ تِكرارِه وإدخالِه على الجملةِ الثانية، إعطاؤُها نَفْياً مستَقِلاً، تأكيداً لنفي النقصِ عن الله. وفَرْقٌ بَعيدٌ بين قولِك: «لم يلد ويولد» وبين قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

٤ ـ ذُكِرَ الفعلُ المضارعُ في الآيةِ مرتَين، لكنَّه لم يكنْ فيهما على حالةٍ واحدة: كانَ في الجملةِ الأُولى مبنيّاً للمعْلوم. ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، وصارَ في الجملةِ الثانيةِ مبنيّاً للمجهول: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ وهذا جمالٌ بيانيٌّ ملحوظ.

أَيْ أَنَّ الفاعلَ العائدَ على اللهِ في الجملةِ الأُولى، صارَ مفعولاً به في الجملةِ الثانيةِ، وعندما بُنيَ الفعلُ للمجهولِ فيها، صار هذا المفعولُ به نائبَ فاعل.

٥ ـ كان الضميرُ الغائبُ «هو» مستتراً في الجملتَين المتعاطفَتَين، واستتارُه فيهما جمالٌ بيانيٌّ آخر.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾:

هذه الآيةُ الرابعةُ تَنفي وُجودَ كُفْءٍ أَو مَثيلٍ لله سبحانه.

الواوُ: حرفُ عطف. وجملةُ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ معطوفةٌ على ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

و﴿يَكُن﴾: فعلٌ مضارعٌ مجزوم. و﴿لَّهُۥ﴾: جارٌّ ومجرور متعلِّقٌ بكلمةِ ﴿أَحَدٌۢ﴾ مُقَدَّمٌ عليه. و﴿كُفُوًا﴾: خَبر ﴿يَكُن﴾ منصوب، مُقَدَّمٌ على الاسم. و﴿أَحَدٌۢ﴾: اسْمُ ﴿يَكُن﴾ مُؤخَّر.. والتقدير: لم يَكُنْ أَحَدٌ كُفُواً له.

و﴿كُفُوًا﴾: اسْمٌ على وزْن «فُعُل»، وهو بمعنى المكافئ والمماثلِ والمشابِهِ والمساوي. وأَصْله بالهمزةِ «كُفُؤاً».

وجَذْرُ الكلمة هو «كفْءٌ» وهو الشَّبَهُ والتَّساوي.

قالَ ابنُ فارس في المقاييس: «الكافُ والفاءُ والهمزةُ، يَدُلُّ على التَّساوي في الشيئين... و: الكِفْءُ؛ المثلُ.. والتكافؤ: التَّساوي»[1].

تقول: كَفَأَ، يَكْفُؤُ، كَفْئَاً. من باب: نَصَر، يَنْصُر، نَصْراً. وهو: كُفْؤٌ. أَي: هو شبيهٌ ومَثيل. وقُلبت الهمزَةُ واواً للتَّخفيفِ والتسهيلِ، فصارَ كُفُواً.

وفي ﴿كُفُوًا﴾ ثلاثُ قراءاتٍ عشريةٍ:

الأولى: روايةُ حفصٍ عن عاصم: «كُفُواً»: بضَمِّ الكافِ والواو، حيثُ قُلبت الهمزة واواً للتَّخفيف، وضُمَّ ما قَبْلَ الواوِ للتخفيف.

الثانية: قراءةُ حمزةَ ويعقوب وخلف: «كُفْؤاً» بإِسكانِ الفاء، وبالهمزة، على الأَصْل.

الثالثة: قراءَةُ ابنِ كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو وأبي جعفر والكسائي: «كُفُؤاً». بضَمِّ الفاءِ والهمزة.

والقراءاتُ الثلاثُ مُتَقاربةٌ في المعْنى، ليسَ بينها فَرْقٌ إلاّ في التحريكِ والتسكين والتسهيل والقلب، وهذه لُغاتٌ في النطقِ بالكلمة.

من لطائف الآية:

١ ـ إدخال ﴿لم﴾ على الجملة، لإِفادَةِ نفيِ نقصٍ ثالثٍ عن الله نَفْياً خاصّاً مستَقِلاًّ.

٢ ـ الجملتانِ السابقتانِ نَفَتا عن اللهِ النقصَ في ذاتِه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فلم ينفصلْ عنه شيء، ولم ينفصلْ هو عن شيء.. فهو كاملٌ متفردٌ في ذاته.

وهذه الجملةُ نَفَتْ وُجودَ مُشابهٍ أَو مساوٍ له سبحانه، لأَنَّه وَحْدَه خالِقٌ، وكلُّ ما سواهُ مخلوق، والمخلوقُ لا يُمكنُ أَنْ يَكونَ كُفُواً للخالق.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ص ٩٣٠.

٣ ـ هذه الآيةُ تعليلٌ للآياتِ الثلاثِ التي قبلَها:

لماذا اللهُ أَحَدٌ؟ لأنه: لم يَكُنْ له كُفُواً أَحَد.

ولماذا اللهُ الصَّمَدُ؟ لأَنه: لم يكُنْ له كُفُواً أَحَد.

ولماذا اللهُ لم يَلِدْ؟ لأَنه: لم يَكُنْ له كُفُواً أَحَد.

ولماذا اللهُ لم يولَدْ؟ لأَنه: لم يكُنْ له كُفُواً أَحَد.

٤ ـ في الآيةِ تقديمانِ لطيفانِ:

الأول: تقديمُ شبهِ الجملةِ ﴿لَّهُۥ﴾ على ﴿أَحَدُۢ﴾. والأَصْلُ تأْخيرها: ولم يكُنْ أَحَدٌ كُفُواً له. وحكمةُ تَقديمِ شبهِ الجملةِ أَنها هي الأَهَمّ، لأَنَّ فيها ضميراً يَعودُ على الله، وهو المقصودُ من السورة.

الثاني: تقديمُ خبر «كانَ» على اسْمِها، والأَصْلُ ذكْرُ الخبرِ متأَخِّراً: ولم يكنْ أَحَدٌ كُفُواً له. وحكمةُ تَقديمِ الخبر هو التأكيدُ على نفْيِ المشابهةِ والمماثلةِ والتكافؤ.

ومن حِكَم تأخيرِ اسم كانَ ﴿أَحَدُۢ﴾ هو التوافُقُ مع فواصلِ آياتِ السورة، لأَنَّ فاصلَتَها دالٌ ساكنةٌ مُقَلْقَلَةٌ قَلْقَلَةً كُبرى.

لطائف بيانية في آياتِ السورة:

في هذه السورةِ القصيرةِ، المكوَّنةِ من أَربعِ آيات، مجموعةٌ من اللطائفِ البيانيةِ الرائعة، سجَّلْنا بعضَها أَثناءَ وقفَتنا التحليليةِ مع الآيات.

ونُضيفُ إلى تِلك اللطائفِ هذه اللطائف العامة:

١ ـ كلمةُ ﴿أَحَدُۢ﴾ مذكورةٌ في السورةِ مرّتَين: في الآيةِ الأُولى وفي الآيةِ الأخيرة. ولم يكُنْ ذكْرُها تكراراً، وإِنما هي في كلِّ مرةٍ بمعْنى. ومن الفروقِ بينها في الآيتَين:

ـ ﴿أَحَدٌ﴾ في الآيةِ الأُولى خَبر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وهي في الآيةِ الأخيرةِ اسْمُ ﴿يَكُن﴾، أَي أنها مبتَدأٌ في الأَصل؛ أَيْ أَنها نُقِلَتْ من كونِها خَبراً لتكونَ مبتدأً.

ـ ﴿أَحَدٌ﴾: في الآيةِ الأُولى خبٌر عن الله، بهدفِ إِثباتِ تفرُّدِه وأَحديَّته،

وهي في الآيةِ الأخيرةِ أُريدَ بها غيرُ الله ، لأنه ليس مساوياً لله! أَيْ: نقلت من كونِها خبراً عن الله ، لتكونَ خبراً عن غير الله . . وهذا جمالٌ مقصود .

- ﴿ أَحَدٌ ﴾ في الآيةِ الأولى في جملةٍ خبريّةٍ مُثْبَتَة ، لإثباتِ كمالِ الله . . وهي في الآيةِ الرابعةِ في جملةٍ خبريةٍ منفية ، لنفي النقصِ عن الله . . ومجيءُ ﴿ أَحَدٌ ﴾ مُثْبَتَةً أَوْلاً ، ثم مَجيئُها منفيّةً بعد ذلك ، بهدفِ الثناءِ على اللهِ في الموضِعَين جمالٌ تعبيريٌّ ملحوظ .

٢ ـ لفظ الجلالةِ ﴿ ٱللَّهُ ﴾ مذكورٌ في السورة مرتَين: وهو في المرتَين مبتدأ ، لكنَّ الذي اختلف هو الخبر. فالخبُر في الآيةِ الأُولى نكِرَة: ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، وهو في الآيةِ الثانيةِ معرفة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ .

وَوَرَدَت كلمةُ ﴿ ٱللَّهُ ﴾ في الآيةِ الأُولى في سياقِ الإخبارِ عن كمالِ اللهِ في ذاته ، وَوَرَدَتْ في الآيةِ الثانيةِ في سياقِ الإخبارِ عن كمالِ اللهِ بالنسبةِ لغيره .

٣ ـ حرفُ الجزمِ ﴿ لَمْ ﴾ مذكورٌ في السورةِ ثلاث مرات ، وهو في كُلِّ مَرَّةٍ داخِلٌ على جملةٍ تَنفي نقصاً عن الله .

﴿ لَمْ ﴾ الأولى: نفت عن اللهِ نَقْصَ ولادَتِه لغيره: ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ .

و﴿ لَمْ ﴾ الثانية: نَفَتْ عن اللهِ نقصَ ولادَةِ غيره له: ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

و﴿ لَمْ ﴾ الثالِثة: نَفَتْ عن اللهِ نَقْصَ مماثلةِ غيره له: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

٤ ـ بِما أَنَّ ﴿ لَمْ ﴾ حرفُ جزمٍ ونفيٍ وقَلْب ، فإنها قَلَبَت المضارِعَ في الجملِ الثلاث إلى ماضٍ ، أَيْ أَنَّ الجملةَ مضارعٌ في الظاهر وماضٍ في الحقيقة. أَيْ أَنَّ هذه النقائصَ الثلاثةَ منفيةٌ عن اللهِ ماضِياً وحاضِراً ومستَقْبَلاً .

٥ ـ اختَصّتْ سورةُ الإخلاصِ بكلمتَين ، لم تُذْكرا في غيرها من السور: الصَّمَد ، وكُفُواً .

واللَّطيفُ أَنَّ الكلمةَ الأُولى ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ صفَةٌ مُشَبَّهة ، أُطلِقَتْ على اللهِ وَحْدَه ، ولا يَجوزُ إطلاقُها على غيره . . وأَنَّ الكلمةَ الثانية ﴿ كُفُوًا ﴾ أُريدَ بها غير الله ، في نفيِ مشابهتِه لله .

واللَّطيفُ أَيضاً أَنَّ الكلمةَ الأُولى في جملةٍ مُثْبَتَة ، وأَنَّ الكلمةَ الثانيةَ في جملةٍ منفيَّة.

٦ ـ من روائع لطائفِ السورة أَنَّ فيها ظاهرة يمكنُ تسميتُها «ظاهرة التَنْصيف» وهي القائمةُ على القسمةِ النصفيَّة.

السورَةُ مكوَّنَةٌ من أَربعِ آيات ، مُتَناصِفَةٍ فيما بينَها :

أ ـ الآيتان الأُوليانِ تتحدَّثانِ عن اللهِ بأُسلوبِ الإِثْبات : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ . والآيَتان الأُخريَانِ تتحدَّثانِ عن اللهِ بأُسلوبِ النَّفْي ، حيثُ وَرَدَ فيهما حرفُ النفي ثلاثَ مَرّات : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .

ب ـ الآيتانِ الأُولَيان : اسميَّتان ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ . والآيَتانِ الأُخْريانِ فعليَّتان : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .

جـ ـ الآيتانِ الأُوليانِ إِخبارٌ عن كمالِ اللهِ وجَلالِه ، وتَفَرُّدِه وتميُّزِه. والآيَتانِ الأُخْرَيانِ إِخبارٌ عن نفيِ النقصِ عن الله.

٧ ـ هناك كلماتٌ مذكورةٌ في السورةِ مرتَين ، وهي :

أ ـ لفظُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ . وكان مرفوعاً في المرتَين.

ب ـ لفظُ ﴿أَحَدٌ﴾ . وكان مرفوعاً في المرتَين.

جـ ـ الفعلُ المضارع : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ . وكانَ مجزوماً في المرتَين.

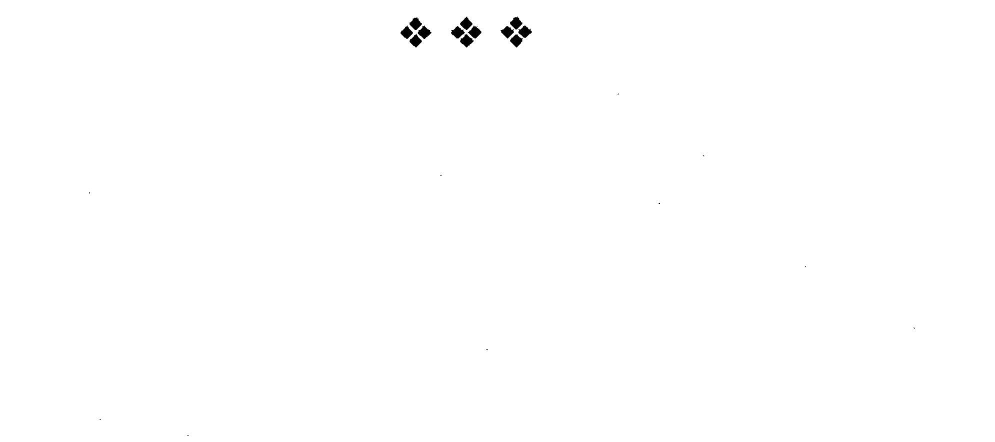
د ـ حرفُ العطف الواو ، وَعَطَفَ فعلاً مضارعاً مجزوماً على فعل مضارع مجزوم.

هـ ـ الضمير المستتر «هو» العائدُ على الله ، وكانَ في المرةِ الأُولى في محلِّ رفع فاعِل ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ . وكان في المرةِ الثانيةِ في محلِّ رفعِ نائبِ فاعل : ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ .

هذه اللّطائِفُ الرائعةُ في سورَةِ الإِخلاصِ دَليلٌ على روعةِ التعبيرِ القرآني ، وعلى جَمالِ الإِعجازِ البياني فيه.

وبهذا نختمُ وقْفَتنا التحليليةَ مع هذه السورةِ الجليلة ، قصيرةِ الآيات ، قليلةِ الكلمات ، عظيمةِ المعاني والدلالات ، ثريةِ اللطائفِ والإشارات . . وهذا مما يُرسِّخُ مظاهرَ فضْلِها ، ويُحقِّقُ كونها ثُلُثَ القرآن ، كما أَخبَر رسولُ الله ﷺ .

والحمد لله رب العالمين



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث
﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾

الفصل الرابع
﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾

الفصل الخامس
﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾

الفصل السادس
﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾

الفصل السابع

السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة

الفصل الثامن
حديث القرآن عن الجاهلية

الفصل التاسع
مع مادة «ضَرْرٌ» في القرآن

الموضوع	الصفحة

الفصل العاشر
مع سورة الإخلاص



صدر من هذه السلسلة «من كنوز القرآن»

١ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن.
٢ ـ في ظلال الإيمان.
٣ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن.
٤ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات.
٥ ـ مع قصص السابقين في القرآن.
٦ ـ لطائف قرآنية.
٧ ـ القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٨ ـ مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.
٩ ـ عتاب الرسول في القرآن: تحليل وتوجيه.
١٠ ـ وعود القرآن بالتمكين للإسلام.
١١ ـ الأعلام الأعجمية في القرآن: تصريف وبيان.
١٢ ـ القرآن ونقض مطاعن الرهبان.
١٣ ـ وقفات مع هذه الآيات.



صدر للمؤلف

١ ـ سيد قطب الشهيد الحي.
٢ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب.
٣ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب.
٤ ـ مدخل إلى ظلال القرآن.
٥ ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن.
٦ ـ في ظلال القرآن في الميزان.
٧ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن.
٨ ـ في ظلال الإيمان.
٩ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن.
١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات.
١١ ـ مع قصص السابقين في القرآن.
١٢ ـ البيان في إعجاز القرآن.
١٣ ـ ثوابت للمسلم المعاصر.
١٤ ـ إسرائيليات معاصرة.
١٥ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد.
١٦ ـ لطائف قرآنية.
١٧ ـ هذا القرآن.
١٨ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية.
١٩ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد.
٢٠ ـ التفسير والتأويل في القرآن.
٢١ ـ الأتباع والمتبوعون في القرآن.

٢٢ ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق.
٢٣ ـ الحطة البراقة لذي النفس التواقة.
٢٤ ـ تفسير الطبري تقريب وتهذيب.
٢٥ ـ الرسول المبلغ ﷺ.
٢٦ ـ القصص القرآني.
٢٧ ـ تهذيب فضائل الجهاد لابن ال
٢٨ ـ تعريف الدارسين بمناهج المفسرين.
٢٩ ـ القبسات السنية من شرح العقيدة الطحاوية.
٣٠ ـ سيد قطب الأديب الناقد والداعية المجاهد.
٣١ ـ صور من جهاد الصحابة.
٣٢ ـ إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني.
٣٣ ـ مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.
٣٤ ـ سعد بن أبي وقاص: المجاهد الفاتح.
٣٥ ـ الحرب الأمريكية بمنظار سيد قطب.
٣٦ ـ سيرة آدم عليه السلام: دراسة تحليلية.
٣٧ ـ بين الإسلام الرباني والإسلام الأمريكاني.
٣٨ ـ عتاب الرسول ﷺ في القرآن: تحليل وتوجيه.
٣٩ ـ وعود القرآن بالتمكين للإسلام.
٤٠ ـ حديث القرآن عن التوراة.
٤١ ـ جذور الإرهاب اليهودي في أسفار العهد القديم.
٤٢ ـ سفر التكوين في ميزان القرآن.
٤٣ ـ الانتصار للقرآن.
٤٤ ـ الأعلام الأعجمية في القرآن: تحليل وتوجيه.
٤٥ ـ القرآن ونقض مطاعن الرهبان.
٤٦ ـ الكليني وتأويلاته الباطنية للآيات القرآنية.
٤٧ ـ وقفات مع هذه الآيات.

❖ ❖ ❖